HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

علاء خالد

رواية

بيت الحرير

دار الشروق

بيت الحرير
علاء خالد
الطبعة الأولى ٢٠١٨
تصنيف الكتاب: رواية

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com
رقم الإيداع ٢٠١٩/٢٥٤٠
ISBN 978-977-09-3548-4
تصميم الغلاف: هاني صالح

علاء خالد

بيت الحرير

رواية

دار الشروق

غرام الأطفال

كان العصير الداخلي الذي يسري في جسم دولت، خليطا من الحقيقة والخيال. كان كاتبنا محسن الحكيم يستمع لتلك الأكاذيب، والتي لم يبدأ في تتبع خيوطها الخيالية، إلا متأخرا، بعد أن أحبها، وأصبحت فكرة إيذائها نفسيّا وكشف حقيقتها؛ تشكل له عقبة في حياته. لم يقوَ يوما على أن يواجهها بأكاذيبها الواضحة. ربما أيضا كانت هذه الأكاذيب سببا في حبه لها، وحبها له، فقد أضافت إلى شخصيتها جزءا ساحرا ومتجددا وله أكثر من وجه، وأضافت إلى شخصيته بعض الظلال المقدسة، ربما لم تكن موجودة بها.

كان يحب اثنتين، وربما أكثر، وليست واحدة، وحافظ عليهما معا من شدة ارتباطهما ببعضهما، فلو فصل واحدة عن الأخرى فستتهشم الأخرى لا شك، وربما يفقد معها أيضا شغف اهتمامه بها، فهذا الجزء الخيالي الذي بنته في شخصيتها هو السبب في حبها له وتعلقها به وهو في هذه السن المتقدمة. ربما كان بالنسبة إليها أحد أبطال الحكايات التي تكتبها في خيالها. أين سيجد من يمنحه هذا الدفء والحيوية ويرى بريق الإعجاب الصافي في عينيه، حتى ولو كان مخلوطا ببريق الأكاذيب الطفولية، وهو الذي اكتسب لقب «حاج»، في كل ميادين الثورة ومواصلاتها العامة ومقاهيها ومنتدياتها؟

كانت تريد أن تخفي أشياء بمثابة ظواهر طبيعية، كالشمس والقمر، حقائق غير قابلة للنفي، كأختها التوأم، وغيرها وغيرها، كأنها تتحدى نظاما كونيّا، وتريد تعديله وحذف أفراد، ومشاعر، وظواهر منه، وإضافة أفراد ومشاعر وظواهر أخرى إليه.

لم تؤكد وجود هذه الأخت التوأم ولم تنفها أيضا. لم تذكر سوى أخ صغير. تركت الحقيقة تعيش معلَّقة، بدون حسم، حتى يمكن لها الهرب. هل كانت ترى الحياة بهذه الطريقة؟ إمكانية مستمرة للهرب من أبواب خلفية، وإثارة التراب حولها في أثناء هربها، لو سدت الأبواب الأمامية في وجهها؟ ولكن في أي زمن، وتحت أي ظروف، اكتسبت دولت إحساس الشخص المُطارد هذا، الذي يبحث عن منفذ للهرب في أي علاقة يدخلها، وفي أي كلام يقوله، وأي حقيقة يذكرها، وأي مكان مغلق يحل به؟ لقد تعرف عليها كاتبنا وهي في أقصى درجات الإحساس بالمطاردة، والرغبة في الهرب، بعد الأيام الثمانية عشر الأولى من ثورة يناير.

كان كاتبنا يتساءل بينه وبين نفسه: لماذا هذا التستر على وجود الأخت؟ هل تشعر بأن أختها جزء قد سُلب منها، ولا تعترف حتى الآن باستقلاله عنها؟ كأنها دولة محتلة لاتعترف بالاحتلال الذي سلب منها أرضا غالية، كان من المفروض أن تعيش وتنمو بداخلها، وليس بعيدا عنها، وتبغي دوما استعادتها. ربما الحياة لاتقدم حلولا سهلة لاستعادة هذه الأرض البعيدة، والقريبة في آن، ولكن ربما عبر طرق أخرى ملتوية ودائرية، منها الخيال والأكاذيب والأحلام؛ حتى تتضح في النهاية خريطة كل نفس، ومسالكها المتشعبة، وأراضيها المسلوبة التي لن تُسترد أبدا.

عرف كاتبنا بصدفة في غاية البساطة، عن وجود «ميادة» أختها التوأم. صدفة لا تتناسب مع تدابير الإخفاء التي اتبعتها دولت. ربما هذه السذاجة في الإخفاء كانت تجعل كاتبنا يتعاطف معها أكثر من تعاطفه لو كانت حاذقة في الإخفاء. في أحد الأيام رأى أختها، في أثناء إحدى إجازاتها السنوية من منحتها الدراسية في فرنسا. كان في انتظار دولت. رأى الأختين التوأم في لحظتين متتاليتين، يعبران بنفس المكان الذي سيقابل فيه دولت. ميادة في الأمام وبعدها بدقائق، جاءت

دولت متأخرة تلك الدقائق عن موعدهما. تخيل وقتها أن الزمن قد تجمد. ثم اكتشف أن الزمن لم يتجمد، ولكن هناك نسخا كثيرة من كل شيء. ربما فكر محسن الحكيم بعد هذا الاكتشاف في أن يكون شقيقا روحيّا لدولت؛ ليعيد لها هذا الجزء الضائع من النفس.
لم يفكر كاتبنا وقتها في أن دولت وميادة ربما كانتا تقفان خلف كواليس مسرح الشارع حيث ينتظر وحيدا فوق خشبته. دفعت دولت ميادة إلى الخشبة في البداية، لتقرأ شغفه بحضورها، عبر صورتها التي تحملها أختها، ثم دخلت هي، لتزيده ارتباكا، فوق ارتباك. وربما أيضا لم يفكر مجسن الحكيم في أن هذه هي طريقتها الفنية في كشف الحقائق، بأن تجعله يشك في جريان الزمن.
كانت دولت تمتلك غنج الأنثى وتصميمها الذي لايتزحزح، مع شخصية سائلة ومسحوقة من الداخل، تتفتت إلى ذرات صغيرة لأهون سبب. لا تثق بنفسها بتاتا، وشديدة التردد في اختياراتها لأي شيء، حتى لملابسها. ولكن عند ظهور الحب، تكتسب قوة وشراسة للدفاع عنه، فتتوحد ذراتها وتتآزر. حبها لأي شيء كان يمر عبر هذا الثقب الضيق من الثقة، وسط جدار كامل من عدم الثقة، لذا إذا نجح من اختارته حبيبا، في الامتحان، وعبر من هذا الثقب الضيق، فسيكون كالقدر لايقبل الرد.
في أوقات فوران الثقة المفقودة، والتي تتواقت عادة مع مواعيد الدورة الشهرية، تستيقظ كل أفكارها الانتحارية ومحاولاتها المتكررة لإيذاء جسمها. تتحول «دولت» إلى مجرة مغلقة لا تعكس شيئا. في تلك الأوقات يشعر «كاتبنا» بعدم أهمية وجوده بالنسبة إليها، ولا يُعد هذا الشقيق الروحي، بل العدو الروحي، وعندها يتجسد فارق العمر، والذي يقارب الثلاثين عاما، بينهما، بجلاء وقوة، كسور عالٍ، فتجرده من كل ألقابه وصوره المقدسة التي منحتها له بخيالها الفني، ويستعيد من جديد لقب «الحاج» بجدارة.
في تلك الأوقات الصعبة كانت دولت تحتاج فقط لمن ينوب عنها أمام نفسها، من يحمل عنها ثقل هذا الوجود. تسحق «كاتبنا» بيأسها، وتحطم الجسر بين عمريهما، وتقفز لعمره الخمسيني وتعامله بندية جارحة، عندها لايرى مبررا لوجوده بجانبها، ينسحب داخل نفسه ويتضاءل حجمه تماما ويتكور ويدخل شرنقته الذاتية. تلك أكثر اللحظات التي يشعر فيها بالرغبة في إيذائها نفسيّا. يشعر بأنها تريد منه أن يتحول إلى مرآة باردة بلا عاطفة تعكس شخصيتها، وليس لمصدر ضوء كما كان يتمنى دائما.
كشفت دولت عن هذا الجزء المعطوب في كاتبنا، هذا الطفل الخمسيني الذي يريد أن يكون دائما في مركز الضوء والاهتمام والرعاية، ولا يريد أن يبرح هذا المكان، ولو شعر في لحظة بغياب هذا الضوء، سرعان ما يشعر بالخوف ويتكور على نفسه ويعود إلى بيته الحريري، ولكن بعد أن يكون قد سبب ألما لمن أهمل هذا الطفل.
يحاول، في تلك الأوقات الصعبة، أن يستعيدها بشتى الطرق من داخل هذه المجرة؛ ليستعيد طفله المهمل معها، ولكن هيهات. كانت لها القدرة، في تلك الأوقات، على أن توقظ هذا الجزء المدمر من ذاته؛ كي تستدرجه لإيذائها. وربما كانت تستخلص من داخل هذا الإيذاء أيضا عصارة جنسية مُرَّة ومحرمة في آن.

جناحان لم ينبتا

كانت مفاجأة سارة لي عندما قابلت محسن الحكيم في إحدى الندوات. كنت ناقمة بشدة على هذا الجيل العقيم الذي ينتمي له. جيل مستسلم جبان وغير واضح، لا في قراراته ولا في رؤيته لنفسه أو للحياة من حوله، ولا يريد أن يتحمل المسئولية حتى لأقرب الناس إليه. أبي كان مثالا لهذا الجيل، كان يصغر أبي بسنوات قليلة. قبل الندوة كنت متحفزة ضده، بدون أي سبب سوى انحياز صديقتي «رباب» له، التي كانت تعرفه جيدا ومداومة على قراءة مقالاته في الصحف، ويتبادلان أحيانا رسائل المجاملة على الفيسبوك في المناسبات.

كنت ما زلت أعيش تحت تأثير تجربة سجن انفرادي، وضعني فيه أبي طوال فترة الثمانية عشر يوما الأولى للثورة، ولم تأخذ عيني بعد على الضوء والهواء والناس والحوارات. حبسي في ذلك الوقت الحرج كسرني بقوة. لم أكن أفعل شيئا سوى أن أتكلم مع الفراغ، صباحا ومساء. صحبني هذا المجال الصامت لشهور بعدها، لا أجد فيها صوتي الخاص. خاف أبي على تلك العروسة، التي خرجت من حيواناته المنوية، من المظاهرات والرصاص المطاطي والتحرش وقنابل الغاز، وحرمني من المشاركة في هذه اللحظة الهامة لجيلي بأكمله. الجزء الأهم في خوفه أنه كان يغار من حالتي الثورية. لم أسامحه على فعلته هذه، والتي كانت سببا هامّا لكي أهجر هذا البيت. كلما أعدت شريط الميدان وأيامه الأولى على مخيلتي، انتابني شعور بالذنب؛ لأن حفلة تعميد جماعية لجيلي قد فاتتني، وتسليم كل فرد فيه كلمة سره، وراية عصيانه الدائم، أو هزيمته الدائمة، كما سيتضح فيما بعد.

كنت أتحرك طوال النهار، كالمنومة، بين الشباك وسريري وسرير ميادة، المسافرة في منحة دراسية بفرنسا، أو أربت على ظهر رينجو، وأظل أتطلع لعينيه اللتين كانتا مثل مرآتين تعكسان حزني، أو أجلس مع محمود، أخي الصغير، الذي كان يقضي يومه بين اللعب مع رينجو أو الجلوس في غرفة أبي أمام أوراقه وألوانه وصمته الجليل، ويبدأ، كعادته اليومية، في رسم سلسلة من الوجوه التي تعبر في النهاية عن وجه أمي الغائب. ثم أنتقل للجلوس أمام شاشة التلفزيون؛ لأبحث عن أصدقائي وسط الميدان، وأمرر إبهامي على كل الوجوه وأتحدث معهم بصوت هامس متوسل محمل بالدموع لعلهم يغفرون لي هذا الغياب.

يقترب رينجو ويجلس بجوار قدمي، يتعمد أن يلصق جسمه بقدمي؛ لكي يجدد ثقته بحبي له، بعد أن أهملته بدون قصد ولم أعد أمنحه الحنان اليومي الذي كنت أمنحه له بداية من اندلاع أحداث الثورة. أدغدغ بطنه بأصابع قدمي، ثم أذهب لنوم بلا نوم، فيتبعني ويتسلل تحت السرير. يدخل محمود الغرفة متتبعا خطى رينجو وينسل ليجلس في سرير ميادة المواجه لسريري، أو يقترب من سريري ويجلس أمامي ويحتضنني. كان يتبع نظاما صارما لحزنه لايحيد عنه إلا قليلا عندما يبدأ في الرسم. كان محمود يعبر عن حزنه على موت الأم، بهذ الشكل العاطفي الصامت، بدون بكاء أو تذمر مما حدث. برغم قوة الصدمة عليه، وتأثير غياب أمنا النهائي، فإنه لم يعترف بهذا الغياب الخالد، واحتفظ بها في مكان ما بداخله يقع بين الحقيقة والخيال، وعاشت هناك، كأنها مسافرة وستعود يوما.

أنتفضُ على صوت نباح رينجو في تمام الرابعة عصرا تقريبا، ثوانٍ وأسمع صوت دوران المفتاح في الباب، فأعرف بعودة أبي من محل قطع غيار السيارات الذي ورثه عن أبيه، يكون رينجو

وقتها واقفا أمام الباب، ومعه محمود، في انتظار ظهور أبي. أظل في سريري لا أبرحه، إلا بعد نزول أبي بعدها بساعتين تقريبا لذهابه للفترة المسائية في المحل. لم تعطل الثورة روتين أبي اليومي، لم يتأخر يوما عن حراسة ماله والنوم بجواره، ما عدا اليومين أو الثلاثة الأولى، التي اشتم فيها، بخبرة التاجر، رائحة الخطر والتي زالت مع توالي الأيام. كان أبي يخشى حرق المحل ونهبه، من قبل هؤلاء «الحرامية والبلطجية» الذين شاهدهم في ميدان التحرير، وفي الشوارع المحيطة بالمحل في السبتية؛ حيث كان بيت العائلة القديم يقع بالقرب منه في خلوصي عند دوران شبرا.

كان أبي يتجنب الدخول لغرفتي، يتناول الغذاء الذي جهزته له، ثم يذهب لغرفته ليستريح قليلا، طبعا أسمع هذا السباب المكتوم الموجه لي، في طريقه لغرفته. أحيانا عند عودته ليلا كان يفتح باب غرفتي فتحة صغيرة، ويطمئن بأني ما زلت نائمة في سريري ولم أهرب.

غيابي عن الثورة كان يجعلني أشعر كأني غائبة عن إدراك أي شيء من حولي، كمن ضُرب بمطرقة على مركز إحساسه. جسم مجوف بلا روح، لا يشعر بأي صدى للألم، بينما روحي كانت تحاول الوصول لمربعها الخاص، وسط الحشود في ميدان التحرير، نيابة عني.

كنا نسكن في الطابق الخامس والأخير في هذا البيت العائلي الذي بناه جدي عبد الحميد في السبعينيات، ووزع ميراثه مبكرا. فخصص شقة لكل عمة من عماتي الثلاث، حتى لعمتي ناهد التي لم تتزوج والتي كانت تقيم في الطابق الأول مع جدتي دولت. لم أفكر يوما في القفز من هذا الطابق المحفز على الطيران، كما فعلت إحدى الفتيات من أيقونات ثورتنا، ولكن تمنيت أن تنبت لي أجنحة. انتظرت أن أصحو يوما، بكل هذا اليأس الليلي، لأجد جناحين يشاركانني السرير، ولكن للأسف لم يستجب الله لدعائي، لم ينبت لي جناحان حتى في رحلات الإسراء الليلية نحو الميدان، الذي كنت أذهب إليه، كما في أيامي العادية، متتبعة مسار الميكروباص (مصر الجديدة ـ التحرير).

حتى ولو نبت لي جناحان، ماذا كنت سأفعل بهما؟ كانت مجرد أمنية مستحيلة أخفي بها عجزي، فرصيد حياتي من السنين والطموحات كان ما زال خبيئا في تلك الأنفاق المعتمة التي يحفرها دود الأرض وليس في البراح العدمي الذي تحلق فيه طيور السماء. لم أحلم يوما بأن أكون طائرا، كنت أشعر بأن السماء متاهة لانهائية. ولكن للأسف أعادت لي الثورة تلك الأحلام، وذلك العدم الذي يختفي وراءها.

لم أكن جريئة قبل الثورة، ولا حتى في أثنائها، ولكن بعد انتهاء الثمانية عشر يوما، أحسست بطاقة جبارة تنتقل لي، جعلتني أقفز، قفزتي الخاصة، من البيت نهائيًا، وأستقل بحياتي. تلك الطاقة المجانية التي اكتسبها جيلي، كانت كذلك طاقة للخسارة والانكسار، فلم يتبقَّ أمامي إلا ثقب صغير من الثقة في نفسي يجب أن أمر منه بكل ضخامة أحلامي وانكساري، وإلا لن أمر أبدا. كنت أعدو داخلي وأقفز الحواجز وأكسر التابوهات، وأفتح قلبي للحياة وللحب.

سيعلق «محسن»، على الصورة التي وضعتها على البروفايل الخاص بي في أول إيميلاته لي بعد تعارفنا، وقبل أن تتحول صداقتنا إلى لقاءات متتالية؛ بأنها صورة جميلة ومعبرة عن لحظة الحرية التي أعيشها. كانت الصورة بعد خروجي من سجن البيت، وإحدى كرامات تلك القفزة، في القطار في أثناء سفري للإسكندرية- من يومها ستصبح الإسكندرية المكان الذي ألجأ إليه للهرب من أي سجن أو ألم نفسي غير مفسر ـ ومن فرط سعادتي يومها فتحت باب القطار، وظللت طوال الطريق

أمسك بقضيبي الباب على الجانبين، وأسلم جسمي وشعري لدفعات الهواء الآتية من الحقول والمساكن الريفية، المحاذية لشريط القطار، غير مصدقة بأني من يقوم بهذا، وبدأت أشير بيدي للناس التي تسكن هذه البيوت وتزرع هذه الحقول، حتى بدون أن أراها، كما كنت أفعل وأنا جالسة على حجر أبي في ترام مصر الجديدة.
كان يمكن لأي شخص أن يأتي من خلفي وينفخ فيَّ فأطير وسط الحقول، ولكني لم أخشَ هذا، فجزء من تجربة القفز أن أقف على هذا الخط الفاصل. التقطتْ لي «رباب»، التي شاركتني الرحلة، عدة صور يظهر فيها شعري المنكوش، طائرا في الهواء ناسيا كل الكبت والإهمال والزجر التي عاشها تحت الحجاب سنوات وسنوات، كانت كافية لكي أنسى لونه وتموجاته وسط أضواء الحياة العادية.
كنت أبغي أن أكشف جزءا من داخلي. فالحجاب لم يكن موجودا فقط على رأسي بل تسلل إلى كل جزء من جسمي. كبرت والحجاب هو العضو الجديد، يشاركني كل أوقاتي وسط الناس خارج البيت، وأخلعه فقط داخله. ربما صورتي التي أعرفها عن نفسي كانت تتجلى وأنا وحيدة. أصبح الحجاب مثل القناع، وربما أخذ دورا أكبر من القناع، عندما أصبح عنوانا لشخصيتي، مثل اسمي وديانتي ولوني.
لاحظت أن كل صوري بالحجاب كنت أظهر فيها واقفة على الأطراف دائما، ورأسي مائل «حبتين» لليمين أو لليسار؛ لأكون في مجال بؤرة العدسة. بدون هذه الحركة سأكون على الهامش تماما. لا أعرف مدى دقة ملاحظتي هذه، ولكن ما لفت نظري تلك العنق الملوية الزاحفة باتجاه مركز غير مرئي، مثل نبات ظل يسعى نحو الضوء.
في أول يوم لي بدون الحجاب، شعرت بأني عريانة، سقطتُ بقوة من تلك الشجرة المحملة بثمار الهوية الشخصية. شعرت باستبعاد من الجميع: أبي، أخوالي، عماتي، وأصدقاء العائلة. لم يتفهم أي منهم خطوتي، فجميع سيدات العائلة كن محجبات. كنت مرعوبة من هذه الخطوة، وكلما زاد رعبي من استبعادي، بل نفيي، عن مجتمعي الصغير؛ زاد تمسكي بأشياء أخرى، وبحثت عن منافٍ أخرى، أهرب إليها، وأتعرى فيها، داخل هذا المجتمع الكبير الذي يشبه السجن.
«نحن في مصر لا نواجِه فقط مشاكلنا الشخصية، بل نواجه مشكلة المجتمع من داخل مشاكلنا الشخصية. لهذا السبب نشعر بالاستبعاد عندما نختلف مع الآخرين، عندها يتجسد المجتمع كله، وصورته، في هذا الآخر، الذي تم الاختلاف معه، فما بالك لو كان هذا الآخر بينكِ وبينه رابطة دم؟ عندها ستشعرين بأن دمكِ كله أصبح غريبا عنكِ».

كتابة على حائط «التمبلر»

«قلت له: أشعر بهذا الدم الغريب يسري في جسمي ويجري في عروقي.
قلت له: أشعر بأن شخصا آخر يعيش بداخلي.
قلت له: أشعر بنفسي شخصا آخر، يتحرش بي.
قلت له: أريد أن أخرج من نفسي، وأترك هذا الشخص الغريب وحيدا داخل جسمي».

دولت كما يراها محسن الحكيم

تعرفت على «دولت» في إحدى حفلات التوقيع لروايتي الجديدة، كانت بصحبة رباب؛ صديقتي من العالم الافتراضي، بدأ تعارفنا على موقع التواصل الاجتماعي؛ بوصفها إحدى القارئات، وقامت بمراسلتي بعد قراءة إحدى رواياتي التي أحكي فيها تاريخ خمسة أجيال من عائلة واحدة، واستمر بيننا الحوار وتبادل الأفكار، في الأدب والحياة، وأحيانا كانت تشركني في مشاكلها الخاصة لتسترشد برأيي الذي كانت تراه إنسانيّا ومختلفا عن سائد الآراء المنتشرة في المجتمع.

كتبت لدولت في الصفحة الفارغة، بعد صفحة العنوان الداخلي، وبعد أن رفعت رأسي ونظرت لها: «إلى قارئتي الجميلة». لفت نظري، وهي تمد يدها بالرواية على المنضدة، تلك اليد الرقيقة، والأصابع الرفيعة والأنيقة والأظافر المطلية بطلاء شفاف له لمعان مكتوم، وذلك الخاتم الفضي والمحفور بالبارز على واجهته حروف مكتوبة بخط عربي جميل، لم أتبينها في البداية، ولكن بعدها سأعرف بأنه اسمها الذي يحمل رائحة زمن قديم، والذي انتقل إليها من جدتها لأبيها. لفت نظري أيضا جرح مندمل على ظهر ساعدها الأيمن، ترك خطّا له درجة أفتح قليلا من درجة بشرتها القمحية اللامعة. بالفعل كانت جميلة؛ بشرة قمحية متفردة، ورأس كبير حتى يخال للمرء للوهلة الأولى بأن هناك خطأ ما في نسب الوجه، قياسا إلى الجسم الضئيل، ولكنه الخطأ الذي يهز نسب الجمال المعتادة، وتتشربه النفس نقطة نقطة حتى يصبح مألوفا، بل منسيّا.

فتح هذا الإهداء الباب لعلاقة استثنائية مع دولت. بعدها تعددت لقاءاتنا. أغلبها كانت تجري وسط أحداث الثورة وجموعها، في وسط البلد وأحشائها: المتاحف والمساجد القديمة، والمقاهي، الحسين، الجمالية، مصر القديمة، مار جرجس، المنيل، متحف أم كلثوم، قلعة محمد علي ومسجده وممراته، عابرين برخام عتباته البارد، أو في الممر الهوائي بين جامعي السلطان حسن والرفاعي.كان السير في القاهرة وأزقتها وحواريها ومسارب هوائها، ومساقط ضوئها النادر، جزءا من الأداء الثوري بالنسبة إلينا. فتحت الثورة شهيتنا، أنا وهي، على اكتشاف هذه الروح القديمة التي عاشت في هذه الأماكن الأثرية، ومحاولة الائتناس بها وملامسة أصالتها.

عبرنا، خلال علاقتنا، بالفصول الأربعة أكثر من مرة؛ شتاء وربيع وصيف وخريف، تبعتهم فصول أربعة أخرى، ثم فصلان آخران كاملان، حتى فض اعتصام رابعة أغسطس ٢٠١٣، والثورة ما زالت مشتعلة بدرجات متفاوتة. نقطع نهار وظهيرة القاهرة سواء في البرد، أو في عز الحر، وهي تسير ورائي بزجاجة مياه معدنية مثلجة خوفا من أن أسقط في الطريق، مثلما كان يسير بيكاسو وراء حبيبته بشمسية البحر كي يحميها من تأثير الشمس الحارق. أحيانا كانت تسبقني جريا حتى توفر جهدي؛ أو لتفتح لي الطريق خوفا من أن يدهسني المتظاهرون. كنت أرى نفسي بشكل مختلف عن النظرة التي تراني بها. ولكن هذه الحواجز في طريقة نظر كل منا لنفسه وللآخر، لم تمنع السلاسة في الحركة، والانسيابية في الكلام، كأننا نتحرك في وسيط مائي، بل لم تمنع الضحك المتواصل على أقل شيء، برغم صراخ الحشود، والذي يضيف إلى الدوافع السابقة دافعا جديدا وهو الحب ولكن بدون آلامه.

أحيانا كانت تبالغ في راحتي، تطلب مني مثلا أن نتوقف لتسألني، كأنني نائم على سرير في مستشفى: هل أنت بخير؟ كنت أستغرب من السؤال جدّا، فقد تعودت على هذا النوع من السير الطويل في حياتي العادية. كل هذا كان يشعرني بالفارق العمري بيننا بقوة، وكيف تنظر باستعلاء

عين الطائر، من نافذة عمرها العشريني، على الرائحين والغادين. هذا الخوف الطفولي على حياتي، ربما كان أحد أسلحتها التي صنعها وعيها الباطن ليكون حاجزا إضافيّا بيننا؛ كي تمرر من تحته كل المشاعر الأخرى بلا حرج ولا محاسبة لنفسها. ولكن وسط كل هذا كنت أشعر بخيبة الأمل كونها أخرجتني من قائمة الأحبة المرتقبين!

بالتأكيد هناك حلم قديم في نفسي، وفي نفس أي رجل في الخمسين، أو الستين، أو السبعين، أن تصادفه هذه الهدية المرسلة من السماء، وأن تحبه فتاة في بداية عشرينياتها، ويفجرا معا نبع الماء من وسط الصخور. دائما ما تلح عليَّ صورة «فلورنتيو أريثا»، بطل رواية ماركيز «الحب في زمن الكوليرا» وتتبعه لحبه ولحبيبته حتى وصلا إلى السبعين، لينام معها في هذه السن؛ تحقيقا لرغبة قديمة لم تحدث في زمنها الطبيعي. كل فترة عمرية يصاحبها العديد من الرغبات المفقودة، التي لا يقدرها العمر جيدا في وقتها؛ بسبب عدم نضجه، العمر، لتظهر من جديد، في عمر آخر، ولكن بعد أن فقد الجسم القدرة على الاستمتاع، ولكنه اكتسب النضج الذي يمنحه تحويل المتعة إلى خيال. في تلك الحالة تدخل الرغبة والمتعة في وريد الذهن مباشرة بدون أن تعبر على ذاكرة الجسد. هناك دائما تضاد وتداخل، وذوبان أحيانا، بين الرغبة والنضج والعمر المصاحب لها؛ لذا أعتبر فلورنتيو أريثا بطل ماركيز استثناء يجب الاحتذاء به.

ليس الحب فقط هو عنوان هذه الرواية، ولكن الصبر وموهبة التتبع، أن تشم رائحة حبيبك وأنت صغير وتظل تحملها في ذاكرتك حتى تكبر. طاردتني أطياف فلورنتيو أريثا، ومنحتني وعدا بأن الحب يمتد حتى السبعين، المهم أن يكون وراءه اشتياق ورغبة في التواصل لايهرمان، ورائحة تجري وراءها تتعدى حدود وطن الرغبة إلى وطن الذكرى.

هذا العمر، الذي أحمله على ظهري الآن، كنت أنظر له وأنا صغير باحتقار ونزق، أو باستخفاف من سيظل أبدا شابّا؛ كونه العمر الذي جاوز الخط الأحمر لتذوق عصارة الحب أو آلامه. كانت نظرة شديدة السذاجة والتمييز، موجهة ضد ثروة الحب التي يختزنها كبار السن في كل مكان من أجسادهم.

هذا الإهداء لن يكون الأخير، ففي لقاءات عديدة، كانت تفتح مفكرتها على صفحة بيضاء، وتخرج القلم وتطلب مني أن أكتب لها شيئا، أي شيء. كانت تودعني من بداية لحظة تعارفنا، ولمدة ثلاث سنوات تقريبا. تحاول بقدر الإمكان أن تملأ جراب ذكرياتها بالعديد من هذه القصاصات المبتورة. ستصير هذه القصاصات مادة أساسية من مواد حياتها. كنت أطاوعها مدفوعا بشجن اللحظة والتيار الكهربائي الذي يولده فارق السن بيننا، وطيف فلورنتيو أريثا، ونشوة التجربة الجديدة، فكان الكلام الذي أكتبه شعريّا غامضا ويجاوب عن سؤال آتٍ من المستقبل أكثر مما يصف الحاضر؛ ربما لينوب عني في اللحظة التي لن أكون موجودا فيها، كأني أكتب وصية ستُفتح في غيابي.

لم تكن فقط هذه هي الوصية الوحيدة التي ستفتحها في غيابي، بل ستفتح معها العديد من الوصايا الأخرى المصورة: تلك الصور وشرائط الفيديو التي كانت تأخذها بكاميرتها الصغيرة، ذات الكفاءة العالية، خلسة وعلنا، في أثناء جلوسنا على المقهى، أو ونحن نسير وسط المظاهرات، أو ونحن نتناول السندوتشات، أو ونحن داخل حي مار جرجس وخلفنا تظهر جدرانه العالية كاشفة عن أحجارها الصلدة، أو ونحن نسير وسط ضوء الديانة المسيحية المعتم في المتحف القبطي، أو ونحن ممددان تحت نجفة مسجد محمد علي الكبيرة ذات القناديل الشفافة؛ لكي تعود بكل هذه

الوصايا المصورة للبيت، وتعرضها على تلك الشاشة البيضاء الكبيرة في غرفتها بواسطة البروجيكتور.
ربما حدسي بالانتهاء السريع لهذه العلاقة الاستثنائية، منحني كلمة السر التي ألتقط بها كلمات الوداع المواربة في قاموسها اليومي. بالنسبة إليها كنت موجودا لأخلق لها ذكريات في المستقبل، أما في اللحظة التي كنا نعيشها، فقد كنت غائبا. ربما الغياب هو الذي جمعنا وقرَّب بيننا. وربما هذا الغياب المتعجل، أيضا، والذي تفكر فيه من لحظة معرفتها بي، سببه هذا المرض الإنساني الغامض الذي يدفعها لحب الرجال كبار السن واقتفاء خطاهم. حب بلا أمل، كأنها تقفز سريعا من تلك السفينة الغارقة في لحظة ركوبها. ربما هؤلاء الكبار كانوا يشكلون لها أمانا ما، ولكن من يضمن أن يكون هذا الأمان خاليا من الأشواك، وأن تنفجر ثروة الحب المدخرة عندهم في وجهها، وأن هناك نارا لا تزال مشتعلة تحت رماد الشعور البيضاء؟
كانت دولت، عند معرفتي بها، في لحظة خروج من «الفقاعة»، كما وصفتْها، سبَّبته الثورة. برهة مؤقتة، قد تستغرق سنين أو شهورا أو أياما أو حتى ساعات؛ تندفع فيها للخارج بكل كيانها، حتى تنسى سنوات «الفقاعة» والتعب النفسي والبكاء والخوف، والتكور، ولكنها تعرف بأنها ستعود إليها حتما. بمجرد أن ترى دافعا للخروج، وبحدسها الذاتي وبقرون استشعارها الذكية، حتى تسرع بأقصى ما تستطيع في هذا الطريق الجديد، حتى تفقد الأمل تماما في الرجوع للفقاعة، ولكنها في النهاية تعود. بقدر اندفاعها السريع، بقدر عودتها المفاجئة. فالفقاعة، كما قالت، كانت اختيارا لاواعيا وقدريّا. كانت تحمل «الفقاعة» معها في كل خطواتها وسط الناس، تشعر بأن هناك دائرة مفرغة من الهواء تحوطها، وتمنع وصول أصوات الحياة إليها. طوال فترة علاقتنا كانت الفقاعة ماثلة أمام عينيها كحبل مشنقة يهتز في الهواء.
لم أكن حاضرا ولادة هذه «الفقاعة» النفسية، ولكن تنفستُ هواءها الفاسد العدمي الخالي من أي أمل، شبيه برائحة الفم لكائن استيقظ لبرهة قصيرة من سبات طويل لايريد أن يستيقظ منه. أيضا رائحة عرقها الحادة، والنفاذة، خرج من هذه الفقاعة، حتى إني كنت أخال جسمها يعيش منقوعا في عرقه القلوي، غير الحميم، منذ سنوات، ويستمتع بهذا الكيس المائي الشفاف.
اختارت في أثناء الثورة أن تتبع البسطاء داخل الميدان وخارجه، الآتين من الأرياف وعمال المحاجر وعمال النسيج، ومحاولة مساعدتهم ونشر قصص حياتهم. وبالفعل صممت قناة على اليوتيوب كانت تبث منها هذه القصص يوميّا ولاقت نجاحا ونسبة مشاهدة وتتبع عالية في أثناء فوران الثورة. أطلقت على القناة اسما رمزيّا: «وادي المستضعفين؛ رغبة منها في إخفاء شخصيتها الأصلية. تعاطفها مع البسطاء، كان يشدها بقوة من داخل هذه الفقاعة، ويبطل أعراض مرضها النفسي، الذي كانت تصر على أنه موجود، وحكت لي بأنها ذهبت به للطبيب النفسي بصحبة ميادة أختها، وبدون علم والديها، لتصرخ في وجهه: أنا مريضة.
هل بالفعل كانت دولت تبحث من وراء حبها لي، وتعلقها الشديد بي، عن صداقة نظيفة بلا ألم، أو بمعنى أصح بلا جسد؟ عن «الظل» الذي كان أحد أشكال تجلي الجسد في الفكر المصري القديم؟ هل كانت تبحث عمن تقول له: «يا صديقي»، كما كانت تَنغِّم الكلمة وتفرح بها وتلوكها في أحاديثنا ورسائلها عبر الإيميل؟ هذه الصداقة المرتجاة كانت مثل معدة حوت جمعتْ فيها بين الرمال والأسماك، والأحذية المفقودة، والسلاسل الذهبية، ولوحات السيارات القديمة، والمسامير

الصدئة. كنت أشعر أحيانا بأني أقف في مكان عقدة ما أتخبط في خيوطها المتشابكة وغير قادر على الفرار.
لم تكن دولت فقط من تقرأ المستقبل وتحاول أن تقفز إليه من سفينة الصداقة الغارقة، أنا أيضا. لم أتخيل أبدا وجودها في حياتي في المستقبل، بأي شكل كان. كان وجودها مرهونا بهذه السنوات الاستثنائية، وبسيولة الثورة التي سرعان ماستتجمد، وتتحول إلى قوالب ثلجية. دفعني هذا الإحساس لأن أضغط على مضخة مشاعري كي أستخرج أقصى طاقة من البئر، وما بعده، لأروي بوفرة هذه الشهور والسنوات واللقاءات والتفاوتات، وفارق السن والمفاجآت وأطياف فلورنثيو أريثا، التي لم تتوقف هي الأخرى عن تقفي أثري ودفعي لكي أحقق حلمي.
كنت أمتح بلا حساب من بئري الشخصية، والتي كانت تفيض بمياه لها طعم ملحي مختلف، تأتي من أعماق أبعد بكثير من قاعها المكشوفة. كنت أرى طريقا موازيا للطريق الذي تجري فيه دولت باندفاع تجاهي؛ طريقا تجري فيه باندفاع عكسي خوفا مني، أو كراهية فيَّ. كانت مشاعرها الحميمة، مثل الجذور الهوائية المعلقة لشجر التين البنغالي، بلا أرض؛ لأنها نبتت فقط في الخيال، وداخل هواء الفقاعة، وسريعا ما ستفقد إيمانها بنفسها.
المصيدة الحقيقية التي وقعت فيها، أن تحل «أنت» مكان نفسها، أو تقف بينها وبين نفسها كقشرة البصل؛ لتعكس هذا الوجود. أن تتعاطف معها بدون أن ترى موضع قدمك ولا تكون فقط ظلّا باردا، بل جسد ساخن. لو حدث هذا، فقد أكلت قطعة الجبن الكبيرة، وستكون في انتظار سماع صوت ارتطام باب المصيدة عليك، وتخبطك بين جدرانها.

لسان آخر

لم أشعر، قط، بأني أكذب، مهما خالفت الحقيقة، أو ادعيت عكس ماحدث. هناك لسان آخر داخلي، يتكلم بدلا مني أحيانا، ويحكي هذه الروايات الخيالية. لم أحقق أي مكاسب من رواياتي، ولم أسبب بهذا اللسان أي أذى لأحد، كان مفصلا على مقاس نفسي وحياتي ووحدتي، بدون أي طموح آخر، سوى أن أوسع من حدود هذا العالم الذي أعيش فيه.

لم يورط نفسه، كأي مخبر عاطفي، في تتبع خيط رواياتي الخيالية حتى يكتشف الكِذْبات التي تقف وراءها أو المخبأ الطفولي الذي تخرج منه. كان يتوقف عند نقطة معينة ويزيح هذا الشك جانبا. كان حبه للروايات والحكايات أكبر من شكه، جعله يتعامل معي بحكمة وبوصفي حكاية فنية. كنت أقطف له كل يوم ثمرة تضج بعصير الخيال وأرى لمعة عينيه وهو يقضمها بتلذذ. ربما كبرياؤه العنيدة منعته من أن يتورط في العتاب واللوم، وهما درجتان من درجات الحب، الذي كان يغلفه دوما وراء مجموعة من الشعارات الرصينة. بعد العديد من الجلسات المفتوحة، تورط هذا «الطبيب النفسي» في حب مريضته، وأصبح شريكا في نمو هذا اللسان الروائي لهذه الشخصية الأخرى الذائبة فيَّ. ربما سيكون، لهذه الشخصية، دور البطولة في رواية مستقبلية سيقوم بكتابتها حتما. كان لساني يتمدد ويتلوى ويكتسب قوة وليونة وإبداعا في حضوره، كأنه «الآخر» الذي يعكس ما لا يمكن قوله؛ لأخفي أي شعور بالدونية يسببه حضوره.

أحيانا كنت أتعمد أن «ألخبط» حساباته، أدس في حديثي معلومات خطأ عن حياتي السابقة والحالية. كان يكظم غيظه، ولا يظهر ما يعتمل بداخله عندما تتحول إحدى مغامراتي في الكذب إلى كذبة حقيقية مفضوحة. حمل معي «محسن» أثقال كوني الخاص، بكل أشواكه، وخرائه، وتخثراته، وزبده، وأحجاره. أحيانا كان هو الحائط الزجاجي لصفحتي على مدونة «التمبلر» الذي أدون عليه هلوساتي الليلية واعترافاتي الطازجة وليدة اللحظة، وأنام كل يوم باكية بجوار نوره الخافت.

لم أخجل يوما من مصارحته بما تفيض به نفسي، من حقيقة أو خيال، وبدون أن يتهمني يوما بالأنانية، كما كان يفعل مصعب حبيبي. قليلة هي المرات التي واجهني فيها مباشرة بأخطائي. لا أعرفها، إلا بعد أن أكون قد شفيت منها تماما، ولم تعد تسبب لي أذى نفسيّا. ليس هناك مكان سري لهذه العلاقة تنمو فيه، فأي سر قديم كان يذاع على شاشات مستقبلية كبيرة في ميادين حدسنا؟ نمر بجواره، يراه ولايعلق. لم أكن أخشى تلك العين الأخرى التي يخفيها عني، فمهما حدث بيننا، فلم أكن أخدعه، فقط أطلب منه أن يكون إنسانا متفهما ومصدقا بقلبه. لم تكن هناك مساحة فاصلة بين الخيال والحقيقة، الاثنان لهما قوة الحضور نفسه، وقوة حضور الألم الذي يسببانه.

وأنا صغيرة، في بداية المرحلة الثانوية، أقدمت على أكبر مواجهة في حياتي، في هذه السن المبكرة؛ لكي أتخلص من هذا اللسان الآخر الذي يتكلم بالنيابة عني. ذهبت مع ميادة، بدون علم أبي أو أمي، لأحد الأطباء النفسيين، ووضعت أمامه كل ما أشعر به، عن هذه الذات الأخرى التي تتحرش بي ويضيق تنفسي في حضورها. كنت أشعر بغربتي عن نفسي، كأني أريد أن أغادرها، وكتبت، وأنا أسترجع هذا الماضي، إحدى يومياتي، بهذا المعنى، على صفحتي في مدونة «التمبلر». في هذه السن المبكرة بدأت أتنبَّه لهذا الوحش الذي يسكن بداخلي. لم يفهمني الطبيب، ونصحني بنصائح أخلاقية لم أعرها أي اهتمام لأعالج بها هذا «الكذب» اليومي. استقرَّ وقتها في

قرارة نفسي أن هذه الشخصية الأخرى لن تُشفى، بل أصبح بقائي في الحياة مرهونا بعدم شفائها؛ لأنها لو شُفيت، ستختفي من حياتي، وسأواجه الحياة وأنا وحيدة، وهذا إحساس لا أطيقه، ولا أحب أن أفكر فيه من الأساس.

السير على الجسر بين عالميْن

كانت «دولت» تستمد، من هذا العالم الافتراضي، اللذة والأمان معا، بدون أي رغبة في تجسيد أبطاله، إلا نادرا. كانت المسافة تضيق وتتسع بين العالميْن الافتراضي والواقعي، أحيانا يتطابقان، ويحنو كل منهما على الآخر، وأحيانا يتباعدان، ويكيل كل منهما السباب للآخر. وأحيانا كانت تعثر على تلك المنطقة الآمنة بينهما التي تجمع العالميْن بدون أن يجور أحدهما على الآخر، عندما تقع في أسر علاقة حب. عندها يبدأ خزان عالمها الافتراضي بالامتلاء عن آخره بشحنات عاطفية لها قوة الحقيقة في ملمسها وتأثيرها. لايهم من أي أرض أتت هذه الشحنة، المهم أن لها القدرة على تحويل الخيال إلى حقيقة. كان هذا الحب يمثل لها الجسر الذي تتحرك عليه بين العالميْن، وعندها تشعر بأقصى درجات الأمان والاتساق مع النفس.

في شهور الثورة الأولى، قابلت «محسن الحكيم»، وأحبته. كان الكاتب المفضل لرباب صديقتها، وأحد هؤلاء القديسين، الذين يعيشون في تلك المنطقة الواقعة بين الخيال والواقع. وفي الوقت نفسه أحبت «مصعب» أحد أصدقائها الثوار، الذين يعيشون، أيضا، في تلك المنطقة الواقعة بين الخيال والواقع. رأته في أحد الأيام يخطب من فوق إحدى المنصات العديدة التي نُصبت في كل أركان سرادقات الثورة.

هل هي صدفة أن يكون الحب هو الجسر بين هذين العالميْن؟ كان عليها، كي تعيش، أن تحب بأكثر من طريقة، كأن الحب صخرة سيزيف التي يجب عليها أن تحملها، كعقاب قدري، للأبد. أحيانا كانت تفكر أيهما هو الحقيقة وأيهما الحلم. فحبها لرجل يكبرها بحوالي ثلاثين عاما، من المفترض أن يكون حلما بحكم الفارق الكبير في السن، وفي المسافة التي تجعل الرؤية كمن يسير في الحلم ويرى الأشياء من وراء سطح مغبش. بينما علاقتها بمصعب؛ حبيبها الثوري، الذي يكبرها بأربعة أعوام فقط، من المفترض أن يكون هو الحقيقة وكأنها تراه بوضوح من وراء زجاج رائق. كان الحب يسير في مسارين منفصلين، ظاهريّا، في منطقة بين الحقيقة والحلم، لايؤثر أحدهما على الآخر، بل خلق لها وجهين وشخصيتين، وربما أيضا حياتين.

ربما كان حبها الحالم لكاتبنا «محسن الحكيم»، نوعا من العلاج النفسي، الترياق الذي تحقن به نفسها حتى تتحمل السموم التي تفرزها علاقتها الواقعية بمصعب؛ حبيبها الثوري. توصلت لهذا العلاج بخبرة الألم الطويلة وتشابهه، لتكتشف هذا الخيط الممتد بين هذه الرءوس البيضاء التي أحبتها، وتلك اللمسة الحانية التي بمجرد أن تقترب من جسمها أو خيالها، تشعر بمدينة غارقة تطفو بداخلها، وتسترد بعضا من وجودها الضائع.

كانت الثورة، مثل الحب، إحدى الفترات التي جعلتها تسير بخفة على الجسر متنقلة بين العالميْن؛ الافتراضي والواقعي، برغم كل الألم والجثث والصراخ. ربما «خبرة الألم» أفرزت مخدرا ذاتيّا للسعادة المؤقتة، وكانت الباب الخلفي الذي يسمح بالتسلل لبهو نفسها وبث السعادة فيها ولأمِ أجزائها الغارقة.

أحبت دولت الثورة إلى درجة الهلاك، رأت فيها أيضا مكانا متوسطا بين الحلم والواقع، يمكن أن تجتمع فيها عوالمها الغارقة والناجية، وكل أزمنتها بدون أن تخسر أيّا منها. في تلك الفترات كانت الثورة تحقن الحياة، والنفوس الحالمة، بمخدر السعادة والألم معا. كان دخان حشيش السعادة والألم يتصاعد بكميات هائلة في سماء مصر والخيال.

كتابة على حائط «التمبلر»

«النهارده حسيت إنه أبويا بالفعل. كان الجو حر أوي والشمس حامية، أول ما دخلنا الجامع لقيته اختار نقعد تحت شباك جايب تيار هوا، ورمى ضهره على الرخام البارد ونام، نام بجد مش هزار وابتدا يشخر. قرب مننا واحد من حراس الجامع، تقريبا من المخبرين الفاضيين اللي بيحموا السياح، عشان ينبهنا إن النوم ممنوع. شاورت له من بعيد قبل ما يقرب، عشان مايصحيش «بابا». الحارس صدق إنه أبويا بالفعل، وإني بنته ورجع لمكانه. طلَّعت الكاميرا وسجلت له الحالة الآمنة اللي كانت متجسدة قدامي. أجمل حاجة بحبها فيه، إني بحس في وجوده بعالم تاني مطمئن وسالم. صوَّرت كل تفاصيله وهو نايم، حتى صوت شخيره الضعيف طلع في التصوير. حسيت إنه مش نايم أوي، وسايبني أصوره على راحتي من غير ما يعترض.

جامع محمد علي كان ملاذنا في نهارات القاهرة اللي مليانة ثورة واحتجاجات وقتلى. نختار زاوية هادية جنب شباك بيجيب هوا حلو، ونرمي بضهرنا على الرخام الساقع ونمدد رجلينا ونحلم جوانا. يمكن نقعد فترة كده ما نتكلمش خالص، بس كل واحد حاسس بالتاني. كانت أكتر حاجة عيني بتروح عليها وبتاخد روحي، وأنا قاعده جنبه، هي النجفة الكبيرة اللي في وسط الجامع، مئات المشكاوات الإزاز الشفافة، باللمبات البيضا اللي فيها، والضوء الملون اللي جاي من الشبابيك الإزاز الملون اللي بتلف دايرن داير حوالين القبة من جوه. الإضاءات والألوان دخلتني في دوامة زي الأحلام اللي يتحول فيها الجسم لخطوط متقطعة من الضوء.

شوية بعد ما استريَّح وفاق، لقيته طلَّع من شنطته ديوان محمد الماغوط، الغلاف الأحمر التخين، اللي يشبه غلاف الأناجيل القديمة. ابتدا يقرا بصوت واطي جدّا. وإحنا داخلين من البوابة الرئيسية كان الديوان في شنطتي، قام الحارس سألني: معاكِ إيه؟ فقمت طلعت الديوان، وقعد يفتش فيه عشان يشوف «الممنوعات» اللي جواه. لقيت محسن قام إتنرفز وشد الديوان من إيد الحارس: «ديوان.. ده ديوان شعر.. مش ممنوعات».

كان فيه مجموعة من الشباب الآسيوي، تقريبا من اللي بيدرسوا في جامعة الأزهر، واقفين قريب من القِبلة، كان المرشد اللي معاهم بيعمل تجربة صدى الصوت، اللي اتصمم الجامع عليها، إنه يعكس أي صوت جوه بيت الصلاة، اللي تحت القبة، عشان يسمَّع أبعد مكان في الجامع.

وإحنا طالعين عدينا في طريقنا على سجن القلعة، اللي اتسجن فيه أغلب المساجين السياسيين أيام حكم عبد الناصر. اتحول لمتحف دلوقتِ. فيه زنزانة في آخر صف الزنازين على الشمال، بقت هي نموذج الزنزانة للسجين السياسي، وحاطين جواها نموذج لسجين قاعد على الأرض ولابس لبس السجن «ده المسجون الأبدي اللي مش هيطلع أبدا من السجن لأنه بقى نموذج». ده كان تعليقه وإحنا في طريقنا للبوابة الخارجية للقلعة».

سافرت ميادة وأخذت معها صوتي

كان لأبي جسم ملاكم رشيق مثل محمد علي كلاي، يدور حول خصمه كالفراشة ثم يلدغه كالنحلة. كان فتى أحلامي لسنوات تسبق وفاة أمي. أشم رائحة عرقه عند عودته مساء من المحل، وهو يحملني، وأنا نائمة، من فوق كنبة الصالة إلى السرير في غرفتي. كان رفيقي في ملاعب الطفولة بجانب سينما نورماندي، ورفيق رحلات مترو مصر الجديدة التي كنت أصر فيها على الجلوس على «حِجْرِه»، بجوار نافذة المترو المفتوحة من أعلى، وأظل أشير بيدي للمارة السائرين على جانب الطريق في أثناء سير المترو. هذه كانت فرحتي الكبرى، أرسل السلام لأناس لا أعرفهم ولن أقابلهم أبدا في حياتي. بينما ميادة كانت تجلس بجواره هادئة، أما محمود فلم يكن قد انضم نجمه لمجرة أسرتنا بعد.

بعد هذه السنوات الحالمة، بدأ بطل الطفولة في الاختفاء التدريجي من حياتي، والانزواء في أحد أركانها المظلمة. أصبح بعيدا عن البيت باستمرار، مشغولا في تجارته وسفرياته للخارج لشراء مستلزمات محل قطع غيار السيارات الذي كان يديره بعد وفاة جدي عبد الحميد. فترات طويلة لم نكن نراه، ليس فقط بسبب الانشغال؛ ولكن لعدم رغبته في أن يواجه مشاكلنا التافهة في ذلك الوقت، والتي كانت تتلخص في مشاكل المدرسة والمدرسين الخصوصيين ثم دخلت بعدها مشاكل المراهقة التي شكلت عبئا ثقيلا على أمي لم تقدر على تحمله وحدها.

دخلنا المراهقة، أنا وميادة، ونحن غريبان عنه، نشعر بالخجل لو عانقناه، وهو أيضا كان يتجنب هذا بقدر الإمكان، كأنه لا يريد لأحد أن يقترب منه لهذه الدرجة الكاشفة للمشاعر. لم يكن يملك ثقافة المشاعر وتبادل الأحضان، والضحك. أرى في عينيه حبّا قديما محبوسا، ولكن عندما أقترب منه أجد صدرا جافّا يبس فيه هذا الحب، وخدّا لا ألمس فيه سوى عظمته البارزة التي تصطدم بوجهي في وضع مضحك وساخر يدل على ارتباكه وارتباكنا، أنا أو ميادة، جراء هذا العناق.

كل عناق معه عبارة عن سوء تفاهم، جملة ناقصة، تتوقف في المنتصف، أو تُستكمل بثأثأة. أي حركة، إيماءة، ابتسامة، تصدر عن وجهه، لا تكون طبيعية، بل مفتعلة أو متعجلة، كأنه يريد أن ينهيها سريعا ويعود لقناعه. في طفولتنا، كان يخصني، بدرجة من الاهتمام أكثر من اهتمامه بميادة. ألحظ درجة من البريق الخجول وهو يتكلم معي أو ينظر لي. كان يثني دائما على جمالي، وابتسامتي، ويفرح عند اصطحابه لي في أي فسحة أو مشوار عمل، كأني ساعده اليمين. كنت أشعر، في هذه السن الصغيرة، بقدرتي على التأثير عليه وتوجيه مشاعره.

لم نعد نتجمع على مائدة واحدة، إما أن يكون نائما ونحن في طريقنا للمدرسة، وإما يعود للبيت بعد أن نكون قد نمنا. كنت أراه شبحا يقف وراء باب مغلق على الدوام. قاسمتني ميادة كل الأوقات الصعبة وأسرار المراهقة التي كنا نخفيها عن أمنا، حتى أصبحت صوتي الداخلي الذي أعبر به عن كل الأحلام والهواجس والهلاوس. جاء سفرها للمنحة في وقت قاتل، في السنة الثانية من المرحلة الثانوية، قبل اكتشاف المرض عند أمي، وبداية خروج صوتي الداخلي. كنت أتخيل دوما أننا نشترك في جسد واحد وشخصية واحدة نقتسم كل ما فيها، وعند سفرها شعرت بأنها كانت أنانية في توزيع مقتنيات هذه الشخصية، وأنها أخذت معها كل الأشياء الجميلة فيها، وأهمها هذا الصوت الداخلي، وتركت لي الأشياء والصفات العادية.

لم يكن أمامنا إلا الأم التي حملت، بجانب عملها الحكومي، كل أثقال تربيتنا، والتي زادت بعد ولادة محمود بعد ثماني سنوات من ولادتنا، وإصرارها على ألا تتخلى عنه بعد نصيحة الجميع لها بهذا؛ حتى تشعر دائما بأن لها مصدر دخل خاصّا بها. كانت يدا والدي مغلولتيْن في علاقته بالفلوس، وهو الوحيد الذي لايرى هذا ويدافع عن كرمه دفاع الملاكمين. يشعر من يعيش معه بأنه ضيف وليس فردا من العائلة، ويجب أن يتحلى بأخلاق الضيافة وأن يكون خفيفا في كل شيء. كانت المواقف التي ترتبط ببخله، تتجاوز الحدود المتوقعة وتفجر إما الضحك وإما البكاء. أحيانا كان بخله جارحا لنا ولأمي بالذات، وأحيانا كان يأخذ شكل نكتة مُرَّة لانجد أمامها إلا الضحك والتريقة الحادة التي لم يكن يغضب منها لعدم فهمه للمرح.
كانت الفلوس عصبه العاري، بمجرد أن يلمسه أحدنا أو يقترب منه، حتى يتوجع ويشكو وأحيانا يصرخ. بالرغم من الحالة الميسورة التي كان عليها جدي، وقيامه بتوزيع ميراثه بالتساوي على أبي وعماتي الثلاث وجدتي دولت. ولكن أبي لم يرث منه هذا الثراء العاطفي، وأعتقد أن جفاف عواطفه سببه هذا الخوف المرضي على الفلوس، والتقتير على نفسه وعلى من حوله، فنضبت كل أسباب البذل في نفسه.
كان أبي السبب في استمرار أمي في عملها الحكومي، وفي هروب ميادة وتمديدها لسنوات المنحة، وفي خروجي من البيت. كان بمثابة المركز الطارد في جهاز الطرد المركزي للبيت. كانت أغلب ملابسي، التي يصر على اختيارها لي ولميادة، تتسم بالحس الذكوري، وبذوق فقير، ولا يقارن أبدا بملابس بنات عماتي. بمجرد حصولي على الوظيفة تغير ذوقي تماما في اختيار الملابس.
بسبب هذا الفقر الروحي اختار عملا سهلا لا إبداع فيه ولن يزيده إلا تمسكا بحبه للفلوس ومحاولة الحصول على المزيد. كان يكرر على مسامعنا بافتخار تلك الحكاية التي حدثت له في أثناء ممارسته للملاكمة، فقد استدعته إحدى الجهات السيادية، كان أحد أعضائها مشاركا في تحكيم إحدى البطولات التي اشترك فيها، وطلبت منه، أن يكون حارسا شخصيّا لأحد الوزراء، وشعر عندها بسعادة ما بعدها سعادة لكونه سيكون تابعا يحرس شخصا، مالا، جاها، المهم عنده أنه يجد متعته في أن يكون حارسا تابعا. لم ينقذه من هذه المهنة، سوى أن جدي مات، وانتقل أبي لحراسة ثروته، ليكون تابعا لها.
حاولتْ أمي بجهد لا يلين أن ترسم صورة شبحية لعائلة لم تكن موجودة في الواقع. كانت، أمي، مثل حائط ملعب الإسكواش الزجاجي، الذي يتلقى كرات الطفولة، ونزواتها وصراخها بثبات. لم تستمتع بشبابها، دخلت معركة الحياة مبكرا جدّا، في الثامنة عشرة من عمرها، وخرجت منها مبكرا، في الأربعين، بعد أن تزوجها أبي الذي كان جار عائلتها في حيهم القديم بشبرا. أكملت دراستها الجامعية مع الزواج والحمل والولادة والوظيفة بطاقة تفانٍ وإصرار على بناء عائلة سعيدة.
صدمة أبي بعد وفاة أمي، وتبعا لطبيعته السائبة، تتلخص في أنه وجد نفسه مسئولا عن مراهقة يحبها ولايعرفها، وعن مراهقة أخرى مسافرة، وعن ابن صغير لا يتكلم إلا قليلا. ظهرت بعد الوفاة، الصورة الموجبة الواقعية المليئة بالثغرات للعائلة. أي شيء يندفع تجاهه بقوة، حتى ولو كان قدريّا، مثل الموت أو الحزن، لايقابله إلا بعنف، قبل أن يؤذيه، أو يمس شعرة من حياته الشخصية. شككتُ بأنه تعمَّد بأن لا يكون موجودا عند وفاة أمي؛ لأنه لن يتحمل صدمة موتها

وتبعات الموقف. وبالفعل كان مسافرا، في إحدى صفقاته، قبل أن تتدهور حالتها هذا التدهور سريع الخطى، والذي أفضى إلى الموت.
تحملتُ في غيابه، وغياب ميادة، كل مراسم الحزن على أمي. شاركتني الصدمة جدتي دولت، وعنايات جدتي لأمي، وعمَّاتي الثلاث، وخالتي إحسان، ولكني برغم كل هؤلاء، تحملتُ النصيب الأكبر من الحزن، فقد كانت جدتي عنايات تعاني من ألزهايمر، ولم تفهم جيدا معنى موت ابنتها، وطنط إحسان لم تكن على علاقة جيدة بأمي، باستثناء الشهور الأخيرة، وانهارت سريعا أمام موت أختها كأنها تكفر عن ذنب سنوات القطيعة بينهما. تيتة دولت برغم طيبتها، فقد كان حزنها مجانيّا لا يخفف الحزن عن الآخرين بل يزيده. أحسست بغربتهن عن هذا الجسد، لم يملكن نوع الحزن الذي يقربهن منه. لم يكن هناك من يشاركني هذا الحزن القاسي، سوى ميادة، التي تحولت مكالمتنا وجلساتنا على السكايب إلى سرادقات باكية. أما محمود، فلم يكن يفهم ما هو الموت بعد، كان حزنه معطلا يمر بفترات صمت طويلة. طلبت من «منسي» صديقي في المدرسة وجارنا، أن يأخذه عندهم في البيت ليلعب مع أخته التي في مثل سنه، وليكون بعيدا مؤقتا عن هذا البيت الذي غربت فيه شمس الأم.
طوال سنتها الأخيرة، وأنا أهيئ نفسى ليوم الحزن الأكبر هذا. كنت أقوم بكل ما يتعلق بها بحب وتفانٍ: مشاوير الأطباء، وجلسات الإشعاع، ومرات الاستحمام الأسبوعي، ووجبات الطعام، ودخول الحمام؛ كأني أريد أن أرفعها من فوق الأرض وأحلِّق بها للجنة مباشرة بدون أن تمر على طور الموت. كنت أودعها في كل دقيقة. عندما كنت أقوم بتحميمها، وهي جالسة تحت الدش على كرسي البحر ذي المساند؛ أقوم بالغناء بدلا من أن أنفجر في البكاء «ياطالعة من باب الحمام وفي كل خد عليه خوخة، ....»، تبتسم بوهن حزين، بينما خالتي إحسان، التي كانت تساعدني، تبكي في المرآة أمامي. يظهر ثدياها المحترقان بالإشعاع، وجسدها الذي ذاب فيه اللحم وكشف عن عظام حادة مسنونة. كان شعوري وقتها بأني أقوم بتغسيلها. عشرات مرات التغسيل والغناء، والبكاء المكتوم؛ كي أطرد من قلبي وحشة وداعها القريب. كان من الصعب أن تقطع ميادة منحتها، التي مدَّتها واتجهت لدراسة الحقوق، خصوصا أنها كانت تستعد لامتحاناتها. توفيت أمي قبل امتحان الثانوية العامة، وانتحرتُ بعدها في المذاكرة من أجلها؛ لأدخل كلية الاقتصاد والعلوم السياسية؛ كلية القمة التي كانت تتمناها لي لتراني عضوة في السلك الدبلوماسي في إحدى السفارات المصرية في الخارج.
كنت على شجار دائم مع أبي، اعتبرته أحد أسباب موتها. أعرف أن أقدار الله لا تسير بهذه السذاجة، ولكن لم يكن هناك أحد أمامي سوى أبي ليحمل عني حجم هذا الحزن والألم اللذين اصطحباني بعد موتها. فقدَ الحب أهم شبحين يمنحانه الشكل: الموت والألم، فكان المستقبل ينذر بنمو نبتتي ألم وموت جديدتين، في بيتنا؛ حتى يعاد للحب شكله المعهود الذي يحب أن يعيش داخله.
كنت أثير في أبي رائحة العراك والهجوم المستمرين. أجده ساخطا باستمرار، ولم أعد حتى أرى نظرة الحب المحبوسة في عينه. كان يريد مني أن أكون ربة الأسرة الجديدة، أجهز له العشاء الساخن عند حضورة من المحل، وأُطعم محمود، وأذاكر معه واجباته، كما كانت تفعل أمي، وأجهز له ملابسه المدرسية مع إفطاره في الصباح، بالإضافة إلى اعتنائي بطعام ونظافة رينجو، وأيضا يمكن أن أساعده في ضبط حسابات المحل.

رمى أبي بكل ملفات البيت الضخمة على كتفي، كأنه يعاقبني. حتى هذه الملفات لم تعنِ لي شيئا، فيمكن أن أقوم بمهمتي على أكمل وجه، فقط لو اعترف بذنبه تجاه موت أمي. لم يفهم مقدار غضبي وشعوري بالذنب لوفاتها، وفسَّره أسوأ تفسير، بأنني أكن له الكراهية. أصبحت أخاف منه وأخشاه، هذا الرجل المهزوم، الذي بدأ يفقد رشاقته وبنيان الملاكم الجذاب، وبدأت تظهر له شخصية جديدة تميل للترهل في كل شيء. كان يعيد معي ما كان يفعله مع أمي، وكأن شيئا لم يختل في نظامه الكوني. لم يرها قط كضلع خرج منه. أصبحت هدفا لعراك يومي يمتص به طاقته الفائضة واكتئابه الأملس، وتحولتُ، كما تحولت أمي من قبل، إلى وجبة عشاء ساخنة، ولكن كل وجبة كنت أجعلها «العشاء الأخير»، وهذا الضلع الذي خرجتُ منه في جسم أبي، عدتُ وغرسته فيه من جديد.

خلعت الحجاب، بعد الثورة، فأصر أبي على خروجي من هذا البيت! وأضاف سببا آخر بأنني لم أعد أصلح لأكون قدوة لمحمود أخي الصغير، والذي لم يفهم كل ما يحدث حوله من صراخ ونهيق ولكمات طائشة وأخرى مصوبة بدقة.

لم يكن هناك شيء يعجبه في حياتي الجديدة؛ لا أصدقائي ولا أفكاري. رأى أنني تغيرت، وأن السياسة أفسدتني، وجعلتني شخصية متمردة على كل شيء. الحجاب، بالنسبة إليه، كان القشة التي قصمت ظهر البعير، الرمز الذي لن يساوم عليه؛ لأنه يدافع عن حق الله، وليس حق أبوته. «يا تلبسي الحجاب أو تاخدي حاجتك وتروحي لجدتك»، قالها صريحة. كان يقصد بالطبع تيتة عنايات جدتي لأمي؛ لأنه يعرف أنه «المنفيّ» الحقيقي، في ذلك الحي الشعبي الذي كانت تسكن فيه عائلته من قبل.

ورثتُ عنه هذا التعجل في إصدار الأحكام. التعجل بالنسبة إليه إنقاذ من جهد التفكير. لم يستوعب أن تكون ابنته غير محجبة وسط عائلة، عمارة، شارع، حي، ومجتمع، كله محجب.

في ذلك الوقت بدأت أشعر بأن كل شيء غريب عني، حتى هذا الأب، وهذا الجسد الذي أضع عليه الحجاب. بدأت أشعر بخجلي من ظهوري عارية الرأس أمامه. كأن هذا الحجاب، لم يكن جزءا مضافا إلى الجسد، بل يعيش داخله كغشاء يغطي جسمي وخيالي ونفسي. وعندما خلعته أصبحت أتخيل نفسي عارية.

لم تنقطع علاقتي بمحمود أو رينجو، بعد خروجي من البيت، فقد كانا حائطي مبكاي في أثناء فترة حبسي الانفرادي في الثمانية عشر يوما. احتفظ رينجو في عينيه بسجل كامل لأيامي، لحظة بلحظة، ولو احتجت أن أستعيد أيام الحبس الانفرادي وساعات الخوف والحزن التي مرت بي، فلن أجد مكانا صادقا ودقيقا؛ أكثر من هاتين العينين، وهذا الذيل الطويل الذي أشعرني، بهزاته المتوالية، بأن هناك من لايزال يبادلني الحب. أما محمود فقد كان يسجل مايجري حوله عبر شفرات رمزية، لم يستوعب كل الذي يجري، ولم يفهم معنى الثورة، ولا سبب البكاء المستمر لهذه الأخت.

كنت أتسلل للبيت في أثناء غياب أبي. أسمع صوت نباح رينجو منذ دخولي باب العمارة. أصحب في طريقي تلك الحلوى التي يحبها، وأشتري لمحمود الشوكولاتة المفضلة له المحشوة بالنوجا الناشفة. أمر على جدتي دولت؛ لآخذ المفتاح، وأؤكد عليها بأن لاتخبر أبي عن زيارتي. تعدني بلامبالاة. كانت سنية الخادمة التي تعمل عندها تقوم برعاية بيتنا بمساعدة عمتي الصغيرة ناهد.

يجري رينجو ليحتضنني، بمجرد دخولي من باب الشقة. أرى حجم ابتسامتي في مرآة الصالة. أتذكر كلام أمي بأنني عندما أبتسم أغمض عينيَّ. أفتح عينيَّ لأرى ابتسامتي معكوسة على المرآة. أرتمي على الكنبة المجاورة للمرآة، التي كنت أنام عليها وأنا طفلة، بينما رينجو يلحس كل جزء في وجهي. عادة أعثر على محمود في غرفة أبي، لاهيا مع رسوماته. أمد يدي بالشوكولاتة، وهو جالس على الأرض، وأتعمد أن أترك مسافة لاتطولها يده، فيضطر لأن يقوم ويمد يده، فأخطف يده وأحتضنه. يشرق وجهه قليلا، أشعر ببكائه الصامت الذي يتحشرج في صدره، ثم يعود لرسم الوجوه التي يرسمها.

لم تخفِ الثورة ابتسامتي، بل ظلت مرفوعة فوقها، كما لم تخفِ الثورة وفاة أمي، التي ظلت جثتها مرفوعة فوقها، كما لم تخفِ كراهيتي لأبي، التي ظلت أيضا مرفوعة فوقها، حتى حبي لأبي، الذي اكتشفته بعد خروجي من البيت، سأرفعه أيضا فوقها. كانت الثورة مثل أرض بكر، كسطح قمر نهاية الستينيات، يتم غرس الأعلام عليه.

أول يوم أفرج فيه أبي عني، ١١ فبراير ٢٠١١ بعد تنحي مبارك، ذهبت لميدان التحرير، بصحبة محمود ورينجو وميادة، التي عادت مع نهاية الثمانية عشر يوما للثورة، في إجازة سريعة، مثلما عاد كل المغتربين بحثا عن هذا «الوطن الجديد». سبقتنا رباب إلى هناك. أردت أن أطلع رينجو ومحمود، على هذا الجانب الآخر الذي كان صدى لكل هذا البكاء الذي ذرفته أمامهما.

اعتراف دولت بالحب لمحسن الحكيم

بعد انتهاء حفل التوقيع قامت رباب بتقديم دولت لكاتبنا. كان واقفا يشعر بالخجل في تلك اللحظة الفارغة بعد انتهاء مراسم التوقيع للرواية وانفضاض دائرة المعجبين من حوله واستعداده للمغادرة وحيدا وبصحبته هذه الدائرة الفارغة. وبالرغم من أن الندوة كانت مخصصة للرواية، فإنها امتدت لتشمل أسئلة من الحاضرين عن الثورة وتحولاتها. كانت إجاباته بها نوع من التعالي، لمسته دولت في هذه النبرة الهادئة ذات اللغة المسالمة، التي يتحدث بها، كأن الثورة فيلم يعرف نهايته، بينما الجمهور لم يصل بعد لمنتصفه.

ستكون حركة يديه إحدى العلامات التي ستقرأ بها دولت حالته النفسية في المستقبل، بل ستكون هي الوسيط الذي تتواصل به معه بدون كلام! كلما كانت سريعة ومضطربة كان في قمة انتشائه الروحي، وظهرت تفاصيل حياته، ومدنه الغارقة، من وراء ستار، ويبدأ في التنقل والقفز داخل ذاكرته واستخراج تلك الأجواء الشعرية الغامضة التي تسكنها. وكلما سكنت، عني هذا أنه يقف في القاع، يكنس بسأم بلاط وجوده. لاحظ محسن نظرتها السريعة، بينما هي تناوله مبسم الشيشة، وتركيزها على حركة يديه، فقام بفرملة يده، كأنه يلجم حصانا مشرفا على هاوية. شعر كاتبنا بأنها كشفت سرّا داخل هذه الهاوية.

كان كاتبنا حريصا على أن يسرد حياته، أمامها، بشكل مجرد، كأن الحكاية مجموعة من الرموز والإشارات والصور والأصوات، تتحرك وراء ستارة بيضاء. جعل لحم حياته بعيدا عن مجرى هذا الدفق المتوهج لحياة وأسرار دولت. لم تجرؤ يوما على سؤاله، ولم يكن عندها الفضول لتعرف هذا الجانب الآخر من ماضيه. فقد كانت مشغولة بكل ما يجري لها، وجميعه كان مبهرا وجديدا وتلمسه للمرة الأولى. كانت هناك معلومات كثيرة متناثرة، هنا وهناك، حول كاتبنا، كافية بالنسبة إليها، وحتى بدونها. كان يكفيها هذا الإحساس المشبع الذي يوفره لها. يكفي شعورها بالونس في وجوده، كما كانت تقول له دائما. هذا الونس كان يمثل سره المفضوح، وخلاصة ماضيه وتفاصيله الدقيقة وحكايته الشخصية المؤجلة دوما. كان يصنع بهذا الونس ستارة شفافة يتحرك خلفها الماضي، كخيال الظل، فتشعر بأنها ترى ماضيه، ولكن بدون تفاصيل.

جلسوا بعد الندوة في المقهى. دعتهم رباب، بعد أن رأت إلحاح دولت للحديث معه. وجود رباب اختصر الطريق. حكت دولت له معاناتها مع والدها، وعن أيام الحبس الانفرادي في أثناء الثمانية عشر يوما الأولى للثورة. فبدأ، من هذه اللحظة، يقرأ طالعها. كانت هناك مرآة دائرية معلقة في أحد أركان المقهى، شكَّت دولت أنها مثل البلورة السحرية التي يقرأ منها طالعها؛ بسبب صدق ودقة التخمينات التي انطبقت عليها تماما. صارت هذه البلورة المسحورة تتناسخ في كل الحجرات والكافتيريات والمطاعم الهادئة والمظاهرات، والأماكن العامة، التي التقيا فيها.

كانت دولت، في تلك المرحلة، على استعداد تام لأن تهب نفسها، بحياتها وأسرارها، لأول عابر سبيل تثق به. كانت ترى أن أسرارها لم تعد أسرارا، بل حكايات، فعلى أرصفة ميدان التحرير، خلال الأيام الأولى للثورة، تم فض بكارة السر، أصبح كل ما هو «سر» ينتمي للماضي، وهذا الماضي قد انتهى. كانت دولت تبحث عن بيت جديد يعوضها عن البيت الذي انفصلت عنه. بيت بدون جدران، أو أثاث، أو ارتباطات عائلية، وبدون موت مبكر يهز أركانه ويثقب جدرانه

بالحزن. كانت تبحث عن نفس أخرى تتحول لبيت. كان «محسن الحكيم»، أحد أعمدة هذا البيت الجديد.
لم تسمح لنفسها يوما بالتشكك في صدق كلامه، أو شفافيته، ولا في صدق إحساسها به. كانت حواسها تمنحها الإشارة بأن تتقدم داخل مسارات صدقه الشخصي، بينما هو يتقدم ويسير داخل مدينتها الغارقة ليضيء بكشافه الديوجيني نقاط التعثر والألم والفقد والرغبة.
بعد توطد العلاقة بينهما، بدأت تمتهن قدسية الاعتراف، وتختلق أسرارا لاتخصها ولكن تخص هذا العالم الواسع الذي يتمدد في خيالها. كانت تجد متعة في تعرية نفسها بقوة، ومتعة أعمق عندما يبلع الآخرون الطعم ويبدءون في التعاطف مع هذه النفس العارية، لتجرح هذه النفس الأخرى التي تعيش بداخلها. كان هناك سؤال يؤرقها باستمرار: لماذا تلجأ لكل هذه الألعاب الخطرة؟ وكانت إجاباتها دائما أمام نفسها التي تعرفها، بأنها لا تعرف. تلك الإجابة البريئة والصحيحة، ولكن وراء جدار هذه النفس، كانت هناك نفس أخرى تسمع هذه الإجابة وتضحك؛ لأنها تعرف تماما لماذا تلجأ صاحبتها لكل هذه الألعاب الخطرة.
كان «كاتبنا» ينتقل بخفة وببصيرة، مبطنة بالفرو؛ كى لا تحدِث كلماته كدمات أو ندوبا، تجاه هذه الأماكن التي طالها الأذى في نفس دولت. لا يريد أن يجرح تلك النفس الأخرى المتحرشة. كان لديه ما يقوله، وليس فقط أن يثرثر بكلام فلسفي غامض ليستحوذ عليها. مع الوقت أصبح كلامه يشكل أهمية كبيرة بالنسبة إليها.
كانت دولت تحتاج لمن يحتضنها بلا أمل ولا رغبة في أي شيء سوى هذا الاحتواء. ربما في عمره الحرج هذا، كان يحتاج هذا الحضن أكثر منها، وأيضا كان يخشاه أكثر منها. ولكن مع مرور الوقت صار الاحتضان فعلا طبيعيّا محملا بكل المشاعر الحاضرة والغائبة معا. أصبح هو الرغبة الذائبة في الحب والخوف والفقد. كل أفعاله وعلاقاته في هذه المنصة الخمسينية أصبحت مجردة، لها مذاق المتعة الذهنية، وتبحث عن نوع دقيق من العاطفة داخل أي فعل.
كثيرا ما كانت لقاءاتهما تحدث صدفة، بدون ترتيب، بعد ذوبان الميدان وحشوده، فكان لهذه الصدفة معنى آخر يوثق علاقتهما أكثر. يجريان في مضمار الصدفة هذه على بعضهما البعض، يريدان أن يسبقاها، يسلم حضنه لها، ولثدييها الصغيرين، بدون خوف، فقد جاءت العلامة من الصدفة. كانا يحتضنان الصدفة وهداياها.
كانت تعرف، بأنها تحبه، وأنه يحبها بالرغم من عدم اعترافه الصريح. كتبت له في أحد إيميلاتها: «كتير بفكر في العلاقة اللي بيني وبينك، إنها مبنية على إيه.. هل ورا حبي ليك إحساس أبوة مثلا؟ أو إحساس قرابة؛ يعني خالي، عمي، حد كبير في العيلة، ولقيت إنه لأ؟ اللي رابطني بيك إن فكرة التجربة المشتركة عملت عندي حالة من الأمان. وإني لما هاحكي هتحس اللي أنا بقوله. هو ده المهم بالنسبة ليَّ، إن حد يحس بيَّ أكتر من إنه يفهمني.. أنا مش بقول أنا بحبك ليه، ولا بحاول أفسر إيه هو الحب، بس أنا بحاول أفهم عشان ده بيعمل لي قدر من الاستقرار، حتى من غير الاستقرار ده، أنا مطمئنة لوجودك في حياتي».
في إحدى زياراتهما للإسكندرية صارحته بهذا الحب شفاهيّا: «أنا بحبك أوي». كانا جالسين على البحر في أحد المقاهي الشهيرة بمحطة الرمل. لم يفهم ما هو المطلوب منه قوله في هذه اللحظة الاعترافية. كان يتفهم جيدا معنى الحب بين فتاة في سنها وبين رجل في الخمسين؛ بحيث لم تتغير قسمات وجهه أمام هذا الاعتراف، ولم يفرح له، كأنه معتاد على هذا الحب المستحيل، وصمته

أمام هذا التصريح؛ هو أحد أعراضه. وجد أن حبها له غير مشروط مثل علبة مجوهرات أنيقة سُرق منها العقد.
كانت تلعب بحرص شديد على هذا الحد الفاصل بين حقيقة المشاعر الدافئة وبين الإغواء. كان من السهل أن يصطدم قطارا عمريهما، ولكن حسن نيتيهما جعل أي صدام طفيفا، وأي سوء فهم، لو حدث، يحدث في صمت، وتتلاشى آثاره أيضا في صمت. فسوء الفهم والصدام من علامات الصداقات الطويلة التي ما زال أمامها زمن مفتوح كي تزيل آثارهما، أما زمنهما فكان مغلقا، لا يسمح إلا بالانفصال، ولا يوجد به البراح الذي تذوب فيه آثار سوء الفهم أو الصدام.
بعد اعترافها له، نظر لها نظرة ممتنة كأنها منحته عطية ثمينة لن يقدِّر قيمتها في اللحظة نفسها، ثم انتقل ببصره إلى البحر وثبته لثوانٍ، ثم دعاها للسير على هذا الشريط الأزرق حتى وصلا شاطئ الأنفوشي، عابرين بصانعي المراكب، وهناك دخلا عند بائع الآيس كريم الشهير، الذي يذهب إليه دائما عند نزوله للإسكندرية. بادره صاحب المحل بالسؤال، عندما رآه مع هذه الفتاة: إزي المدام؟ بخير، أجاب، ثم استطرد: مسافرة عند أختها في كندا، ترجع بالسلامة، رد صاحب المحل. ذاب تصريح الحب وسط وقع خطوات أقدامهما على رصيف البحر، وبجانبهما مئات الأقدام التي تأخذ نفس الاتجاه الذي يسيران فيه، كأن، الحب، الابن الشرعي المنزوي بين كل هذه التفاصيل الصغيرة.

«دعنا نرتجل»

كنت أشعر بأن حواسي، ولأول مرة منذ سنوات، استعادت انسجامها. أحلق كروح «آلبا» الخفيفة فوق جسد تاريخي وحياتي، وأشعر بحضور زمن شخصي ثري بدون مركز واحد للجاذبية، ينسيني أي زمن آخر. ولكنه أيضا انسجام غير مطمئن، وربما خطير؛ لأنني كنت أعيش داخل ذروة شعورية ممتدة واحدة محلقة فوق الحاضر بكل دخانه ودمائه وأوبئته، وعندما أغادر هذه الذروة، سأعود لزمن حقيقي، مضاف إليه برودة المكان الذي انتقلت إليه الحواس وتراكمت فيه الدماء.

تعرفت على دولت، بعد عبور كارثة كونية على حياتها لم تترك أي آثار، سوى هذا الوجود المفكك، وهذا الحطام المتناثر فوق المياه. كل جزء من حطامها النفسي فصيح وبليغ. هذه الكارثة ألبست كلامها رداء صوفيّا خشنا ممزوجا بالزهد والنزاهة، وأيضا بالكذب الخلاق. كنت أثق تماما في هذه القيامة الصغيرة التي تراها بعينيها وتأتي منها بهذا الكلام الرسولي، بل أقف أمامها بإعجاب يصل أحيانا لحد الغيرة من هذا الارتجال الشفاهي والشفاف لقيامة حديثة للإنسان، كانت هي أول من يراها، كأن الكلام يتنزل عليها مباشرة من مكان سماوي تبث منه على الهواء.

كان البكاء يحسم أي نقاش بيننا، ويجعلني ألتفت لجوهر هذا الوجود الإنساني الذي أقام عرشه على المياه. لم تكن كل الدموع التي تذرفها دولت، ملكا حصريّا لها، أحيانا تكون رمزا منسيّا، أو أثرا قديما يتغذى على تاريخ أو وهم. الحاضر، بالنسبة إلى دولت، مكان لاستقبال انتفاضات هذا الرمز العضوي الذي يسمى البكاء.

كانت دموعها مقطرة بمعنى الكلمة، تأخذ وقتا حتى تظهر، كأنها، الدموع، تحشر نفسها في هذا الممر الباكي حتى تدفع بقمتها المزهرة لأعلى. كانت تهز كياني هزّا، وعندها أنسى أي شيء وأي موقف أو قرار اتخذته ضدها، وأتراجع عنه في الحال، وأبدأ من جديد في اكتشافها، من أعمق نقطة تتكلم منها. تعددت البدايات الجديدة، وزاد منسوب الأخطاء، وتعدد تكرار خطأ التفسير. ولكن كلّا منا كان يحبس أي انفعال مسيء للآخر داخل جراب من الصمت القوي. حدث كل هذا داخل زمن قصير نسبيّا به الكثير من الفجوات. ربما كنا نحاكي بهذه اللعبة الزمنية المصغرة لعبة أكبر، سيفوتنا أن نلعبها كاملة.

لم تكن علاقتي بدولت تجربة؛ كي أتعلم منها طريقة النجاح في الخطوة القادمة، لا، إنه شيء كالانبثاق، الذي يخرج من نقطة محددة ومكررة ويتمدد داخلها كنقطة الحبر، ثم ينكمش ويعود للنقطة نفسها كأن شيئا لم يكن. هذا التكرار كان يسير ضد طبيعتي الشخصية في الاكتشاف، أصبح هناك حائط أعرف خشونة ملمسه، أتوقف عنده وأكرر الطَّرْق. كانت تتلبسني تجاهها حالة من الشغف، الشغف وليس الحب، شيء يهز الوجود بدون أي رغبة في الامتلاك. أسأل نفسي باستمرار: هل هناك شغف لايأخذ شكل الحب؟

كانت تأتي عادة في لقاءاتنا بشعر مبلول لامع مشدود للخلف، كأنها خارجة للتو من حمام ساخن، وفي قدميها شبشب جلدي نحيف للغاية بسيور جلدية رفيعة، يشبه شباشب المصارعين الرومان، ومن أعلى بلوزة خفيفة من الكتان تكشف تضاريس ثدييها الصغيرين. أكثر اللحظات التي أشعر بولادة جديدة لها، كأنها بهذا الزي تمحو كل أخطاء الولادات القديمة. «يا دولت كل منا أتى من مطهر ساخن، ولكن في جيلين مختلفين، وكل منا يعيش حياته، وهو يشعر بآثار البلل والطراوة

والسخونة التي غادرها قبل قليل»، كتبت لها في أحد الإيميلات بعد إحدى فترات الانقطاع والعزلة.
«دعنا نرتجل» الجملة التي كانت تتغلب بها على سأم الواقع، ودمويته ومخاوفه. لانخطط لليوم، ولا لأي شيء. طال زمن الارتجال حتى وجدنا أنفسنا أمام تساؤل: إلى متى؟ بالنسبة إليَّ كنت أعرف بأن لي مكانا للعودة، لم أبرحه، وهو حبي لزوجتي الذي كنت متأكدا منه، والذي كان حاضرا في كل اللحظات، أما هي فكانت لاتملك إلا فقاعتها النفسية لتعود إليها محملة بمشاعر غضب ورثاء للنفس شديدين.
كانت هذه العلاقة اختبارا غير متعمد، لمعرفة مدى قوة حبي لزوجتي. ولكنه اختبار خطر لايقبل القسمة على اثنين. أغلب أصدقائي كانت لهم علاقات خارج الزواج؛ ليحركوا بها تلك المياه الراكدة للحياة. كنت أخشى هذا الازدواج أن يسحبني أيضا داخل مياهه الراكدة. التكرار والملل اللذان لانقدر على دفعهما أو التخلص منهما، كأننا جبلنا على التكرار لكي نحمي أنفسنا من حرية الاختيار.
كنت أبحث عن نوع خطر من التحدي، وربما السقوط، ولم أجد شيئا سوى علاقة من هذا النوع غير المتكافئ الذي يخل بالاتزان، والذي بدوره يخل بالتكرار. لم أفكر في هذه السلسلة من التداعيات والأسباب والمسببات، ولكن كنت مثل الكلب الذي يرى طرف الخيط، ساعة تقديم الطعام له، وهذا الطرف هو الذي يحرك لعابه، ولعابه يحرك غريزته، وغريزته تحرك حبه للبقاء. كان اقترابي من دولت اقترابا نفسيّا خطرا، تكمن وراءه تماما غريزة حبي للبقاء وتمسُّكي بالحياة في كل صورها. كنت أتقدم ببطء داخل جزيرة اكتشافي، لهذه الأنثى المهجورة، الموجودة داخلي، لأجد فتاة في بداية العشرينيات تقف على الجانب الآخر لجزيرتي وتلوح لي بأن أقترب.
عند كل عودة لي، من هذه الجزيرة، كنت أزن مشاعري تجاه سناء بميزان للذهب لأراقب أقل تغيير في هذه العلاقة، أو أقل تردد في يدي أو هزة في صوتي، أو أي رغبة في الكذب عليها وإخفاء الحقيقة. لو حدث لكنت سأحزن. كنت أخشى أن تتقلص الأرض التي تشغلها زوجتي بداخلي. ليس لأنها أرض مقدسة، يجب أن ندافع عنها باستماتة. بالعكس هي خارج أي تقديس، هي جزء من وجودي الطبيعي وكفى، ليس مرفوعا عليه أي أعلام ولا شعارات. أرض «القمر» قبل الهبوط عليه.
كنت واثقا من نزاهة مشاعري تجاه دولت، ونزاهة الغريزة التي تقف وراءها، كما كنت واثقا من خطورة التجربة. حتى ولو داخلتها مشاعر غير مفسرة؛ لذا كنت أضع كل الأمور أمام سناء، أشركتها معي في التجربة، حتى ولو كان فعل المشاركة يحمل خطورة ما. كنت أثق بحصانة المكان الذي تسكن فيه بداخلي. كادت المسألة تصل، من ناحيتي، أحيانا لنوع من المصارحة الجارحة.
وقعت مع سناء عقدًا طويل الأجل. كنت رافضا علاقة الذنب/المغفرة، وأريد منها أن تستوعب هذه العاطفة غير المفسرة. لماذا أقول «عاطفة» ولا أقول «حبًّا»؟ هل لأن العاطفة هي القناع الذي يخفي الحب؟ كل منا، لا أنا ولا سناء، لم يكن يريد أن يحطم تمثال الآخر، وأن يكون ميزان العدل ووزن الأعمال الذي يحمله أنوبيس في الآخرة؛ قائما باستمرار، مثل ميزان الذهب، فبدونه سننحاز لأنفسنا وننسى هذا الآخر ونحطم تمثاله بقسوة. كنا جميعا، أنا وسناء ودولت، نسير على حبل رفيع. وبرغم من أن سناء لم ترَ دولت بتاتا، ولكنها رأتها وأحست بها ووزنت أعمالها بريشة

العدل، عبر هذا الميزان الذي كان يميل أحيانا ويفقد اتزانه. كانت سناء تزن تطور علاقتي بدولت بهذا الميزان الدقيق للحب الذي تكنه لي.
كان الصدام حتميّا بيني وبين سناء. لم يمنعني هذا من تقدمي بقوة تجاه دولت، تجاه تلك الأنثى المهجورة داخلنا جميعا، «فيرمينا داثا» الحديثة، وحبيبة «فلورنثيو أريثا» في «الحب في زمن الكوليرا»، بعد أن استعادت شبابها السبعيني في صورة وجسم دولت، وبسبب كذبة اخترعها حبيبها فلورنثيو أريثا، عاشا معا، واستمتعا ببعضهما البعض، واستعادا شباب الرغبات، داخل سفينة دائمة الإبحار،لايستقبلها ميناء؛ لأنها موبوءة بالكوليرا، وهي الكذبة الخلاقة التي اخترعها فلورنثيو أريثا، ليطول زمن الاستعادة، تحت حراسة شبح الكوليرا. ظل الحب باقيا في ظل هذه الكذبة الخلاقة وفي حراسة شبح كوليرا الثورة.
لم تستهدف دولت أن تحتل مكانا محجوزا لآخر، وهي نزاهتها بالفعل، والتي قدَّرتها جدّا. وإن كنت، أحيانا، قد فسرت رغبتها في امتلاكي ومحاصرتي نفسيّا، بأنها أنانية لا تريد سوى ملاذ، ملاذ فقط بلا عاطفة. لم أكن أنا «محسن الحكيم» المقصود بهذا الحصار ولكنه هذا «الآخر» الذي كانت تنتظره دولت، ويخذلها باستمرار. هذا الشخص كان يأخذ صورتي أحيانا، بعد أن يضاف إليه قناع الكاتب. التقى أخيرا هذان الشخصان، السابحان في الخيال، وتبادلا الجروح والإيذاء ثم سلما على بعضهما في النهاية، واستمرت الحياة.

مذاق حلوى المارشميلو

كانت دولت تشبّه إحساسها بمحسن الحكيم بمذاق حلوى المارشميلو اللذيذة، التي تذوب في الفم بسهولة. كانت علاقتهما فترة ذوبان طويلة، مع ذوبان الزمن من حولهما في أثناء الثورة. كان يرى خيوط الشرنقة التي تنسجها حول نفسها وحوله، لم يهتك جدران هذا البيت الحريري، بل استسلم لقدر الفراشة التي كانت تنتظر في جوف الشرنقة تحلم بلحظة الطيران. عندما كان يتجسس على تدويناتها الجريئة على صفحتها في مدونة «التمبلر»، يشعر بانتصاب الخمسين المتزن، وتعبر بجسده مجموعة من الخيالات الجنسية، سرعان مايطردها بعيدا. ربما تسلل إلى روحها وعاش داخل هذه الثنية الضيقة لكراهيتها المُقنَّعة لأبيها، ونما هناك وترعرعت سلطاته بدون أن يبذل جهدا في هذا. ربما يشعر للمرة الأولى بأنه يفرض سيطرته، بهذه القوة، على جسد أنثوي، بدون أن يدخل فيه.

ربما كانت مشكلة محسن الأساسية، أنه كان يرى نفسه، في الخمسين؛ محصنا ضد هذا الحب الخاطف. فالخمسون كما كتب في إحدى رواياته هي سن اكتمال نصف دورة من الحياة، كسفينة نوح تحمل بداخلها كل الأنواع. ولكن كل هذا لم يكن كافيا، يبدو أن هذا النوع من الحب لم يكن ضمن ركاب السفينة التي كانت تتخطى هذا الحاجز العمري وتبحر لعالم جديد وسط ثورة مشتعلة في شوارع مصر، ونيرانها تصهر كل شيء من حولها.

بالرغم من حبه لدولت، فإنه كان يرى جسدها محرما عليه، بالرغم من الثغرات الكثيرة التي تتخلله وتفضي إلى داخله بسهولة، والحرائق المشتعلة من حوله، وداخله أيضا، والتي كانت تتحدث عنها يوميّا على جدار صفحتها على مدونة «التمبلر» التي سمتها «وادي المستضعفين». من البداية، سد هذه الثغرات، بينه وبين نفسه، حتى لايضعف، وارتضى بهذه الثنية الصغيرة المكيفة في روحها التي استقر فيها.

«يمكن أن نجمع عمرينا ونقسمه على اثنين»، قالت له وهي تشبك يدها في يده، وتسحبه بقوة وتفسح أمامه الطريق داخل الجموع الثائرة؛ خشية أن تدهسه. الخمسون بالنسبة إليها رقم كبير، يحتاج للحماية، ربما أكبر بكثير من إحساسها به. كانا متعادلين في تضخيم الفارق الزمني بينهما، لسبب في نفس يعقوب؛ ربما لأنه بزيادة الفارق تزداد استحالة الحب، لكن لو حدث الحب في وجود الاستحالة، فهذا يعني أنه أحد الأقدار الكبرى، الذي تمكَّن من القفز فوق حاجز الاستحالة، وتخطاه، ولم يعد أمامه إلا العدو في تلك المساحة البيضاء الحرة من الوجود.

كانت دولت مصرَّة على تطبيق «المساواة» بينهما، في كل شيء، حتى ولو في غير مكانها. ربما لكي لاتشعره بالفارق الزمني، وهذا كان يزيده في نظر محسن! أو ربما استخدمت الفكرة وبهذه الخشونة، وبالشكل المثالي البعيد عن الحقيقة؛ حتى تلغي أي إحساس بالدونية تجاه «محسن»؛ حتى لايتسلل لها الإحساس بأنها مُستغلة، وهو شعور كان يمكن أن يدمرها بحق، فيكفيها ما تشعر به من دونية واستغلال في حياتها.

كان «كاتبنا» يرى أن الحياة لم تقم على المساواة قط، بل على الفارق: بين عمرين، طبقتين، قوتين، والذي يتم جسره بالإيمان، بالحروب، بالمعارك، بالعدالة، وبالثورة؛ حتى يصبحا متساويين، أو لا يصبحان. الخيار الأخير هو الأكثر حدوثا في هذا العالم البائس. لأننا كبشر ضحايا السعي الدائم للمستحيل، لما هو غير قابل للحدوث أبدا.

«التساوي ليس المساواة»، كان يصرح لها بأفكاره الخاصة، تثور وتتهمه بالميول الرجعية، وبأنه يؤيد الفوارق بين الطبقات، ويدافع عنها، بل يؤيد الاتجاهات الدينية التي تقف مع الأغنياء فقط ضد الفقراء. لم تكن لدولت أي ميول يسارية، ولكن الثورة استدعت حلم المساواة القديم بكل نقائه وشوائبه.

كان الحب هو نقطة الاتزان وريشة المساواة، التي ساوت بين العمرين. ربما هذا الفارق العمري نفسه هو ما ولَّد الرغبة، وقام بتحريمها ووضعها في حدها الأدنى ورسم سياجا حولها لاتتخطاه إلا بجرح يرسل إنذارا في جنبات هذا الوجود. اللامساواة أنضجت الحب، وربما أوجدته من العدم ليغطي على هذا الفارق العمري بغطاء حريري شفاف. كأن البشرية تعيد تمثيل مشهد قديم داخل هذه العلاقة. ربما كانت الثورة هي السبب في بعث هذه المشاهد القديمة، والدور العظيم للحب، وأيضا الدور العظيم والقديم للذنب، بعد أن فقدت، الثورة، الأمل في بعث المستقبل، وأوقفت كل نشاطها على أدوار آتية من الحياة الماضية.

كانت دولت، بدون أن تدري، مَدينة «للامساواة» بالكثير والكثير. فهي التي جمعت بينها وبين محسن، ومدت في عمر هذه العلاقة المستحيلة. وتحول هذا التفاوت، مع الوقت، إلى ماصٍّ للكوارث والهزات والصدمات التي ستتعرض لها هذه العلاقة في المستقبل القريب.

«محسن» أيضا كان مدينا «للامساواة»، فقد كان يدرك جيدا أن العلاقة بينهما أكبر من حاصل جمع عمريهما وخبرتيهما وحلميهما، وأكبر بكثير من التفاوت العمري الذي يصل لثلاثين عاما تقريبا، مثل كتلة حرجة لها سلسلة غير متوقعة من التفاعلات.

أي سدود، مهما كانت، هشة وغير منيعة، أمام علاقات إنسانية غير متوقعة، ليس لها عنوان؛ تكتسب قوتها من كونها مجهولة، لايتوقع أحد ردود أفعالها. أي علاقة استثنائية عبارة عن فيضان من الرموز الخفيفة يغرق هذه السدود المتخيلة لتبني أخرى أكثر واقعية وإنسانية. ربما تكثر السدود في الطبيعة؛ حيث المشاعر لم تتحول بعد إلى رموز. أما داخل الإنسان، وداخل دولت ومحسن بالتحديد، فيمكن للمشاعر، التي تحولت إلى رموز خفيفة، من أن تتسلق هذه السدود بسهولة وتقفز للناحية الأخرى؛ حيث المكان الذي يجب ألَّا تصل إليه في العلاقات العادية.

ربما كان كاتبنا يشعر ببعض الذنب تجاه سناء زوجته، من هذه العلاقة الطارئة والاضطرارية مع دولت، ولكنه كان يرى أيضا أنه داخل تجربة وجودية لا يمكن أن يخرج منها، أو ينسحب، أو يعلن استسلامه بسبب خوفه من شعوره بالذنب. فليبقَ الذنب، وليبقَ الحب، وليبقَ التكفير، إن كان له مكان، في السنوات القادمة، التي سيمتلئ دفترها بالكثير والكثير من إشعارات الذنب من ضحايا الثورة.

كان سفر زوجته، بصحبة والدتها، لزيارة أختها في كندا، والذي بدأ بعد الثورة بشهرين تقريبا، وتم تمديد الزيارة عدة مرات بسبب تأجج الأحداث ومرض زوج الأخت؛ سمح بأن يمر بهذه الاختناقات والتحولات في غيابها، ربما لاحظتها عندما كانا يتحدثان على السكايب، أحيانا كانت تطلب منه أن ينظر إليها، لترى الحقيقة في هذا العمق الرقمي، برغم طول المسافة والذبذبات والموجات الضالة التي تعترض طريق الإرسال.

لم ينجبا أطفالا، ولكن غياب الأطفال، أضاف رابطة جديدة فيما بينهما، فمنحها دور الابنة، ومنحته دور الابن، بجانب دوري الأب والأم. صنعا من نفسيهما أسرة كاملة، انقسما انقساما ذاتيّا مضاعفا؛ حتى يمنحا حياتهما وحكايتهما ألق الحكايات الكبرى. كانت سناء تعمل في قسم التصوير

في الجريدة التي يعمل بها محسن. بدأت علاقتهما تأخذ مسارا جديّا؛ بسبب عدة ريبورتاجات، اشتركا فيها، عن القاهرة القديمة وتاريخ شارع المعز، وتزوجا في العام نفسه الذي التقيا فيه ١٩٩٥.

النصف المسروق

كنت أنتظر دولت على الرصيف في ميدان طلعت حرب. واستغربت جدًّا أن أحييها وهي قادمة، فتمر أمامي وتتخطاني، وتكمل سيرها باتجاه الميدان، بدون توقف. خمنت أنها إحدى نوبات غضبها. اعتبرت أنها قد قاطعتني وهشمت تمثالي سريعا بدون أن تخبرني. منعتني كبريائي من أن أتتبعها، أو أستوقفها عنوة، فقد يجر هذا التصرف عليَّ متاعب نفسية شديدة. دقائق أخرى، وأنا مسمر في مكاني من المفاجأة، ليظهر شبح دولت من جديد قادما من نفس الاتجاه، كأن الزمن يعود للوراء، ويصحح خطأه، ويعيد تجاهل دولت الأولى بحضن دولت الثانية؛ ليمحو هذه الإهانة.

وجود هذه الأخت التوأم فسر لي أشياء كثيرة، مثل كرهها للنظر لوجهها في المرآة. لا تصدق بأنها هي التي تظهر على هذا السطح الفضي، وأن هناك أخرى سرقت منها هذا الوجه أيضا. ربما سلخت منها هذه الأخت جلد كينونتها، وتركت لها لحم كينونتها عاريا. سلبت منها سلامها الروحي وخلَّفت فيها شعورا عميقا بفقد ذاتي فادح، وليس فقط فضاء اخترعته ذاتها لتعيش فيه الأشباح.

كانت دولت مدفوعة للكذب، بشكل قهري، وبدون أي استفادة من هذه الكذبات الصغيرة، والتافهة. أسرار في غاية الوضوح والشفافية كانت تخفيها عني، ربما كانت ترى أنه لا يحق لأحد أن يعرفها، وعلى العكس هناك أسرار من العيار الثقيل كانت ترميها على قارعة الطريق، بدون أدنى اهتمام بمن سيعرفها وكيف سينظر لها.

ربما صدفة «التوأم»، وتكرارها، تشيران لمجتمع كبير يعيش نصفه في حالة فقد، ورغبة في استعادة نصفه الآخر. أو يعيش نصفه عبدا لهذا النصف الآخر. ربما أوجد الله، هذه الصدفة؛ لتلبي حاجتنا لمن يشبهنا في كل شيء، ولكنه مفصول عنا؛ حتى نرضى بما منحنه لنا، ونرى تفردنا بعين مزدوجة. نحن نبحث فيمن نحب عن الشبيه، في الأصدقاء، زملاء المدرسة، الكتَّاب الذين نحبهم، وهكذا يخرج الشبيه منا ويتجسد في صورة، ثم في هيئة شبح لو أسرفنا في الضغط عليه والحديث الهامس معه. وحدنا الذين نراه، ووحدنا الذين نحمل مسئولية إخفائه والحفاظ عليه سرّا.

كانت دولت تتعامل مع ميادة كنصف نفس ضائعة، ربما كانت دولت تود لو نامت، وصحت لتجد هذا النصف المسلوب، وقد انسل عائدا إلى جسمها. ربما هذا الفراغ الذي خلفه هذا النصف الغائب داخلها، جعل وجودها متقلصا ومضغوطا باستمرار داخل مساحة صغيرة، ومن حوله فراغ. هذا الفراغ كان يتحرك معها في كل خطواتها، ومعه تتحرك الأشباح والخيالات والأبطال والأكاذيب. تأكد عندها الشعور بأن هناك من سرق جزءا منها، وهذا الشبيه المسروق، هو أيضا السارق، الذي يجب الانتقام منه، وربما قتله بسبب العذاب الذي سببه لها. كان السارق والمسروق يعيشان في ذات واحدة لن تهدأ فيها الحرب.

أحيانا كنت ألعب معها دور الشبيه، وأقتبس بعضا من صفاتها النفسية المسروقة وألصقها بي في فترات حياتية سابقة، كأنها كانت إحدى صور تجسدات حياتي في الماضي؛ حتى تشعر بتشابه في هذا الألم الممض؛ لأهون عليها الحياة وأفتح لها مستقبلا مختلفا، ويعود لها مؤقتا هذا النصف الضائع.

بدأت تتسلل، برفقة مرضها الإنساني، في ثنايا نفسي، حيث لم يكن مسموحًا من قبل لأحد أن يدخل فيها. أغلب من دخل في هذه الثنايا هم أبطال رواياتي وسناء بالطبع. التعاطف والتماهي مع ألم دولت، فتحا ثغرة في نفسي، جعلاها معرضة لضربات قوية، مساحات جديدة تنكشف فيها

وتتعرض للنور. كنت أعتصم بسني الكبيرة ذات الأوتاد القوية، وبمكانتي في نظرها، ليحمياني من أي احتلال من هذا النوع، وأيضا من أن تواجهني مباشرة باعتراضها أو بثورتها أو بسبابها المحبب. ولكن هذه الحواجز لم تصمد كثيرا وقفزتْ عليها مرة واحدة بعد أن تساوت الرءوس، وأصبح كل منا يعيش بين ثنيات بصلة الآخر، وداخل حديقة ورذاذ سبابه الأليف ورائحته النفاذة ومرضه الإنساني.

زواج أبي وأمي

بعد وفاة أمي، اعتقدت بقدرتي على تسوية أموري وصنع حياة بعيدة عن مراقبة أبي وجواسيسه، أفعل فيها ما أشاء وما يحلو لي، وأعوض فيها حياتي السابقة، وربما أضم إليها حياة أمي أيضا المسيجة بحصار أبي وأسلاكه الشائكة، كأني آخذ بثأرها من موتها المبكر. تحولتُ لماكينة كذب يومي في كل شيء، في أتفه الأمور وأدق التفاصيل التي لاتحتاج للكذب، ولكن حصار أبي الزائد دفعني لأن أدقق أيضا في سبك هذه التفاصيل الصغيرة . صنعت حياتين، الحدود بينهما شفافة، كل حياة لها هدف محدد ودور أقوم به فيها، فكان من السهل أن تتداخل الأدوار، والأقنعة.

ربما رغبة الانتقام هي التي دفعتني إلى هذا الازدواج. الانتقام من أبي، ومن موت أمي المبكر، ومن نفسي ومن كل شيء جعلني أعيش هذا المأزق الثقيل على هذه السن النيئة. لم أفكر يوما في أن أنظر لميادة بأنها عاشت الظروف الصعبة نفسها، فأي مصيبة في البيت كنت أرى بأنني المعنية بها، وأنها رسالة تخصني وحدي، وأنني الشخص المطلوب منه استلامها. ربما كنت أقتص منها أيضا لسفرها.

يبدو أننا لو أردنا أن نبني حياة سوية، يجب أن نتخلص من أي رغبة في الانتقام؛ لأنه يردنا لمكان غريزي غامض في نفوسنا. ربما هذا المكان لم نصنعه ، فقط، في حياتنا القصيرة. فسني الصغيرة، لا تتناسب مع قوة ألم وخيالات هذا المكان، كأن هذا المكان كان جاهزا ومكتمل النمو ليمارس ضغوطه عليَّ، والذي يصعب في حضوره الوصول لعقد أي مصالحة مع أرواحنا الطيبة، التي تنتظر استئناف دورها الطبيعي والمسالم في الحياة بدون انتقام أو ثأر. لا أعرف هل وفاة أمي هي السبب في هذا التحول، كأن هناك ستارة سُحبت فجأة، فكشفت عن مشاعر لم تنبت لها أجنحة بعد، ولا تستطيع الطيران بمفردها.

كان هذا ملخص حياتي قبل الثورة...

عندما جاءت الثورة أحسست بأن الوقت قد حان لأعالج فشلي في حياتي السابقة، والتي كانت السبب في وجود هذه الوجوه والأقنعة والحيوات المتعددة والمتناقضة. وجدت أن الفرصة متاحة لخروج شخصية جديدة واضحة بدأت أحس بها كجنين يتحرك في بطني. كنت على وشك ولادة ذاتية لنفسي. أجواء الثورة ومفاجآتها، وانكساراتها، وقنابل الدخان، والكر والفر، والأصدقاء الذين تعرفت عليهم، والدنيا الجديدة التي خُلقت في منطقة وسط البلد، الذي لم تربطني به علاقة من قبل؛ كان بمثابة الضمير الخارجي الذي جعلني أعيد التفكير في كل شيء، والذي ينبهنا في لحظة الخطر بأننا يجب أن نتحرك، وفورا. «مش هكدب، مش هسرق، مش هدِّي رشوة، مش هكسر إشارة، مش هرمي ورقة في الشارع..» إلى آخر شعارات الاعتراف بالذنب، والتي انتشرت في كل مكان.

ربما وفاة أمي وضعت قدرينا ورغبتينا، أنا وأبي، أمام بعضهما البعض مثل ديكين في حلبة. بعد أن اكتسبتُ قوة ضربات محمد علي كلاي، ولكن داخل حلبة نفسي. زاد الصدام فيما بيننا، وزادت أسبابه التافهة، وزادت مساحة الأحاسيس الغامضة والملتبسة، ولم أعد أملك التأثير نفسه على هذا الثور الهائج المكتئب، كأن موت الأم ألغى هذه المعاهدة القديمة بيننا، وأرسى بنود معاهدة جديدة. وصلت بي الظنون، والكراهية المكتومة أحيانا، بأني كنت أخشى نظراته المصوبة إلى جسدي، كانت تلسعني، وأشعر فيها بيتم رغبته المبكر. حتى ضربه لي، دورانه حولي كالفراشة ولدغه

كالنحلة؛ كان به جزء أعمى، فقط من أجل لذة العراك وليس من أجل إلحاق الأذى أو العقاب. أصبحت المسافة بيننا مثل حقل ألغام، أو حزام ناسف أضعه على جسمي ويمكن أن أفجره في أي وقت.
ربما تعجلتُ كراهيته، أردت أن أصدر قرارا سريعا وأرفقه بالأدلة وأقدمه إلى الله على صدق مشاعري؛ حتى لايطول الوقت وأعود للحيرة مرة أخرى. لم أكن قادرة في ذلك الوقت على رؤية الزوايا المختلفة لأي شيء، بل زاوية واحدة، وغالبا ما تكون متطابقة مع رغبة دفينة داخلي. كان وقت الطفو لكل الرغبات الدفينة والمدن الغارقة، التي كنت أخفيها خوفا من أن أُتَّهم، من قِبل نفسي، بالأنانية.
برغم بنية الملاكم وقوته وحرفية لكماته، فإني كنت أشعر، طوال سنواتي الماضية، بضعفه أمام قراراتي، وأنه لا حول له ولا قوة. لم يناقشني قط في أي قرار اتخذه، وإنما يصدر أمامه قرارا مضادّا. كانت هناك موجة ضعف عاتية احتوت داخلها كل الآباء في تلك الفترة الثورية، كانوا يخشون من أبنائهم. فترة سائبة بحق كان يمكن أن نستولي فيها على سلطة الآباء كاملة ونوزعها علينا نحن الأبناء المحرومين، ولكن يبدو أن الأبناء لم يكونوا مستعدين لتحمل مسئولية هذا الميراث الثقيل، لا سلطة الآباء ولا حتى سلطة الحب.
لحقتني منه عدة لكمات في ذراعي، عندما رآني للمرة الأولى بدون حجاب، ولكن كنت أيضا مثل محمد علي كلاي، عندي قدرة على تلقي العديد من الضربات وأنا أرقص حوله وأدور كالفراشة، بيقين بأني سأفوز في النهاية. هياجه وصراخه كانا يشعراني بقوتي.
صدمة أبي، بعد وفاة أمي، وحمولة بنتين وابن صغير، جعلتاه يقف ذليلا لاهثا على باب الاكتئاب. دامت مرحلة اكتئابه سنة كاملة، تأثرت فيها أحوالنا المادية بشدة، وقل فيها ذهابه للمحل، وزادت أوقات وجوده في البيت، والمشاجرات بيننا، وتولت ناهد عمتي الصغرى، غير المتزوجة، إدارته. كان كل شيء ينسحب من حياته؛ الزوجة والبيت والأولاد والعمل، حتى ولو لم يحب أيّا منها. مثل شخص وجد نفسه فجأة وحيدا داخل مدينة تآمرت عليه. أمي كانت همزة الوصل بينه وبين أهل هذه المدينة، وغيابها جعله يواجه هذه المؤامرة وحيدا.
لم أفهم، وقتها، سبب اكتئابه، الذي ظل ملازما له حتى خروجي من البيت، هل بسبب وفاة أمي، أم بسبب شعوره بالذنب لانشغاله عنها في مرضها. لا توجد علامات حزن مميزة عند أبي، لا دموع ولا مشاعر أسى. الحزن يظهر عنده فقط عبر نوع من الاكتئاب الأملس الذي بلا علامات، كأنه لايتحمل بأن يكون حزينا؛ لذا يكتئب كرد فعل على إحساسه بالحزن وليس كأحد آثار الندم. اكتئابه كان يتلخص في ظاهرتيْن: الصمت الطويل والشجار العنيف، وتحول البيت إلى مقطوعة موسيقية تتراوح بين أعلى طبقات الأصوات، وبين طبقة الصمت العميق، بالإضافة إلى طبقة صوت رينجو الذي كان يفزع هو الآخر من شجارنا، ويطلق نباحه الحزين.
بدأت أبحث عن عمل موازٍ، وأنا ما زلت في البيت لم أغادره بعد، خلال سنتي الأولى في الجامعة، وبالفعل وفقت في الحصول على وظيفة بأجر متدربة في سكرتارية إحدى المؤسسات الأهلية. وفر لي هذا العمل دخلا مناسبا جعلني مستقلة ماديّا إلى حد ما، أوفر حاجياتي الأساسية. ومنحني علاقات خاصة واسعة مرتبطة بطبيعة نشاط المؤسسة التي كانت تهتم بإجراء دراسات وأبحاث حول أوضاع المرأة المصرية.

كان أبي يخشى من استقلالي عنه ماديّا، وإن فرح لهذا. مع الوقت تسلل إلى قائمة أصدقاء العمل بعض نجوم المجتمع المدني، من السياسيين والمفكرين ورجال الأعمال. لم تكن لأبي صداقات بالمعنى المعروف، وكان ظهور هذا النوع من الصداقات في حياتي، يثير ريبته، وأحيانا غيرته، وينسج في عقله الكثير من المؤامرات التي نقوم بها، والتي ستتبلور في النهاية في «مؤامرة الثورة» التي كان يعتقد بأنني ضالعة فيها بدور مؤثر؛ لذا حاول أن يبعدني عن أعضاء هذا التنظيم الثوري حتى تفشل! لهذه الدرجة كان متأثرا بأحداث الثورة ويخاف منها، ويعتقد بأن منعي من الذهاب للميدان سيعطل استكمالها، كأني أملك، بجسدي الضعيف هذا، كلمة السر التي ستغلق الميدان.
كان لأبي صديق أو اثنان فقط يقابلهما صدفة في النادي. لم أعثر له على علاقات من فترة الجامعة أو المدرسة في الحي القديم. أغلبها تدور في مناخ العائلة، ولا تتعدى أزواج أخواته أصحاب المزاج القديم والمحافظ. كانت علاقاتي المتعددة تثير حنقه، يراني أفلت من بين يديه، لمجتمع آخر يخشاه، ربما من قبل أن أُولد. كان يخشى مجتمع «الأوباش» هذا، كما يصفه، وجاءت الثورة لتزيده خوفا. كان يريد أن يدخل بمقص مسنون حديثا على حياتي ويفصلني عنها.
الابن الأصغر على ثلاث بنات، مكث سنين طويلة في التعليم الأساسي، ولم يحصل على مجموع في الثانوية العامة بالرغم من أن المجاميع في زمنه كانت «بالزوفة» تتعدى حاجز المائة في المائة، فاضطر جدي لإلحاقه بإحدى الجامعات الخاصة في رومانيا؛ إحدى الدول الشيوعية آنذاك، لدراسة «إدارة الأعمال». ثم عاد، ليتولى إدارة محل إكسسوارات السيارات الضخم التي كان يملكها جدي. لم تعرف والدتي حتى الآن هل عاد بالشهادة من هناك، أم بدونها. ولم تجرؤ على سؤاله عنها عند زواجهما فقد غطت فرحتها بالزواج به على كل شيء.
عرف أبي، منذ ولادته، بأن مستقره الجلوس إلى هذا المكتب الذي كان يقف عليه ويلهو في أثناء اصطحاب جدي له في طفولته. جرى «القرش» في يده مبكرا. إثر عودته من دراسته في الخارج، تزوج زيجة فاشلة بإحدى صديقاته وصديقات العائلة، لم تستمر كثيرا، ثم انفصل عنها، كما سمعت من تيتة دولت. لم تحكِ أمي لي قط عن المصادفة التي تزوجت فيها أبي، اعتبرتها شيئا خاصّا لاتريد أن يكون ذكرى في عقل أولادها.
هناك ملاحظة دائما ما تثيرني: أن جيل والدي ووالدتي يخفي ماضيه تماما، ولا يحكي شيئا عنه ربما لأقرب الناس إليه، بعكس جيل آبائهم وأمهاتهم. لو أردت معرفة أي شيء أذهب للأجداد والجدات، فأجد الإجابات للكثير من التساؤلات التي تخص بدايات العائلة. ولكن حول «سر» زواج أبي من أمي، حتى تيتة دولت لم تحكِ لي بالتفصيل، سوى أن عائلة أمي كانت جارة لبيتهم القديم في حي شبرا، وعن مدى فرحة أمي عند تقدم أبي للزواج بها. شعرت بأني لا أملك موهبة حب الذكريات، وأن إناء هذه الموهبة خالٍ تماما إلا من بعض الذكريات الراكدة؛ بسبب غياب هذا الماضي من بيتنا. كل هذه المصادفات جعلت أبي يعيش ويربي أنانيته بجواره كقرين له.

نكات أبي البايخة

كان أبي يعتقد بأنه شخصية خفيفة الظل، يبدو أن تدليله الزائد، أو أن قسوة إحساسه بوجهه الدميم، قضت تماما على إحدى الحواس الهامة كحاسة خفة الظل. كان يملك الجرأة والقلب الميت اللذيْن يجعلانه يرص، في اجتماعات العائلة في بيت والدته، وموائد طعامنا في بيتنا، مجموعة من النكات البايخة والقديمة والمشهورة جدًّا بثقل ظلها. دائما يختار الاجتماعات العائلية لثقته في قوة تأثيره، أو ربما ليجذب إليه الأضواء التي تسلطها هذه الجماعة من الأهل والأقارب. بينما الجميع منهمك في الطعام، يستوقفنا ليقول نكتة، يعلق نظره بأحد الحاضرين، ولا يترك نظره يسرح عنه حتى لاينصرف عنه هذا المستمع «الفريسة» الذي ضحى بالطعام في سبيل ألا يسبب له الحرج، ثم يبدأ الجميع مشاركة هذه الفريسة، التي وقع عليها الاختيار، التضحية، فيتخلل مائدة الطعام بعض الارتباك.

كان يأتي بأغلب هذه النكات من المجلات القديمة ومواقع التواصل الاجتماعي، أو من إفيهات أفلام المقاولات التي أدمنها. يبذل مجهودا، بعيدا عن عيوننا، في حفظ ومذاكرة هذه النكات جيدا، وتحضير تلك الوصلة اليومية التي يعتقد بأننا في انتظارها وأنه سيسبب لنا السعادة بسماعها. وربما يقوم ببروفات إلقاء، في أثناء حفظها، على أذنه الداخلية، ليتذوق تأثير تلك البهارات التي أضفاها عليها؛ وأيضا ليتمرن على إلقائها بدون توقف أو تلعثم، كأنه في امتحان. بالطبع كان يقهقه، بينه وبين نفسه، عليها، وهي أولى الخطوات التي ستمنحه الثقة وتدفعه لنشرها أمام جمهور أوسع.

ولكن للأسف، في أثناء الإلقاء دائما ما يتجاهل ولايمنح أهمية «للعقدة» أو «الكلاميكس» الهام جدًّا في بناء النكتة، فيحدث أن تنتهي النكتة، ولا نعرف نحن، الجمهور، بعلامة النهاية. هذا الجمهور الذي دفع من شهيته وطعامه وتحامل على نفسه، وعصر عليها ليمونة؛ لكي يسمعها. يستعد كل منا في تلك اللحظات لجلب ضحكة باهتة من قاع مخزون مرحه الشخصي؛ ليصنع الصدى الطبيعي الذي يتلو نهاية أي نكتة. حتى هذه الضحكة المزيفة يضيعها أبي، ولايعرف كيف يحصل عليها لو أتقن قليلا الحبكة، ليضيع معها أيضا هذا الصوت المزلزل للضحك، الذي يرمي في الأوصال إحساسا بخلود الجماعة.

برهة من الصمت المنذر الذي يتوقعه أي صاحب نكتة بأن تنفجر الضحكات وتهز أركان المكان وأركان نفسه، بعد أن ألقى قنبلته. ولكن مع قنبلة أبي الفاسدة تطول هذه اللحظة فلا يجد من ينقذها سواي. كنت أشعر بالخجل بدلا عنه من رد فعل باقي المستمعين؛ لذا أنقذه بضحكتي المدوية.

لايشعر بالخجل، من هذه الوصلات الفاشلة، كأنه نزع من قلبه هذا الغشاء الذي يسمى الخجل، وأصبح شخصا ثلما لايتأثر برأي من حوله وربما لاينتظره من الأساس ولاينتظر حتى التعاطف معه. كان يهزر هزارا ثقيلا مع أزواج عماتي، المقربين منه بحكم العِشرة، وبحكم أنه الأمين على أموال زوجاتهن؛ يسبب لهم الغضب والاحتقان المكتوم، ويشكون لزوجاتهم، اللاتي يحاولن أن يلطفن الأجواء. كان هزاره معهم يتمركز حول الأمور الجنسية، المولع بها ولايتحرج من الحديث فيها أمام بناته. يلقي بالنكات المكشوفة، وأحيانا يباغت زوج إحدى عماتي، بسؤال عن أحواله الجنسية مع زوجته، التي هي أخته! أو يلتقط أي تعبير شارد، من تلك التعبيرات المدرسية السمجة، ويحوله لموضوع جنسي. يريد أن يثبت دائما بأنه دونجوان خالد، يخوض في أي شيء

بروح جسورة مقدامة لاتعترف بالوجه الدميم. لقد تحول هذا الوجه إلى قناع حقيقي أخفى وراءه كل دوافع حياته وحيله في حماية نفسه. أحيانا كنت أشفق عليه من كم الاحتقان والغضب والسخرية والامتعاض، التي تبدو على وجوه الآخرين، والتي لا تحتاج لذكاء في ملاحظتها.
لا يعرف وزن الكلام ولا ثقله ولا قدرته على الإيذاء. يخرج الكلام من فمه كالدبش ويقذف به في وجه من يقف أمامه مباشرة سواء هزارا أو جدّا. هل لهذا المخزون من الأحجار الثقيلة التي يخزنها في لسانه علاقة بخوفه الدائم من الآخرين؟ كان يرى الآخرين، إما يتلصصون عليه، وإما يغارون منه، فاستخدم كل أساليب الحماية من التلصص والسطو على ذاته، وجعل بينه وبينهم فاصلا من هذه الحجارة المتراكمة التي تشكل جدارا عاليا يمنع أي تواصل عاطفي. ربما كان يخاف العاطفة؛ لأنه لا يعرفها؛ لذا لم أره يبكي. كان مصرّا على خسارة الآخرين وأن يجعل موقفه يسوء أكثر وأكثر، ويتطاول الجدار أكثر وأكثر؛ بسبب لسانه المفرط في العداء، وروحه الأكثر إفراطا. لولا رابط الميراث بينه وبين أخواته البنات، ولولا ميراث التدليل له منهن، لزادت مساحة المشاحنات.
ربما كان هناك خطأ في تكوين جهاز الإرسال والاستقبال، لديه. هناك من نزع منه رقما من أرقام وجوده السرية، فلا يقدر على التعرف على نفسه جيدا، فاضطر لتصديق نفسه وحمل جبال الحجارة على لسانه؛ لأنه لم يجد أحدا يصدقه ويثق به ويحمل معه هذا الجبل. لقد ولد أبي وعاش داخل فقاعة، حتى ولو كان يعتقد بأنه عاش خارجها.
لم أعرف جيدا، من صغري، مذاق النكتة الحلوة. كنت أضحك في البداية على تعبيرات وجهه والطريقة المختلفة التي يقول بها النكتة، وأصبحت أنجرف لضحك لا يشاركني فيه أحد، فالجميع كان يعرف سر خلطة النكتة الحلوة، أما أنا فقد كنت أجهل هذا المذاق لفترة طويلة. كان من ضمن بنود معاهدتنا السرية، بيني وبين أبي، إثنائي على نكاته البايخة، إلى أن اكتشفت أن روح السخرية والفكاهة، هي صدى لروح جماعية، لم يكن أبي يملكها؛ كما قال فيلسوف فرنسي اسمه برجسون، حدثني عنه محسن الحكيم.

جزيرة الضحك

كنت حاضر النكتة والقفشة، لا أعرف من أين أتت بلاغة الضحك هذه. يتساقط الماء على صدرينا مع خليط الضحكات التي تشبه ضحكات الحشاشين في درجة التجلي والانكشاف أمام الحياة. أغلب أحاديثنا كانت تدخل في تفاصيل حياة كل منا حتى تصل إلى أصغر شعيرة فيها. تحكي عن عائلتها وأمها ومرض وفاتها، وتسلُّط أبيها ونكاته ثقيلة الظل، والعذاب الذي سبَّبه لأمها، وذوي الشعر الأبيض الذين مروا بحياتها، وخيانات مصعب حبيبها. كانت تعامل حبيبها مثل أمه التي يمكن أن تغفر له كل شيء لأنها مرتبطة به برباط قدري لن ينقطع إلا بالموت. أحكي أيضا عن حياتي التي كانت تكتسب لمعانا عندما أفردها أمامها.

اللسان متيقظ على حافة سكين البلاغة، أقوم بعدة أفعال في وقت واحد، السخرية والقفشة وازدراد المعاني وحضورها على اللسان، كأني بالفعل في عرض حكائي مستمر ويبث على الهواء وأمام جمهورمستقبلي يراني، ولا أراه. طبقة هشة من المرح كانت تغذي ساعات الضحك هذه، وتختفي بمجرد أن يعود كل منا لموقعه الطبيعي ودوره في الحياة.

كان هناك ما يدعونا لأن نقف أمام بعضنا معترفين بكل شيء، بكل شيء، باختلاف طريقة الاعتراف لكل منا. كان وهج الاعتراف يزيد لمعان التفاصيل. كل هذا كان يحدث في حراسة شبح كوليرا ثورية، صراخ وحرائق وخيانات ودماء، والتي لم تغطِّ على وهج حكاياتنا. كنا نسكن، أنا وهي، جزيرة الضحك، ألمس في كل الموضوعات ذلك الجزء الساخر، الذي يحكي المأساة بصورة مضادة، كأنها ملهاة. كان ضحكا يحمل نبرة فلسفية من ناحيتي، ونبرة عدمية من ناحيتها، كالقناع الذي يخفي ازدواجها وأحزانها العدمية، وبرعت تماما في إتقان تلقائيته.

كنا نصنع معًا زمنا آخر غير زمن الثورة، الذي لم يكن كافيا لكي نغرق فيه. كانت العلاقة تمتد ناحية الانفراط، نسبغ المياه على أفعالنا وكلامنا، تلك الوفرة التي تتشربها الأرض العطشى، سريعا، لتذهب بعيدا في تلك الآبار الوجودية التي تختبئ تحت هذه الأرض العطشى للأفعال. كانت روحي تتشكل في مكان ساخر وغير عابئ أعرفه جيدا في نفسي، ولا يظهر إلا تحت ضغط نشوة عارمة واتساق لا تتخلله أي فراغات هوائية. ولكنه لم يكن بهذه القوة من قبل، لقد اكتسب شكله الجديد وسط هذا الفوران الوجودي لدولت والثورة وعمري الذي يقف على شفا مستقبل غامض.

كل أصدقائي وزملائي في الجريدة كانوا يستغربون هذه الحالة الجديدة عليَّ، والنشاط الذي لا يفتر. ويرجعونهما إلى أنهما أحد التأثيرات المتطرفة للثورة، أو بسبب سفر زوجتي وعودتي لحياة الحرية. لم أنسَ هذه الحكاية، التي كانت تلمع بقوة وسط ذاكرتي، التي حكتها لي إحدى صديقاتي: أنها أخذت تضحك بصوت عالٍ في أثناء سير جنازة شخص عزيز عليها، داخل ممر المدافن الترابي؛ عندما رأت أحد الحانوتية يخطف عشرة جنيهات ورقية من زميل له بعد نزاعهما عليها. داخل ممر الحزن هذا، كان الضحك يتوهج بقوة، لها ولي.

الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون له كتاب في غاية الذكاء اسمه «الضحك». يرى الضحك كأحد أشكال الإحساس بالونس والحميمية «إننا لا نتذوق النكتة إن شعرنا أننا وحدنا. إن ضحكتنا هي دوما ضحكة المجموعة. الضحك يخفى فكرة خلفية تفاهمية؛ إذ يبدو أن الضحك يحتاج إلى الصدى. إن الضحك يجب أن تكون له وظيفة اجتماعية». كانت الجموع في الميادين هي صدى

لجزيرة الضحك التي كنا نقف عليها. ولكن هذه الجزيرة غمرتها المياه واختفت عندما بدأت دولت تشعر بالجنين في بطنها.

شجرة ذكرى أمي

في طفولتي كنت أتعمَّد النوم على كنبة الصالة؛ لكونها أول مكان سيقع عليه بصره، بعد مرآة المدخل، عند عودته ليلا. يكتفي بإضاءة مصباح المدخل الخافت، ينظر نظرة بانورامية، ثم يسير تلك الخطوات بالحذاء الساكسون الإنجليزي الذي يصدر أزيزا مزعجا على باركيه الصالة، ثم يقوم بوضع الغطاء المنسدل على الأرض، ويقبلني في جبهتي. أحيانا كان يحملني بالغطاء، كعروسة في ليلة زفافها، ويضعني على السرير في غرفتي. قبل هذه الدقائق التي يستغرقها هذا المشهد أكون نائمة بعين ثعلب يتربص بصوت دوران المفتاح. كانت حياتي العاطفية، إذا كانت لهذه الجملة معنى، في هذه السن الصغيرة متعلقة بأبي، ويدور نشاطها وينصب خيالها ويسيح كالشوكولاتة على كتفه.

في إحدى المرات، وإثر اهتزاز الأوتوبيس، وقعت داخل حِجر زميلي منسي، فشعرت كأن عصا صغيرة تحفر في الرمال الرطبة لجسدي، كنت أشعر بحبه الصامت لي، وتفضيله لي عن كل زميلات الأوتوبيس والمدرسة، وربما هو الصديق الوحيد الذي لم أفقده بعد الفشل السريع لقصة حبنا، والتي تحولت لصداقة حقيقية، ولم يتخلَّ خلالها قط عن صمته، الذي لم يعد يزعجني لأني فهمت مغزاه. تطورت حياتي العاطفية بعد ذلك، أحببت أكثر من زميل، بدون أن أفهم معنى للحب، سوى الانجذاب للآخرين. كان هذا الجني الصغير الذي يسكن أجسادهم يدعوني كي أقترب. كانت أمي تعارض بقوة وعناد، منذ طفولتي، وحتى وفاتها؛ هذه العلاقات الطائرة. كانت ترى فيَّ فتاة صغيرة لها جسد أنثوي مغرٍ، تخشى عليه، ليس بسبب مقاييس الجمال الطبيعية، ولكن بسبب الإشعاع الذي كان يصدر منه ويجذب حوله الشباب. برغم كل شيء فقد كنت أحكي لها عن كل مغامراتي. كنت صريحة معها لأقصى درجة، ولا أعرف لماذا. تستسلم هذه الشخصية الأخرى ويُطلق سراحها في وجودها.

في كل اللقاءات العائلية مع الفرع الأمومي «الشُّبْراوي»، كانت ميادة تُستدعى لتؤدي وصلات أداء طويلة، كان لها لسان طلق أكبر من سنها بكثير. بينما أنا منزوية في إحدى الزوايا المظلمة، لا أقوى على التفوه بجملة واحدة كاملة. أحيانا، في غياب أبي، كنت أفقد إحساسي بوجودي، ويتداعى هذا الحلف الذي يربطني به، بينما حلف أمي وميادة قوي دائما لايتداعى. حاولت أن أجذب نظر الجميع في المدرسة؛ للوقوف تحت الضوء، حتى ولو كان ضوءا صناعيّا. جسمي، وروحي المستوحدة؛ كانا إحدى وسائل هذا الجذب. ورطت جسمي معي في هذا الإحساس العميق بالاستبعاد والإهانة، وربما أيضا لحقه بعض من هذه الإهانة وأصبح لا يشعر بالشبع أبدا.

أصرت أمي، بداية من المرحلة الإعدادية، أن تصحبني معها لدروس الفقه والحديث والتجويد عند أحد الشيوخ، ومن يومها أيضا بدأت رحلتي مع الحجاب. لم تمر ميادة بنفس الخطوات والمخاوف. كان «ربنا هاديها» كما تقول أمي، أما أنا فقد أنزل الله سخطه عليَّ، ومنحني هذه العزلة، ووضع بداخلها هذا الجسد المغوي. كانت ميادة شديدة النحافة، كأنها على وشك الكسر، وتعاني من نزلات برد مستمرة وإحساس عام بالوهن الدائم. كان من الطبيعي أن تأخذ هذا الجانب المعتزل بسبب ظروفها الصحية، بينما آخذ أنا الجانب الصاخب والمسلط عليه الأضواء، ولكن حدث العكس. فالجسد المغوي، أدخلني الفقاعة، وضعفها وهشاشتها سحباها للضوء خارج الفقاعة.

تربت أمي تربية محافظة وسط أسرة بسيطة كانت مثار سخرية أبي على الدوام. جدو سيد والدها، كان يعمل كاتبا في محكمة عابدين، وهي آخر وظيفة وصل إليها قبل إحالته إلى المعاش. حصلت على ليسانس الآداب قسم اجتماع، في أثناء زواجها، بعد أن كانت قد ألغت فكرة استكمال تعليمها من رأسها. يبدو أن حياتها الجديدة، وسط عائلة أبي، وأيضا حرصه الشديد على الفلوس، جعلاها تعيد حلمها باستكمال تعليمها. حصلت بعدها على وظيفة في هيئة المساحة مع شبيهات كثيرات توقفت أحلامهن في الحياة على الجلوس إلى هذه المكاتب المتسخة المغطاة بأوراق جرائد عليها علامات دوائر كعوب كوبايات الشاي، والقهوة، والكثير من الشخبطات وكلمات الذكرى التي يزجين بها ساعات الملل الطويلة.

لم أرَ هذا الجانب المخفي الذي عاشته أمي، إلا عندما توفيت. بعد أن قمت بزيارة محل عملها في حي الدقي؛ لتخليص بعض الأوراق الخاصة بحقنا، أنا وميادة ومحمود، في معاشها. وأيضا لأخذ المتعلقات الشخصية التي كانت تحتفظ بها في درج مكتبها. يومها جلست إلى المكتب الذي كانت تجلس إليه، وبكيت وأنا أتفقد هذه الحياة التي تحولت في لحظة إلى ذكريات. المصحف ذو الغلاف الجلدي البني، ومجموعة من الصورة العائلية في مصيف العجمي بالإسكندرية، وصورة أقدم لها مع عائلتها في بلكونة البيت في الستينيات، وكراسة صفراء صغيرة كانت تدون بها مصاريف البيت، وعلبة بلاستيكية بها دبابيس الشعر الملونة التي ترشقها داخل الحجاب، بجانب رواية «في بيتنا رجل» لإحسان عبد القدوس كاتبها المفضل، بالإضافة إلى كتاب أدعية.

في هذا اليوم ظهر لي العديد من الأمهات الباكيات، وأزهرت شجرة ذكرى أمي وسط زميلاتها، اللاتي كن نسخة عاطفية منها. خرجت وقلبي كله مرارة بسبب هذه الحياة التي قضتها وسط معسكر الملل هذا. عاشت حياة جانبية مملة وهشة، منحتها مرارة وهشاشة إضافيتين، بجانب حياتها الزوجية التقليدية. طوال الطريق إلى البيت كان هذا السؤال يطاردني: متى كانت أمي سعيدة؟ ربما جاء هذا السؤال على بالي؛ لكي أبرر موتها المبكر وأعتبره شيئا حسنا أنقذها من سجون عديدة كانت تعيش مستسلمة تماما وراء أسوارها العالية.

لم أعثر على أثر للتعليم العالي سواء عند أبي أو أمي، مثل كل جيلهما الفاشل. كانت تفسر الحياة بدون أي خلفية ثقافية، أو سمو روحي غير فهمها للدين، بالطبع، الذي كان يقع في منطقة روحية تجمع بين التعصب الشديد، والخيال الشديد. كانت روح «بنت البلد»، التي تمثلها أمي، قد خبت مع التيارات الدينية التي استوطنت جسد وخيال البلد بداية من السبعينيات كما كان أساتذتنا اليساريون يؤكدون لنا في الكلية.

كانت خبيرة في قراءة طالع المراهقة، في الجسم والنفس والرغبات المدفونة فيهما. أحيانا كانت تسرف في تفسير العلامات لدرجة الوسوسة، وتحملني رغبات وسوء نية فتاة أكبر مني بكثير، حتى لحظة عناقي الحار لها، الذي كنت أباغتها به، بمناسبة وبدون مناسبة، فسرَته بأن هناك «حضن حنين» نشّط فيَّ رغبة الاحتواء. حضن رجل كان وراء هذا التجويف الدافئ الذي لمسته في صدري، كما تخيلت. الكذبات الصغيرة التي كنت أقولها لأمي، لم تغير مكانتها كضمير لايمكن أن أكذب عليه أبدا وأصارحه بكل شيء، ولكن بعد حدوثه. كنت أختلق الأعذار والدروس الوهمية والمجموعات، وأعياد الميلاد لصديقاتي، والمواعيد المزيفة، حتى أختلس بعض اللمسات سريعة الذبول من «ماي بوي فرند»، والذي كان يتغير اسمه كل شهر أو شهرين على الأكثر في المرحلة الإعدادية، والثانوية.

بالرغم من أن ظروف أبي الاجتماعية، كانت أفضل بكثير من ظروف عائلة أمي، فإن حجم ظنونه السيئة ووساوسه المنصبة على جسدي، والتي تعكس ثقافة متدنية مشوهة؛ فاقت بكثير ما كان عند أمي. كان يدلل نفسه، وكل شيء داخل هذه النفس، حتى وساوسه، ويصل بها إلى حدود التخمة.

تدليله الزائد، من قبل «تيتة دولت»، و«جدو عبد الحميد»، منح عقله وحواسه العاطفية إجازة مدفوعة الأجر، وجعله شخصية «ودنيَّة» يتأثر بأي كلام يقال له. يشك ويتوجس دائما في الآخرين، ربما ليقيه مشقة الاقتراب وإجهاد عقله في الفهم. كان يمنح أذنه لعمتي الصغرى «ناهد». كنت أشعر دائما بأنها تغار مني ولاتحب أمي. من النادر أن يأتي أي من أفراد عائلة أمي لزيارتنا في هذه القلعة الأبوية التي نقيم فيها، إلا في أوقات مرضها، عندما حضرت خالتي إحسان لمساعدتي في تحميم أمي، والعناية بها في أثناء غيابي في دروس الثانوية العامة. كان أبي يصف عائلة أمي بأنها «عائلة طماعة». إقامتنا في هذه العمارة الخاصة بعائلة أبي والتي بناها جدي عبد الحميد بعد انتقالهم في السبعينيات من خلوصي لمصر الجديدة، جعلت علاقتي أنا وميادة ومحمود بهذا الفرع الأبوي قوية للغاية، وأيضا مثار خلاف دائم معه قبل وبعد وفاة أمي.

لم تقف شكوك أبي في العالم عند حدود الطبقات الأدنى، التي تمثلها أمي، والتي كان يسخر منها ويرى فيها كل المساوئ، ولكنها ترعرعت وتشعبت لتكسر في طريقها حدودا إنسانية يجب ألا تُكسر. لم أسلم من شكوكه المهينة. سافرت لتونس؛ للمشاركة في إحدى ورش العمل السياسية لمناقشة تأثيرات ثورات الربيع العربي على المرأة. كنت وقتها ما زلت أقيم عند تيتة عنايات؛ جدتي لأمي، قبل انتقالي لإحدى الشقق المفروشة. كان حلم السفر وركوب الطائرة وقتها يوازي دخول الجنة تماما. طوال أيام الورشة كنت أتصل به لأطمئن عليه وعلى محمود ورينجو. أحيانا كان يرد على مكالماتي، وأحيانا لايرد. ولكن عند عودتي تبددت كل المشاعر الجميلة التي ادخرتها له في أثناء أول سفر لي خارج مصر! إثر اتصال سريع من المطار، لم يستغرق ثوانيَ، أخبرني بأنه يشك بأنني قد تزوجت عرفيًّا خلال الفترة الماضية، وأن سفري لتونس كان من أجل قضاء شهر العسل مع زوجي الافتراضي!

الابن المفقود

التقيت بمصعب في إحدى الندوات أيضا، عرفتني عليه «رباب» أيضا، كان أحد أصدقائها في حركة «كفاية» التي التحقتْ بها وهي ما زالت طالبة في ثانوي. يبدو أن كل من يقف على منصة أنجذب له لاشعوريًّا. كنت وقتها في السنة الثالثة بالكلية، وبدأت الخروج لسوق العمل، من خلال علاقاتي بالمجتمع المدني، وأيضا كنت أتدرب كمعدة برامج، في إحدى القنوات الخاصة، التي تكاثرت بشكل غير طبيعي في تلك الفترة. تمَّ تكليفي بتغطية إحدى الندوات في قاعة أحد الفنادق الكبرى والتي ستضم مفجري الثورة المصرية من الشباب. كانت قدمي تغوص في أرضية القاعة المفروشة بالموكيت الأحمر السميك، أشعر تلقائيًّا باستفزاز بأن حذائي قديم، وابتسامتي في مرآة المصعد أيضا قديمة. لم يستغرق حديثنا سوى دقائق في تلك الندوة. في أثناء الحديث كنت أضغط بقوة على المنديل الورقي في يدي اليسرى. نظرت إلى المنديل بعد انصرافه، وجدته عبارة عن كرة مبللة. كان يتسلل بهدوء من خلف الأسوار. حبي لمصعب كان مسروقا حتى مني. كان شعوري وقتها بأن قدري سيرتبط بقدر هذا الشاب الوسيم.

كان مصعب يعيش بمفرده في الشقة القديمة لعائلته، التي تقع في حي روكسي، عند تقاطعه مع شارع جسر السويس. هذان الشارعان، وامتدادهما، يجمعان في انسجام ستيني مظاهر الطبقتين المتوسطة وفوق المتوسطة المندثرتين الآن. يقع البيت بعيدا إلى حد ما عن العمارة التي تسكن فيها عائلته، بالقرب من كازينو أمفتريون، الذي شهدت حديقته الكثير من لقاءاتنا. كان أبوه من ضمن هؤلاء الذين هرموا وهم يجمعون المال في السعودية، وحمل معه، عند عودته النهائية، مع أمه والأختين؛ نظام حياة كاملا، وفقاعة نفسية لافكاك منها. لم يتحمل مصعب هذا الجو العائلي بعد كل هذا «الزمن الضائع»، فآثر أن يستقل بحياته. المزية الأساسية لشقته التي تقع في الدور الأرضى، أن لها مدخلًا خاصًّا يطل على الشارع عبر ست درجات رخامية، غير المدخل الرئيسي للعمارة، الذي يقف عليه حارس أمن خاص.

بمجرد تخرجه في كلية الهندسة، ترك تخصصه واتجه للعمل بالصحافة، التي كانت في تلك الفترة ملاذا ومأوى للسياسيين والعاطلين ورجال الأحزاب وغيرهم، وتحول الجميع للقنوات الخاصة التي كانت أحد مصادر الشهرة والكسب السريعين. النقطة البيضاء في سجله المهني، والتي رجحته على الآخرين في العمل بالصحافة، أنه دخل السجن في عهد مبارك؛ إثر اشتراكه في إحدى مظاهرات «حركة كفاية»، وسيعاود دخول السجن مرة ثانية في عهد الثورة، ولكن هذه المرة تحت أضواء مختلفة.

كان مصعب مولودا ببذرة فساد تنمو داخل فكرته عن الحياة والنجاح والتحرر، كما كان يقول، ولكنه غير قادر، أو لنقل غير مستعد، على اكتشاف أصلها في نفسه. كان متدينا كسيرة عائلته في التدين، ولكن إثر سفرها، وعيشه في القاهرة بمفرده، بدأ يستجيب لهذه البذرة، وأفسح لنزواته مكانا بجانبه، بجانب الصلاة والصوم والالتزام. كان يريد أن يمحو هذا النظام الروحي المتزمت الذي نشأ عليه؛ لأنه دائما يذكره بهذه البذرة الفاسدة، ولكن لايعرف كيف يملأ الفراغ الذي سيخلفه غيابه. انخرط في حركة كفاية، وبالثورة وبأفكار تحررية تقوض هذا النظام الروحي؛ ليطفئ هذا الذنب الذي ترعرع داخله. ولكنه كان يشعر دائما بأن الذنب يزيد معدله في دمه، كلما بعد عن هذا الأصل الذي نشأ عليه، وأن هذه البذرة تتطاول وتتحول إلى شجرة. لم يشعر فقط بذنب تخليه عن

الدين، أو السهو عنه، ولكن ذنب تخليه عن أهله، وأمه بالتحديد، وهو ذنب لا يتحمله وجوده، فالأمهات بمثابة ديانات إنسانية لم تقطع مشيمتها، فلايمكن التخلي عنها أو استبدالها بأي نظام روحي آخر مهما كان ولكن يمكن أن يتناسخ هذا الدين الإنساني في صور أخرى. أصبح جسمه مضبوطا على نسبة معينة من الفساد الروحي، تعدل مزاج الجسم وتمنحه سلامه واتزانه النفسيين.
يبدو أن هذه البذرة الفاسدة جزء من تكويننا جميعا، تؤلمنا، ونلعب بها، وتلعب بنا، نستغلها أحيانا بلا رحمة، ودون خجل، وتستغلنا أحيانا بلا رحمة ولا خجل. أحيانا كنت أشعر، خصوصًا عند بكائه، بأنه قد أدمن تعذيب نفسه بهذا التناقض الذي بلا حل. ولكن هذه الدموع كانت ترفعه في عيني درجات متخطيا أي درجة وصل إليها رجل من قبل داخل فقاعتي النفسية الثمينة.
كانت دموع التكفير والتسوية النهائية مع الحياة، وربما لغلق ملف الحزن إلى أجل مسمًّى؛ تتلألأ في ظلام ليل عربته الرينو البيضاء، طوال سنتين ونصف السنة من عمر الثورة عند رجوعنا من التحرير أو من أي تظاهرة أو مطعم، أو اجتماع حزبي، أو مقهى، إلى شقته في مصر الجديدة أو إلى غرفتي في الزمالك. كنا في تلك السنوات حتى مظاهرات ٣٠ يونيو، نشعر بأننا على شفا العالم، وأي خطوة نقوم بها تعتبر فاصلا بين حياتين، وأن الجهة الأخرى من العالم، ومن نفوسنا، أصبحت قريبة.
خلال هذه السنوات تعرضت علاقتنا لموجات مد وجزر، هجر واقتراب، مثل تحولات الثورة تماما، ولكن ظلت هذه الدموع هي العصب الحي الذي لو ضغط عليه أغفر له كل شيء، حتى خيانته لي، أو عدم تقديره لتضحيتي من أجله. لا أقوى عندما أراه، سوى أن أحتضنه كأم، وأنا التي كانت تحتاج للأم!
ماعلاقة الثورة بالأمومة؟ هل تنشِّط الثورة هرمونات الاحتواء الذي بلا مقابل، تنثر التضحيات وتطوي التأججات وتطالب الجميع بالبحث عن تلك الأنثى الغائبة، سواء كانت الأم أو الوطن أو النفس المنسية؟ ولماذا في هذا التوقيت بالذات أكتشف هذا البعد النفسي الغائر؟
أغلب علاقاتي الجديدة، التي تكونت بعد الثورة، كانت لصالح استمرار دور الأم في حياتي. بينما عجلة الثورة تدور للأمام، كنت مازلت مشدودة بقوة للوراء، لما ضاع مني وصعب عليَّ تعويضه. كان نعش أمي مازال يطفو فوق حشود الثورة. ربما لهذا حدث الصدام، وفشلت ثورتنا ومعها فشلت علاقتي بمصعب. فجميعنا كنا ننظر إلى الوراء، لتلك الفقاعة النفسية التي نخشى أن نتركها، أو لهذا الكيس الأمومي، الذي خرجنا منه، وأودعنا فيه خلاصنا.
في أول يوم أزوره فيه في بيته أحسست بمسئوليتي عن هذا البيت؛ نظافته، نظامه، طعامه. تمنيت أن يكون بيتي في المستقبل. بعدها بعدة أيام استضاف أحد الثوار الجرحى المغتربين عن القاهرة للإقامة عنده، بعد خروجه من المستشفى الخاص الذي كان يعالج فيه؛ خوفا من القبض عليه لاشتراكه في أحد الاشتباكات مع الشرطة. كان هذا الثائر مصابا بشج في الرأس إثر هراوة من هراوات جنود الأمن المركزي احتاج لعشر غرز. تطوعت لأكون في رعايته. كنت أتناوب مع مصعب في تمريضه والتغيير على الجرح. وأحيانا أبيت في الغرفة المجاورة له. كانت وفود من أصدقاء الثائر المصاب تأتي للزيارة، فأقوم بواجبات الضيافة بوصفي سيدة البيت. وأحيانا كنت أقوم بطهي بعض الوجبات الخفيفة. ربما لم نلمس الثورة إلا من خلال هذه التجمعات والأكلات والنقاشات وجرحى الخرطوش والهراوات، وتطبيب حرقى قنابل الدخان. بالإضافة طبعا إلى الأطفال الثلاثة: الخوف والحب والجنس. بدون هذا، لم تكن هناك ثورة.

كنت فرحة بهذا الدور الجديد، الذي رفضته في بيتنا. أتحرك بثقة، حتى وهو بالخارج، أشعر بوجوده؛ لأنه لامكان آخر سيلجأ إليه، إلا هذا المكان. حتى ولو غاب يوما أو يومين في العمل الحزبي أو الصحفي، أأتنس بأشيائه، أتنقل بينها، بين صور عائلته القديمة والمحفوظة في أدراج المكتب، كتبه السياسية، مكتبة أبيه الدينية، صوره في رحلات الجامعة، قمصانه المكوية، الجاكت الأسود القطيفة الذي جذبني إليه في اليوم الأول لرؤيتي إياه في ندوة مفجري الثورة. لا أعرف السر في هذا الجاكت الساحر، الذي يوحي بأناقة تقليدية يمكن أن تنفرني من صاحبها في تلك الظروف التي نضع فيها فقط شارات الحداد على أجسادنا وملابسنا القديمتين. ولكنه أثَّر فيَّ عكسيًّا، ربما لمست فيه أناقة شبيهة بأناقة والدي.
تفانيت في جعل شقته جنة. يعود من عمله الحزبي يتفاجأ بمائدة الطعام، ورائحة ورنيش خشب الباركيه. لم أفكر لحظة كيف سيفكر فيَّ، ولا لماذا أفعل هذا، أو هل أنا بهذا أرخِّص نفسي. كان حبي له يفوق بمراحل جبلا آخر من هذه الأسئلة العبثية وجبلا آخر من الخدمات المجانية. كنت أملك دافعا للتفاني يتعدى حدود الكرامة الشخصية. لم يكن عندي شيء آخر أملكه، وله هذا الوجود الملموس، يقف أمام الموجات المتلاحقة لرغبتي تجاهه. في هذه اللحظة السائلة كنت أريد أن أصدق في شيء، أن أتمسك بنقاط ثابتة لاتتحرك، وكان هذا البيت إحدى هذه النقاط.
بعد شفاء مريضنا، تطورت العلاقة بيننا. بدأ يتعود على رائحتي في البيت وأتعود على رائحته في الحمام. في إحدى الليالي، باغته بحضن قوي لايقبل الرفض، ونحن نهم بالخروج لإحدى الحفلات الموسيقية. استجاب بتردد، شعرت بالإهانة، كأنه فوجئ بهذه المشاعر ولم يستعد لها، فسحبت نفسي من حضنه وظللت طوال الحفلة أندم على اندفاعي في إظهار عواطفي. لم نتكلم بعدها عن هذا الموقف كانت هناك أحداث عديدة تتوالى من حولنا. في تلك البدايات الملتبسة، لم تكن عنده مشكله في أن ننام على سرير واحد، ويعطيني ظهره، كزوجيْن مَرَّ على زواجهما زمن طويل؛ ما يؤجل رغبتهما إلى أجل غير مسمى.
لم يدم جدار الصداقة الهش، أكثر من أيام قليلة، فقد أغرقته مياه ثورتي الداخلية، وانجرفنا معا إلى وسط البحر. كان حريصا على ألا يجرح عائلته بعلاقتنا؛ لذا كان يفضل، أن يزورني في غرفتي الصغيرة، على الرغم من كل مشاكلها، والتي تمثل جزيرة معزولة، وسط خمس جزر أخرى معزولة، جميعها مؤجرة لمصريين وأجانب، داخل جزيرة الزمالك المعزولة.
كنا نندفع بغرائزنا، بدون حساب، وليحدث ما يحدث. كانت هناك ثقة بأن الزمن سيضبط إيقاع هذه الاندفاعات، ويضعها في المكان الصحيح. كانت الأحداث والاختلافات تذهب بنا بعيدا، والفراش هو الذي يقربنا. كنت أخجل من رغبتي المتأججة أحيانا، أضربها على مؤخرتها كي تصمت. كتبت على حائطي الزجاجي «للتمبلر» عدة مرات في أثناء خصامه: «أريد أن أنام معك الآن»، ربما لن تصله الجملة، ولكنها تصبيرة لتهدأ هذه الرغبة. تنفيسة حارة تزيد هذا العالم الافتراضي اشتعالا.
كان مصعب يشعرني دائما بأنني الجزء المسئول عن الإغواء في العلاقة، أما هو فعليه تحويل هذا الإغواء إلى إيقاع حار، وانتصاب ممتد زمنيًّا. تعلمت كيف أغويه بدون أن أشعر بأي امتهان لنفسي. الثورة كانت تتكلم بلساني عندما أصارحه بحاجتي لأن أنام معه. الرغبة أخذت ثوب الثورة. لقد دلَّلته وقطعت عليه طريق إغوائه لي، وقمت وحدي بهذا الدور، متحملة مشاق نتع رغبة جسدين؛ لأجمع الصورتين: نار الحبيبة واحتواء الأم. داخل علاقتنا لم يكن له دور، سوى

أن يلصق قضيبه المنتصب بفقاعتي النفسية، لتنفثئ بهدوء، وتخرج كل سوائلها المحتجزة، وأرتاااااااااااح عندها.
بعد هذه السنوات، أشعر بأني لم أكن أحبه هو، ولكنه كان نفقا أعبر به لأمتلئ بهذا الشيء النفيس بداخلي، بأنانيتي المغلفة داخل الفقاعة، بسوائلي المحتجزة، أيًّا كان من يسكن داخل هذه الفقاعة حتى ولو كانت مومياء أمي.هذا النفق المدفون به كل جثث الماضي. بالرغم من أن مصعب أدى باحتراف دور الشخص الأناني والوصولي، شريف المنبت، الذي لا يمنح شيئا ولا يريد أن يتخلى عن طموحه في صالح الحب؛ فإنني كنت أكثر أنانية، وربما أكثر وصولية منه، وربما أيضا أحمل بذرة فساد ضاربة في جذور وجودي بقوة. ولكن أنانيتي ووصوليتي، لم يكن لهما هدف سوى تدمير ذاتي، وليس البحث عن مكسب فارغ. كانت أنانيتي تقف في لحظة صفر الثورة، ترتبط بفكرة داخلية مبهمة، خليط من الغريزة والتملك والضعف والتفكك ونثر الأعضاء المحترقة فوق مساحة واسعة من المياه.
كنت أدفعه لأن يلعب أمام نفسه دائما دور الشخص «الأناني»، حتى صدَّق هذا، كما صدق أني المسئولة عن إغوائه. كما كنت المسئولة عن الرغبة، كنت أيضا المسئولة عن إثارة أنانيته وإلصاقها به وتصديقه لها. لم يكن يعرف أن رائحة فمه المعبأ بالنيكوتين كانت تسكرني، وتضرب بقوة في خياشيمي حتى تصل لآخر شعيرة دموية تتنفس أكسجينا مخلوطا بالدخان في جسمي.
من البداية كان صريحا معي، حتى كلمة «أحبك» كان ينطقها بثقل. لم يتطرق ذهننا لأي ترتيبات للزواج في المستقبل، ولم يكن المستقبل نفسه مستعدّا لحمل قصص الحب هذه. لم يحبني بل كان يرغب فيَّ كما كنت أرغب فيه. كانت الثورة تحفر نفقا روحيّا داخل الرغبة، وأستقبلها كمؤمنة تنتظر نور الخلاص. كان مشروعه السياسي يقف على قدم المساواة بجانب رغبته، أما أنا فرغبتي كانت مشروعي السياسي الوحيد في ذلك الوقت.
هل كان الحب قناعا يخفي هذه الرغبة المتأججة، والتي كانت إحدى وسائلي للهرب من الموت، الذي شعرت بأنه يلاحقني؟ بعد وفاة أمي أحسست بأن الموت مرض وراثي في عائلتنا ينتظرني في إحدى زوايا جسدي وغرفه المغلقة. كنت أقاوم الموت بالرغبة، وبالتملك العنيف لأشياء لاتحتاج لكل هذا الجهد، تحتاج فقط للتفاهم، والحب! والغريب أن ميادة كانت على العكس تماما، لم يكن موت أمي سوى سبب لحزن قوي، ولم يمس جذر الحياة والموت بداخلها. ولكن ربما هو السبب في مدِّها لسنوات المنحة، والتحاقها بالجامعة في فرنسا، والهروب المتواصل من مواجهة موت الأم. لا تريد أن تواجه الموت في أرض ميلاده، ولكنها تواجهه في أرض متحركة باستمرار، فلا تسمح له بأن يثبت عليها راية حزنه وشجرة فقده.
لبست الثورة ثوب الرغبة والتحرر، وسرت وراءها غير نادمة. كنت فارغة من كل شيء، حتى هذه الرغبة شيء لايمكن الوثوق به، والثورة أيضا، خارج هذا أنا لا شيء. كان حبي لمصعب كافيا كي لا يجعلني أجهض نطفته، وأرضى بأي شيء مهما كان، وبأي حكم ظالم من المجتمع أو بقسوة عائلته المحافظة، أو بخروجي إلى الأبد من حياة عائلتي. كل هذا لم يكن يساوي نومي بجانبه وهو يحتضنني، أو لحظة إحساسي بالأمان عند التصاقي به، طالما أحمل داخلي هذه النطفة التي ستصبح عَلَقَة ثم طفلا، وطالما هو، وهو الأهم، متمسك بها. تخلى مصعب عن نطفته، وربما كانت بداية لتخلٍّ أوسع عن مبادئ الثورة نفسها.

من سيتبني ابن الثورة هذا؟ كنت مستعدة لمواجهة كل الصعاب، للمرة الأولى أومن بشيء ملموس يخرج مني، وأشعر بأن ذاتي ذات واحدة وليست اثنتين، أو أكثر، يتعاركان حول جسدي. ولكنه للأسف تراجع لأن وضعه لا يسمح بالزواج، فمازال أمامه طريق طويل، وكان من الصعب أن أحمل ثمرة الحب وحدي.
كان يوما عصيبا لا أنساه، بينما الاستعدادات عن آخرها في الشوارع والشاشات لحشد ٣٠ يونيو، كنت في طريقي للعيادة الخاصة لأجهض نطفتي. حملتْ عني رباب قسوة تلك اللحظات، برغم أن مصعب كان حبيبها القديم قبل أن يكون حبيبي. إحساس فظيع بفقد جزء من جسمي، ويختلف تماما عن إحساس التوأم. قامت رباب بكل الإجراءات ودبرت التكاليف بمساعدة مصعب وبعض الأصدقاء. كانت هذه النقود التي أخذها من والده، ودفعها في العملية، آخر شيء شارك به مصعب في حياتي.
كانت هناك بذرة جماعية تتكون حول هذا الطفل المفقود، وبرغم مرور السنوات سيظل هذا الطفل المفقود يطارد أحلام هذه الدائرة الضيقة من الأصدقاء؛ بوصفه ابنا غائبا لهم جميعا، وربما سيذكرهم في المستقبل، بهذه الثورة التي أجضهت هي الأخرى.
كان هذا «الابن المفقود» هو أضحيتي التي قدمتها للثورة، ليس فقط من أجل الحب، ولكن لتحملي مشاق هذا الفقد المبكر لشيء يخرج مني. ربما تضحيتي بهذا الابن المفقود، أعادت لنفسي فضيلة التضحية الحقة، غير المزيفة، كما ضحى الله بابنه المسيح في الديانة المسيحية، لتكون التضحية أحد الأركان التي ستقوم عليه الديانة فيما بعد. كنا، بتضحياتنا في الثورة نضع أساس ديانة جديدة، ربما لن تستمر كثيرا وسيهجرها معتنقوها.
كانت رحى الثورة تدور نحو الموت والفناء، وتدفعنا بدون أن ندري بأن نصنع ثوراتنا الخاصة، ونطلق دخان عفاريتها. كانت كفة الثورة تتغير باستمرار، هذا التألق والصعود المهيب للحياة في الميدان أخفى وراءه وجها آخر للموت. رمينا بأنفسنا وراء ذروات الحياة، ليس فقط لنحرر البلد ولكن لنحرر أنفسنا أولا، بموت هذه الأنفس. كنا ضائعين حتى الثمالة، ثم جاءت الثورة وأنقذتنا، وبدلامن أن نموت بلا معنى، منحتنا المعنى. ربما الثورة قامت على أنانية اتخذت شكل التضحية!

كتابة على حائط «التمبلر»

«رُحت بالبطاطين للميدان، دفعت فيها آخر جنيه معايا. كلمني «م» بصوت حاد أن أشتري البطاطين بسرعة وأحصَّله على هناك عشان نفرَّقها على المعتصمين. دي كانت لهجته الآمرة لما يكون فيه حاجة مهمة ومستعجلة. حسيت بنغزة جامدة في صدري، لما شافني وأنا شايلة البطاطين، وما عملش أي حاجة، كأنه ما يعرفنيش، ما حاولش حتى إنه يحضني، أو أخد باله من الكحة اللي فاشخة صدري. أخد مني البطاطين بكل جدية وانتباه كأنه بيتسلِّم علم قيادة الثورة، ماكنش ناقص غير إنه يرفع إيده بالتحية العسكرية. إتكسف إنه يبوسني قدام الناس، زي ماتكسف قبل كده مرات إنه يحضني في الشارع. لما بنكون لوحدنا في العربية، وناويين نروح بيته أو بيتي، طول الطريق ما فيش حتة مابيعريهاش في جسمي. قدام الناس بتبان له شخصية تانية، ماعندهاش عواطف، ويتعامل معايا كأنه ثوري بجد بتاع «لا وقت للحب».

يا حبيبي لازم تفهم إحنا مش ثوار بجد، إحنا ثوار بالصدفة، إحنا بنقلد الثوار المشاهير بس في الجزء القاسي والجاف من شخصيتهم. ليه بتتراجع وتتكسف في مواقف ما تحتملش الكسوف بكون محتجاك فيها؟ الثورة صحِّت الجزء القاسي الجاف الذكوري اللي نفسك تتخلص منه. كشفت بذرة الفساد اللي جواك. يا حبيبي ذكورتك ذكورة هشة متدلعة، والكسوف ده القناع اللي بيستخبى وراه الطفل الأناني، اللي هو إنت.

كان مصدق جدًّا، أو بيحاول يقنع نفسه إنه هييجي وقت وهنحب بعض بجد، ونستمتع بحياتنا بجد، بس المهم دلوقتِ، إننا نوصل بالثورة لبر الأمان. ما كنتش بصدَّق الشعارات دي؛ لأنه دايما كان بيطلب إنه ينام معايا، وفي أي وقت، وقتها بيدي الثورة أجازة حسب مزاجه. يا حبيبي لا نهاية لأي ثورة، إحنا بنخش في متاهة مش هنخرج منها، إلا وفيه ذنب بيطاردنا بإننا فشلنا، وساعتها هيطاردنا ذنب تاني بإننا خُنَّا، وساعتها هنمارس الحب بمشاعر الخاينين زي كل الأجيال اللي سبقتنا، وتكون كل شعورنا بقت بيضا.

إنت مش عايز تفهم ليه؟ يا رب اللي في الميدان يموتوا من البرد ويا رب البلد تولع أصلا باللي فيها».

الجد رينجو

وأنا صغيرة لم تكن لي أي علاقة من قريب بالكلاب، سوى صداقتي لأحدها من كلاب الشارع، التي كانت تنتظر معنا، أنا وميادة، أوتوبيس المدرسة في الصباح. لا تحوي ذاكرة كلاب شارعنا سوى ذكريات سيئة عن عالم الإنسان. في أحد الصباحات الباردة كنت ذاهبة لشراء الخبز من الفرن المجاور لبيتنا، فوجئ أصحاب الفرن، بكلبين متداخلين تماما. وأصروا على أن يفصلوا بينهما. وسط عواء حاد ومؤلم، بجانب الضرب بالعصي، وضعوا ماء ساخنا في مكان الالتحام بينهما؛ ليصهروا الرغبة داخل هذه الأعضاء. لم أفهم حينها سبب هذا التداخل ولا سبب العقاب ولا سبب ثورة أصحاب الفرن الصعايدة.

هذه الفصيلة الثديية التي تضم معها الذئاب والثعالب، دخلت المدينة ودخلت بيوتنا وعاشت بيننا، وتخلت عن الكثير من صفاتها البرية، في سبيل أن تنعم بوجبة ساخنة، أو بجماع رومانسي، وبمواعيد منتظمة لتناول الوجبات، وبرعاية صحية، والأهم أن تنعم بدفء وصحبة لا توفرهما لها قبيلتها، التي تبحث عن علاقات طارئة ومؤقتة؛ لأنها مُطاردة باستمرار تفتقد للحب البيتي والاستقرار.

إلى أن جاء «رينجو» إلى البيت. كان أحد أولاد «عزيزة» كلبة صديقتي «رباب» من فصيلة «الراعي الألماني». كنت ألعب مع أمه دائما عند ذهابي لرباب، نقضي معًا ساعات يتأمل كل منا الآخر، كأنه يختبر معدنه. في إحدى ولاداتها المتعددة، طلبت من رباب أن أحتفظ بواحد من أولاد هذه الأم الذكية الحنونة. وافقت رباب ، ولكن كانت هناك صعوبة في إقناع أمي، التي كانت تحرم الكلاب وترى فيهم نجاسة لا تتماشى مع بيت تدخله الملائكة خمس مرات في اليوم. ولكن أمي، الشخصية الطيبة في منبتها وفي روحها، رضخت أمام توسلاتنا في النهاية، بعد أن رجح أبي كفة الميزان. كان أبي يربي كلبا وهو صغير في بيت العائلة في خلوصي، وهناك سبب آخر، لاستبقائه رينجو؛ كي ينافس كلب عمتي تحية التي تسكن في الطابق الرابع، الذي كان يفرض سطوته على بئر سلم العمارة، وهو ما لم يستسغه أبي. خصصنا لرينجو البلكونة الزجاجية، الملحقة بغرفة نومنا، أنا وميادة، وكان كل منا يتناوب على رعايته.

في اليوم الأول الذي جاء فيه إلى البيت، تسلل إلى غرفة النوم، واختبأ تحت سريري، كأنه اختار، بدون أن يدري، من سيقع عليه الحظ لرعايته. هذا الخجل لم يفارقه حتى الآن، بعد مرور سبع سنوات على حياته معنا. في المرة الأولى التي حملت فيها رينجو، لأطعمه، شعرت بحرارة أنفاس كائن في يدي، كأنه طفل رضيع يتحسس ثدي أمه. أصبحت لرينجو شراسة الشخص الخجول، الذي لا تعرف متى وأين سينفجر، ولامقدار الحدة التي ستسم أفعاله.

ولد «رينجو»، كما أخبرتني رباب، من أب مجهول كان يعيش في إحدى مزارع محافظة الغربية؛ حيث بيت عائلة أونكل عبد السلام والد رباب. يُعتقد دائما بأن هذا «الأب» له أصول بلدية وليست «ألمانية» كما كان لعزيزة أم رينجو. ربما هذا «الأب البلدي» المجهول أدخل على فصيلة الزوجة الألمانية، بعض الخجل وحب الكسل، ولكن أكسبها أيضا خفة الدم؛ تلك الصفة التي لاتتواجد بسهولة في الكلاب ذات الأصل الألماني الصافي.

زاد تعلُّقي برينجو على مدار هذه السنوات السبع. تزوج، خلالها، لمرة واحدة، بكلبة أحد جيراننا، وأنجبت زوجته سبعة أولاد، كان نصيبنا منها كلبين؛ ذكرًا وأنثى، أهديتهما لمنسي صديق الطفولة،

وجارنا؛ بسبب حبه للكلاب؛ ولوجود حديقة في بيتهم يمكن أن يعيشا فيها بسعادة.
أصبح «رينجو» جَدًّا، خلال هذه السنوات السبع، بعد أن تزوج ابنه وابنته. دورة العمر للكلاب سريعة وحزينة أيضا، تتفرع الشجرة بقوة خلال فترة قصيرة، وتخضر سريعا، ثم تتوالى النهايات التي لاتتعدى الرابعة أو الخامسة عشرة من العمر. بداية من العاشرة يدخل الكلب في شيخوخة نهاياته. ربما ما يعوض هذه الدورة القصيرة من الحياة هذه الفروع والأوراق الكثيرة التي تتفرع من شجرة حياتها. الكلاب منذ يومها الأول في الحياة، مكتملة، واضحة الشخصية، تحمل صفات الكبار، لا تمر بمرحلتي الطفولة والمراهقة، بل تختصر هذه المراحل وتنقذف مباشرة في مرحلة ناضجة، وتبادلك منذ البداية، وللنهاية، حبًّا بحب وتعلقا بتعلق. ربما تعوض بهذا النضج المبكر هذه النهاية المبكرة أيضا.
منذ استيقاظي، وخلال ساعات تواجدي في البيت، يتبعني «رينجو» بقفزاته وبذيله البندولي. يقف على باب الحمام منتظرا خروجي، لو فتحت الثلاجة لأسحب أيًّا من الطعام للإفطار، يتشمم ما بداخلها ويلفحه الهواء البارد لها فينتعش، ويمني نفسه بتصبيرة سريعة حتى يحين موعد الوجبة اليومية في الخامسة عصرا. لم يكن يتفاعل، بنفس الهمة، مع ميادة. بينما يجد في محمود ندّا له في الصمت، فقد كان محمود يحب أن يجلس أمامه على الأرض، وجها لوجه، يتحاوران عبر لغة العين. ربما تجنبه لميادة لأنه كان يعرف بأنها ستسافر، ولا يريد أن يعلق حبه على شخص غائب! في أثناء فترة مرض أمي، بالرغم من ابتعادها الفطري عنه، ونهرها له لو اقترب منها وهي متوضئة، فإنه كان يبيت تحت سريرها ليحرسه أيضا، مع محمود، لو اقتربت منه ملائكة الموت.
كان يستقبلني بنباحه الذي أسمعه من بعيد، حتى وأنا في أوتوبيس المدرسة، وقبل أن أصل للبيت بمسافة طويلة، تماما كما كانت تستقبلنا أمي في الشرفة عند عودتنا. لو فعل خطأ ما وأنَّبته عليه، ينظر لى بعين ورأس كسيريْن، وفي أحيان أخرى يواجهني بعين متسائلة، لو حل موعد تقديم الوجبة اليومية وتأخرت في تقديمها، أو لطلب وجبة إضافية، عندها يسحبني جريا إلى المطبخ، وينظر بحيرة في الإناء الفارغ، المخصص لطعامه. يتحول «رينجو»، في تلك الأوقات، إلى مجرد «عين» محملة بلغة الرموز، بجانب ذيله الذي يكمل به حروف الأبجدية، وقدمه اليمنى التي يرفعها بالسلام عندما يرتكب خطأ ويعرف بأني سأعاقبه، فيبادر بالاعتذار، كأنها راية استسلام.
أحيانا يدخل معي في لعبة، بأن يقف على باب غرفة السفرة في أثناء المذاكرة، لا يتعدى حدود الباب الوهمية، يصدر صوتا أعمق من النباح؛ لكي يستدرجني لأقوم وأربت عليه، وبمجرد وصولي لعتبة باب الغرفة، يبدأ في التملص والدوران حول ترابيزة وكنبة الصالة، وأنا من ورائه. هذه المطاردة تتكرر أكثر من مرة، هو في الأمام وأنا من خلفه، كأني أجري وراء طفل صغير في أكثر لحظاته سعادة وقهقهة. اخترع رينجو هذه اللعبة، وربما ليعيد بها مطاردات الغابات والسهول والمزارع بين بني جنسه. في أثناء المطاردة، أتعمَّد أن أتباطأ حتى لا ألحقه وأمسك به؛ لأجعل الدائرة بيننا مفتوحة باستمرار، وأمنحه فرصة أن يفوز في هذا الماراثون الدائري المفتوح إلى ما لا نهاية ولا فائز فيه.
قبل مغادرتي البيت ألقي عليه نصائح اليوم «إوعى تعمل شقاوة»، طبعا أتركه للبيت الخالي بعد نزولنا جميعا أنا وأختي وأخي لمدارسنا، وأبي وأمي لأعمالهما. كذلك عند عودتي أسأله: «عامل إيه؟»، أو «عملت إيه النهارده؟». يكتفي بهز ذيله ورفع رأسه ناحيتي لأعلى، في وضع النباح، ولكن بدون نباح، أو بنباح السعادة الخافت المحشور في حلقه، والذي ينطلق عند عودتي.

ربما يعرف رينجو معنى هذه الأسئلة أو الحوارات الطويلة التي تدور بيني وبينه، ولكن لا يعرف كيف يعبر عما يجول بداخله. أحيانا ينظر لي بقوة، يضع عينه في عيني ولفترة طويلة، أطول من ثبات أي عين أخرى، بدون أن تجفل. لأول مرة أشعر بإنسان آخر ينظر لي، بهذه القوة، ومن هذا العمق الصامت. أعتقد أن محمود تعلم هذا الصمت الناضج من رينجو، عندما يضع رأسه على الأرض في مستوى جسمه، كما يفعل رينجو، ويجلسان وجها لوجه. يستمران على هذا الوضع طويلا. أرتجف أحيانا من هذا القناع الذي ينظر لي رينجو من خلاله، من هذين الفراغين الأسودين النافذين إلى ذاكرة مختلفة تماما. أسأل نفسى دائما: كيف يفكر رينجو فيَّ، وما هي صورتي في خياله؟

كنت أشعر بأنه كما تتناسخ صورتي في خياله، هو أيضا يتناسخ داخلي، بكل حركة، نظرة، إيماءة، جميعها تجد معنى وتفسيرا داخلي، فينشأ هذا التعاطف مع الكلاب، كأنها آخر لنا يعيش داخلنا، ويتألم مثلنا، بل يأخذ شكل نفوسنا. نتبادل أرواحنا، التي ربما كانت، في إحدى مراحلها، تسكن جسد الكلاب.

كانت رباب تؤنبني دائما بأنني أدلع رينجو بشكل غير طبيعي، وسأفسده. أعرف هذا، وأعرف بأني كسرت كل قواعد الطاعة والسلوك الطبيعي في تربيتي لرينجو، ولكني كنت أريد أن أعوضه عن هذا العمر القصير الذي سيعيشه معنا، وهذا العَجَز المبكر الذي سيباغته. كانت حياته معلقة على بندول حياتنا، يستجدي رضانا وحناننا وربما غضبنا. درجة تعلق تثير الشفقة، أود ساعتها أن يكون لرينجو صوت ليصرخ، ووفرة في المال والزهد؛ ليستقل بحياته، ويتمرد على هذا الدفء والطاعة ويذهب ليموت بعيدا أو يتألم بعيدا كفرد مستقل يملك حياته وموته. ولكن أيضا تحمُّل موت الآخر وألمه، جزء من الحب أو ثمنه الذي يجب أن ندفعه. ربما التعلق وفقده لحريته وشخصيته المستقلة، هما ثمن هذا الدفء.

في أوقات كثيرة أجده، في سريره المفروش على الأرض في البلكونة الزجاجية، ساهما، لا يعبأ بمن حوله، أو منهمكا بحركة آلية، في تنظيف نفسه. ربما هي إحدى لحظات استقلاله التي يستغني فيها عن رضا أصحاب البيت. ابتدع رينجو هذه العلاقة الخاصة مع جسده؛ ليملأ وقت فراغه الطويل، وذاكرته الهشة، سريعة النسيان. مثل سائر بني جنسه، ابتدع رينجو لعبة النظافة كما ابتدع لعبة المطاردة، ومع الوقت تحولت هذه اللعبة لنوع من التأمل الذاتي، يدخل فيه بجدية تامة تشعرني بأن بالجوار هناك «ذاتًا مستمتعة» تسبح في عالمها الخاص المستقل عن عالمي المأزوم المليء بقنابل الدخان وعذابات اليتم والحب.

أولاده وأحفاده تفوقوا عليه في ضخامة الجسم، ولكن ليس في الوسامة. أراهم عند مروري اليومي على حديقة فيلا منسي. أصبحوا أكثر مطابقة للأصل الألماني؛ بسبب حرص منسي على تزويج الابنة بزوج ذي أصل ألماني؛ صافٍ. تفرقت ذرية رينجو وأحفاده في بيوت عديدة، وعاشوا حياة مستقلة وربما أنجبوا، بينما مازال هو يلعب الاستغماية كطفل، مقيد بحركتنا وبمصيرنا، ويريد منا أن نعامله دائما كطفل مدلل، أو كجد مدلل، بعكس دورة حياته المتسارعة.

كثيرا ما أفكر بأن «رينجو» يحتفظ بنسخة أخرى من حياتنا في البيت. ولكل أحداثه، وليوم سفر ميادة، ويوم وفاة أمي، وغيرها وغيرها من الأحداث، وخصوصًا فترة حبسي في أثناء أيام الثورة الأولى. نسخة صامتة، ومشفرة، لا أعرف مصيرها في المستقبل.

كانت لمنسي ذات زاهدة، ولكن بلا خيال

كان لمنسي؛ صديق طفولة دولت، روح أنثوية، بجانب وجه جميل، يجذبان الفتيات وثقتهن معا. لم يتعب يوما في إثارة إحداهن، حتى دولت زميلة المدرسة للمرحلة الثانوية، لم يبذل مجهودا في جذبها بالرغم من عدم تصريحه لها بالحب يوما. كل الأشياء كانت تسعى إليه سهلة، لم يتعب في الحصول عليها: الوسامة، المال، حب الصديقات والأصدقاء. لذا تعِبَ في تبديد بعضها، وإبطال تأثيرها؛ حتى يتجنب مساوئ هذه السهولة القدرية المراوغة.

كان يكافئ أي سهولة يحصل عليها بصعوبة مماثلة في اختيار نمط الحياة. فجاذبيته للنساء لم تجعله يتحول إلى زير نساء، بل جعلته صديقا حميما لهن يقدر قيمة الصداقة الرائقة. وجاذبية النقود له لم تتحول إلى استعلاء، بل كانت مصدرا لفك ضيق أصدقائه وصديقاته. والوجه الجميل زرع به ذقنا خشنا زاده جمالا. كان يريد أن يصل للتعادل، لنقطة الصفر، التي تتعادل عندها قوى الملكية والاقتناء والعبودية والحرية، ويختفي تماما الصراع، كأنك مخلوق حديث بلا ذاكرة ولا ماضٍ.

حرص أبوه، الذي عاش شبابه مع جده في الخارج؛ حيث كان يشغل الجد إحدى الوظائف الحساسة في إحدى السفارات المصرية في عهد الملكية، حرص على أن يعامل أولاده بمنطق جديد تعلمه في أثناء سفره، الاستقلال، فكان يمنحهم مرتبا شهريّا عاليا، ليعتمدوا على أنفسهم في كل شيء.

جرت النقود في يد منسي ومن بعده في يد أصحابه، مبكرا جدّا. بجانب العربة الصغيرة «موريس ميني»، التي اشتراها له أبوه بمجرد إتمامه الثامنة عشرة، وكان يجوب بها شوارع مصر الجديدة وبجانبه صديقاته اللاتي يضفين على هذه العربة الصغيرة الزاحفة مسحة حيوية تتفجر بالطاقة والشبوبة وتثير الحسد الجميل من حولها. تعرف منسي على متع كثيرة واقترب منها، ولمس نارها، ولم يشغل الحرمان أو الخيال، إلا حجرة صغيرة في ذاته.

كانت لمنسي ذات مشبعة وزاهدة ولكن بدون خيال، أو رسالة، أو هدف. زهد مجاني يصل أحيانا لدرجة العدمية المبكرة. حتى مراهقته مرت بسلام بدون اختناقات أو صراعات. لم يسعَ للعراك حول الفتيات كما كان يفعل أصحابه الذكور، روحه الأنثوية كانت ترجّح كفة الصداقات العميقة التي يستند فيها طرف إلى آخر. ولكن ليس معنى هذا أنه لم يشتهِ جسد إحدى صديقاته، لم يشتهِ جسد دولت وهو يحملها من داخل قنابل الدخان، ولكنها شهوة هادئة، لها بوصلة تبحث عن فتاة بعينها، تتلقى الحب كما يفهمه، بالزهد ذاته، وبالعدمية ذاتها.

داخل هذا الزهد القدري، كانت هناك تصفية لأشكال الحياة التي يختارها، والأجساد التي يهوى الاقتراب منها. ربما قصته مع ريم زميلته في سنته الجامعية الأولى، كانت تعاني من شلل في قدمها اليسرى، والتي أراد أن يتزوجها في هذه السن المبكرة، ورفضها الشديد برغم حبها له؛ لأنهما مازالا صغيريْن. ربما قصته هذه تدل على أنه كان يبحث عن روح صفرية تشبه روحه، وعن جسد صفري، يمر في الحياة بدقة، عبر العاهة، وبدون ترهلات وجودية لها علاقة بالحب. لم يفكر يوما لمَ اختار ريم بالذات! ربما كان يبحث عن رسالة أو هدف.

هذه «الذات العليا» التي يغذيها منسي بزهده الفطري، لا يوجد بداخلها مايشغل فضاءها. كأنه ولد بداخل هذه الذات وليس العكس. لم يجد ما يملأ فضاءها بأي شيء، فبدأ يملؤه بالدخان الأزرق

للحشيش، ثم البانجو، ثم بالسفر حول العالم لتعلم البوذية ومن بعدها اليوجا، ثم سحبها إلى الأجواء الصوفية والجلسات الروحية.
في سفره تعلم اليوجا والصمت. تعلم كيف يتكئ على قدم واحدة، هذا الوضع غير المريح هو حجر الأساس للذات التي اكتشفها بسفره، فعدم الراحة يمكن أن يعوض الخيال الضائع، أصبح عبدا للتحمل، يتوافق مع أي موقف بطريقته، وربما المواقف التي مرت بحياته بعدها لم يكن من بينها الموقف الذي يجعله يغير من هذه العقيدة التي ارتاح لها، ودرجة قوة التحمل التي وصل إليها.
هذه الصفة الجديدة منحته مكانة في كل المجالس التي يعيش بداخلها، بأنه الشخص الذي يمكن الاتكاء عليه، وأن تعبه هو مصدر سعادة بالنسبة إليه؛ لأنه يملأ فضاء هذه «الذات العليا» ببعض العرق. لم تغره الثورة، ولم يكن ضدها، وكلما دعته دولت للنزول معها كان يضحك؛ لأنه مشغول بما هو أبعد من الثورة والجموع، وحقق داخل ذاته ما يمكن أن تحققه الثورة لأي ثوري، بأن يكون التعب مصدر نشوة له. لم يُلَبِّ طلبها إلا عندما استنجدت به وسط اشتباكات شارع محمد محمود.

الأمير الصغير

ظاهريًّا لم يلمس محمود هذا الجزء المأساوي في موت أمي، ولم يفهم معنى غيابها الدائم، بالرغم من بلوغه التاسعة. تقول كتب الطب النفسي إن هذا العمر يدرك فكرة الغياب جيدا، ولكن محمود له عمر خاص، فمنذ ولادته وله صمت غريب، كأن المفردات تسبح في فضاء واسع، ولاتتقابل لتكوّن جملة. ربما غيَّر هذا الصمت من كينونة هذه السن. صمت ليس له علاقة بإعاقة ذهنية أو عدم القدرة على التحصيل والاستيعاب، ولكن له علاقة بقدرته على أن يجلس طويلا وحيدا بدون ملل أو زهق يشاهد ، بعين خياله، هذه الكلمات المتطايرة في سماء صمته. جعل هذا الصمت عالمه سحريًّا، بهذه المسافات التي تقف بين الأفكار والأشياء والمشاعر. فلا يمكن أن يعي معنى الحقائق المتماسكة التي ليس بها فراغات، كحقيقة موت أمي. يلعب في هذه الحقائق بصمته ويفتتها ويبث فيها شروخا حتى تصبح خفيفة قابلة للطيران والدوران. كان صمته مثل الصمت الذي يحرك الحجر من موضعه بقوة شحذ النفس وموجاتها لتكون يدا تحرك الأشياء من بعيد، وتأتي بأشياء أخرى من بعيد، حتى يستحيل هذا الصمت إلى عالم تدور فيه الأشياء كدوران النجوم في المجرات. هذه اليد حركت جسد أمنا ونقلته مباشرة إلى بحيرة صمته حيث تعيش إلى الآن.

كان بارعا منذ صغره في لعبة المكعبات التي يفك شفرتها ويصل إلى الأشكال بسرعة مذهلة. بين زوايا هذه الأشكال الهندسية كانت تتولد بحيرة المياه التي تمنحه السكينة والصبر على الجلوس لساعات طويلة لايوجه فيها بصره لأي هدف آخر. اشتبه في هذا السلوك، في سنواته الأولى، بأنه نوع مخفف جدًّا من «التوحد»، بعد أن أثار انتباه الجميع في البيت والمدرسة، ولاحظوا هذه الخلوة الصامتة التي يريد دائما أن ينفرد فيها، ولكن لم تكن الملاحظة صحيحة، بعد عرضه على أكثر من طبيب نفسي، نفوا وجود هذا المرض، فقد كان محمود يأتي بالعديد من التصرفات التي تظهر نضجه العاطفي بالنسبة إلى عمره، ورغبته في التواصل مع من حوله وبقوة، معي ومع ميادة، وأبي، وزملاء الفصل، ولبنى أخت منسي التي أصبحت صديقته ومخزن أسراره. في بدايات مرض أمي، كان يصر على أن ينام جوارها في السرير، ويأخذها في صدره؛ ليمنع ملك الموت من أن يأخذ روحها. شكَّل هو ورينجو كتيبة حراسة لرصد الكائنات اللامرئية التي تقترب من سريرها.

أصبحت لمحمود عدة أماكن معتادة في البيت يبني فيها خلوته، أحيانا نجده تحت مكتب المذاكرة الخاص بي، أو في ركن البلكونة الزجاجية حيث يعيش رينجو، أو في المثلث الضيق بين دولاب الملابس والحائط. يريد أن يملأ بجسده كل الحيز الذي يشغله، كأن هذه الأماكن هي رحم الأم، بلا زيادة ولا نقصان، الذي خرج منه. كانت لمحمود عادة غريبة، إذا دخل الحمام يطفئ النور ويشعل شمعة، فيصنع خلوة من الظلام الذي يحيطه بضوء الشمعة. كنا نخشى دائما نشوب حريق بسبب هذه الخلوة المتنقلة في البيت.

بعد شهور من مرض أمي، زادت جرعات هذا الصمت، وتغيرت بعض سلوكياته تجاهها، فلم يعد يحب النوم بجوارها. كان جسدها قد أخذ في النحول، ويبدو أنه شعر بأن ملك الموت قد هزمه في معركته فآثر الانسحاب. كان يصنع بصمته جدارا عازلا بينه وبين ما يحدث؛ ربما لأن مايحدث، كان صوته هادرا بدرجة لايحتملها، ولاتحتملها بحيرة مياهه الصافية وحركاتها المتواترة والرتيبة. في لحظة ما، بدأ ينفصل عن أمي تماما، وعن أي احتكاك مباشر معها. كانت تحاول دائما أن

تضمه إليها، فيتملص ويبتعد. كانت معذورة، لم تكن ترى قدر نحولها، والذي أدخل الرعب على قلب محمود وقلوبنا جميعا. أحيانا كنت أراه واقفا على باب غرفتها الموارب، بينما هي نائمة، ليطل عليها من بعيد، ثم يتسلل بعدها إلى السرير بجواري، ويدفن رأسه تحت الوسادة، ويحكم الملاءة فوقه. اعتدت ألا أقترب منه في تلك الأوقات، التي تكون فيها بحيرته قد فاضت بالكثير والكثير من الدموع، ورمت على شاطئها بالكثير والكثير من الأصداف اللامعة.
كان ضنينا في إظهار مشاعره، وربما ورث عن أبي هذا البخل. كان القناع الذي يلبسه أبي يخفي تماما أي انفعالات تدور بداخله. كنت أشعر أحيانا بأن محمود يفهم معنى الحزن، ومعنى الغياب الأبدي للأم، ولكن في شكله السائل الخام، في هذه البحيرة التي تكبر يوما بعد يوم، في هذا الصمت الحريري الكثيف الذي يصنع به شرنقة حول نفسه، وسرعان ما سيخرج منها ويطير.
كنت ألتمس العذر لمحمود دائما؛ كونه عاصر فقط الفصول الأخيرة من «حكاية الأم». لذا هو يمتلك حكاية مبتورة لن يقدر على إكمالها في المستقبل. هناك أشياء دفنت للأبد في بحيرة صمته، وحزن لن يستعاد بسهولة. ربما الموت يريد جسدا ناضجا وذاكرة واسعة لتتذوق طعمه جيدا وتقدره، وليحل كأثر غائر لا يمحى بين ثناياها. بعد وفاتها، لم يحدث أي تغير ملموس في حياته اليومية يعبر عن هذا الفقد الكبير، كأنه لا يريد أن يلمس جسم الصدمة، وأكمل حياته بشكل عادي. ولكن طالت ساعات صمته وتأمله لهذه البحيرة. ربما كانت أمي مازالت تعيش داخل هذه البحيرة كسمكة فضية، تلمع في الشمس، وأنه يقوم بالحديث معها كل يوم، بل يحتضنها، بدلا من هذه الأم الذابلة التي عايشها في آخر أيامها وكان يفزعه نحولها.
كان محمود تميمة البيت، ونقطة توازنه، والباب المفتوح على كون آخر مسالم ومطمئن. في كل لحظات خلافي مع أبي، وقبلها خلاف أبي مع أمي وتهديده لها بأنه سينفصل عنها، كان محمود هو المسمار الروحي الذي لو خلعه أبي فسينهد البيت كله من الأساس. يخرج مهرولا من غرفته متسائلا عن سبب بكاء أمي، أو غضب أبي، أو احتضاني الباكي لأمي. عندما نراه، بصمته الساحر هذا، يعود كل شيء إلى ما كان عليه، يندفع الماء للمشهد، يبتسم ابتسامته الواسعة التي لا يبغي منها شيئًا ويوجهها لأبي أو لي أو لأمي أو لميادة، ثم يجلس أمام التلفزيون ويلعب بالريموت بحثا عن إحدى القنوات. ربما كان يعرف كل شيء عن أسباب عذاباتنا التي لا نعرفها نحن.
كان وجود محمود «أميري الصغير» كما كنت أناديه أحيانا، خلال أيام الحبس الانفرادي، يريحني بشدة، أشعر بأن دموعي لا تهدر على الأرض، بل تذهب إلى خلوة ثمينة في قلبه يحتفظ فيها بها، وأن هذه الدموع ستصلني بالبحيرة التي تعيش فيها أمي.

قناع جميل وقناع دميم

كانت لوجهه درجة ملحوظة من الدمامة، سبَّبها ظهور التجاعيد في سن مبكرة، والتي كشفت عن هذا الزمن المتعجل الذي سكن وجهه دون أعضائه الأخرى وحوله لقناع لرجل مسن، ولكن له قلب طفل أناني. حتى إن زميلات ميادة ودولت في المدرسة كن يعتقدن بأنه جدهن وليس أباهن.

ظل الأب يخفي، في صدره، هذا التأثير المهين لهذا القناع الوراثي الذي ورثه عن أبيه، بدون أن تصدر أي شكوى منه. تدليل والده ووالدته وأخواته البنات له؛ بوصفه الذكر الوحيد، وبوصفه صاحب الوجه الدميم؛ أضاف طلاء شفافا لامعا فوق هذا القناع، وهذه الإهانة القدرية، كان كافيا لينوب عنه، الطلاء، في فهم وتفسير هذا القناع. ولكن هذا الطلاء أيضا لم يمنحه القدرة على استمرار زيجته الأولى بعد عودته من دراسة إدارة الأعمال في رومانيا. استمرت لشهور قاربت على العام، كان القناع فيها يتآكل يوما بعد يوم ويزول بريقه ـ ومعه يزول بريق مركز أبيه المالي الذي تحسن كثيرا في ثمانينيات القرن الماضي؛ حيث راجت تجارة استيراد قطع غيار السيارات ـ ويظهر من تحته هذا الوجه الأناني المجعد الذي لم تعد تحتمله زوجته.

مال الأب منذ صغره إلى رياضة الملاكمة، وتقدم فيها وأحرز عدة بطولات على مستوى النادي والمحافظة. حتى في أثناء سفره للدراسة بالخارج، ظل مهتمّا بها حتى عاد وتزوج، فتحولت لهواية جادة يحافظ من خلالها على قوته في تسديد اللكمات الأسبوعية لكيس الرمل؛ حيث يقف وراءه تماما هذا الغريم الذي يمكن أن يظهر في أي لحظة، فيجب أن يكون مستعدّا له.

كان مفعول تأثير صورة الملاكم «محمد علي كلاي» مازال ساريا في الجيل الذي ينتمي إليه الأب. غرق في هذه اللعبة وأحلامها، كانت تمنحه دائما الشعور بالقوة التي تخرج من داخله بدفق قوي، للدم وللحياة معا، يصل لجميع خلايا جسمه، وخصوصًا خلايا الوجه، فتختفي التجاعيد، وتختفي صورته المعتادة عن نفسه، ويعود وجهه أملس كسطح رخام التماثيل، ليستمر الدفق في التقدم حتى يتعدى الوجه، ليصل في النهاية إلى مركز الشخصية، ليسيل عليه ويغمره بسوائل الثقة.

صار هذا البنيان هاجسه الوحيد، لا يعبأ بشيء سوى الحفاظ على صورة الملاكم القوي والرشيق. بنيانه المنحوت منح دمامته فتنة خاصة، جعلها تبدو كنوع من الرجولة الخشنة المحببة للنساء. يقضي حياته ما بين محل قطع الغيار، وقوائم الطعام الصحي، وغير الصحي، والتدريب، ثم الفرجة على أفلام المقاولات، التي أدمنها، وأدمن شرائط الفيديو التي كان يؤجرها من محل الشرائط القريب من سينما نورماندي. تلك الأفلام التي انتشرت في سينما الثمانينيات، والتي تكتظ بنماذج ممسوخة للقوة، بجانب سينما وأفلام جيل الثمانينيات للمخرجين محمد خان وعاطف الطيب وداود عبد السيد، التي لم يعرها اهتماما، والتي كانت تبحث عن نماذج للبطل الهامشي وأحزانه الدفينة.

كانت الملاكمة لعبة مفصَّلة على مقاس الأب بالضبط، تعتمد على وجود غريم دائم يجب أن يقوم بهزيمته فيجعله هذا الغريم متيقظا على الدوام. وجود الغريم من الأشياء التي كانت تحفزه على البقاء، ففي غيابه يضعف ويذبل ولايجد من يمنحه مبررا للاستمرار. غالبته رغبته في امتلاك القوة، بمقدار إحساسه بدمامته وبالزمن المتعجل الذي سكن هذا الوجه مبكرا، وأيضا بمقدار رغبته في نسيان هذه الدمامة. الأخيرة، رغبة النسيان، منحت القوة التي يبغيها جانبها اللامرئي الذي

لايقدر على التحكم في منابعها ومساراتها والقوة الغريزية الكامنة بها. ولكنه في النهاية لم يخض جولات حياتية كبيرة تحت الأضواء والجماهير؛ لكي يستهلك كل هذه الطاقة الكهربائية المتولدة بسبب إحساسه بالقوة الذاتية، فطاشت تلك الطاقة في انفجارات وتحت أضواء جولات حياتية تافهة.
كانت علاقة الأب بدولت ملخصا لصورة من صور القوة، التي خرجت منه وطاشت بعيدا عنه، ولم يعد يتحكم في توجيهها، بل صارت غريما له. حتى هذه النقطة لم تكن هناك أي مشكلة، فقد تعود على ترويض الغرماء، بدون أن يخدش المشاعر المتبادلة بينه وبين دولت، أو يشعرها بأنه يفرض عليها شيئا لاتريده. علاقتهما المميزة كانت تمرر القوة والسلطة في غلاف حريري. ولكنه لم يتحمل أن تفوز عليه دولت وتنفصل عن البيت، وتخلع الحجاب، وتخدش صورة القوة هذه التي حاول أن يصنعها لنفسه بعد عناء معاناته النفسية الطويلة وتعايشه مع تصاريف القدر التي منحته وجها لم يكن يتمناه .
في أحد لقاءات محسن ودولت، بينما هما جالسان على العشب في حديقة الأزهر، سقطت ريشة لطائر على رأس دولت، لم تشعر بها لخفتها، فامتدت يد محسن لالتقاطها من فوق شعرها، فرفعت دولت يديها فجأة وأخذت وضع الملاكم الذي يحمي وجهه من ضربات قادمة.
لقد بهره جمال دولت، وجعله يخرّ ساجدا شاكرا الله أن منحه ابنة بهذا الجمال. كان يتوق لأن يكون قريبا من هذا الجمال والكبرياء الأرستقراطيين اللذين تتمتع بهما دولت. حققت له كل ما كان يطمح إليه في فتاة أحلامه. بعكس ميادة التي كان يراها شبيهة بأمها وبعائلتها، متوسطة الجمال بل عاديته. لا يرضى إلا بجمال قياسي غير قابل لأن ينقضه، أو يشكك فيه، أحد. لم تكن دولت جميلة بهذا القدر، ولكنه كان يراها بعين دمامته.
دخلت المثالية، وحبه لدولت، قلب الأب عن طريق ثنائية الجمال ـ الدمامة. وضع دمامته في الحد الأدنى، ووضع جمال دولت في الحد الأقصى للجمال. كان لا بد ألا يفترق القطبان مهما حدث، ولكن هيهات فالأقطاب خلقت أصلا لتفترق وتتصارع. كان الأب يشعر بدونيته أمام ابنته. فلم يكن أمامه بُدّ من أن يحبها كمثال ونموذج أكثر منها ابنة؛ كي لا يشعر بالخزي أمام دونيته وضعفه ودمامته. ولكن جمالها أيضا كان يثير فيه غيرة وتحديا لقوته، فأحب ابنته حبّا غريبا، مزيجا من خوف الأب على ابنته المفضلة ومنافسته لها، وأيضا غيرته الشديدة على هذه التحفة التي لا يريد لأحد أن يقترب منها، أو يلمسها.
كانت دولت ابنة وحبيبة وغريمة. لا يعرف بالضبط لماذا يضعف أمامها، فقد كانت تحركه بأكثر من خيط وهبتها لها الطبيعة، لتحصل على ما تريد، بجانب احترافيتها منذ صغرها في حرفة اختلاق الأكاذيب؛ لتمشِّي بها حالها في حال العطل المؤقت الذي يصيب جهاز تأثيرها على أبيها، سواء قبل وفاة أمها أو بعدها.
في أثناء حياة الأم انقسم البيت لحزبين قائمين على تصنيف الجمال؛ دولت الجميلة وأبيها الدميم في حزب، مقابل أمها وأختها متوسطتي، بل عاديتي الجمال، في الحزب الآخر. حزب الأب كان فائزا باستمرار لاحتكاره نموذج الجمال المثالي المتمثل في دولت.
منح الأب دولت الثقة في أن تشعر بقوتها مبكرا، وغذى فيها حس التعالي، وأخذ يبني، واحدة واحدة، في تمثال فتاة أحلامه المفقود منذ شبابه. لم يكن يعلم بأن هذا التمثال محشو بالرمل. وضع على عمرها الصغير قناعا يفوق عمرها، ولكنها رضيت بأن تعيش فيه، حتى وفاة أمها، عندها

انفصل القناع عن وجهها، مثل قشرة متجمدة من الدماء انفصلت عن جرح قد التأم. هذا الحب المخلوط بالمرض والغيرة، الذي منحه الأب لدولت، جعل منها غريمته المستقبلية، فجهز لها اللكمات والعنف اللذيْن كان يجهزهما لأي غريم قادم، وهو ما حدث عندما بدأت تحب آخرين مع بداية الثورة، التي رأي فيها عدوّا شخصيّا له، ويود لو يسدد اللكمات لكل هؤلاء الذين يحتشدون في الميادين مطالبين بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية.

أقنعة وخفافيش

في إحدى المرات أعطتني ميعادا في أحد مطاعم الزمالك على بعد شارعين من البيت الذي تستأجر غرفة فيه مع مجموعة من الفتيات المصريات والأجنبيات. وصلت مبكرا قليلا، بعد خروجي من الجريدة، فآويت إلى تكييف المطعم هربا من حرارة الشارع. وجدتها هناك، وأمام المقعد المتوقع أن أجلس عليه، بعد خمس عشرة دقيقة، طبق به قطعة «تشيز كيك» وفنجان كابتشينو دافئ، كالزوجة التي تحدس بموعد قدوم زوجها فتنتظره مبكرا، بكوب العصير، على الباب. بدا عليها الارتباك قليلا، ولكن كان لها أيضا قوة في طمس أي أثر للارتباك.

شعرت بأني جئت وجلست مكان شخص آخر كان يجلس في نفس المكان، ومقعده ما زال دافئا، وربما ترك ما طلبه وهرب من الباب الخلفي. كان هذا «الشبح» موجودا معنا طوال الجلسة التي لم أشعر فيها بالراحة، وبالتأكيد لم يكن مصعب حبيبها. كان هذا الشبح يتنقل كثيرا بيننا. ما منعني من سؤال الجرسون، عن حقيقة وساوسي، ليس حفاظا على كرامتي المسنة، بل خوفي من أن يقل شغفي بها عندما أكتشف الحقيقة، أو أصدم عندما أكتشف حقيقة وساوسي! بدأت أتورط قليلا قليلا في محاسبتها، والانتقال بالعلاقة لمصاف الندية الكاملة حتى في الغيرة.

مشكلة القناع أنه يخفي سر الذات وشفرتها معا، يصبح هو نفسه السر الذي لا بوح بعده، ولا آخر له. كانت تتعامل بعدة أقنعة، وبالمناسبة كانت كلها صادقة في رأيي، وأيضا كلها كاذبة، كأن لامركز لهذه الذات يثبت صدق أو كذب القناع. هناك ارتجال لحظي لردود أفعالها لايمر على العقل. لقد تحور هذا المركز واتسع ليسع هذه الصور الجديدة ويمنح لكل قناع استقلاله وحرارة صدقه.

لم أجد عندي الرغبة البوليسية في التحري وراء أي واقعة تحكيها لي أو أمر بها، مهما كانت غرابتها، ولا أتعقب دليلا مهما كان ثمينا وواضحا؛ سعيا وراء فهم هذه الشخصية، فلم أكن أريد أن أكتشف سرّا. فأي علاقة لايمكن تلخيصها فقط في اكتشاف السر. كنت أعيش، في علاقتي معها، داخل ثنيات هذه الأقنعة بعضها البعض، أصدق هذا القناع في وقت، ثم أنتقل لغيره في وقت آخر، وهكذا تتوالد العديد من التفسيرات المتضادة، تصنع شبكة في غاية التعقيد، وجدتها في النهاية ملفوفة حولي.

كانت تحب سِيَر المنتحرين في العالم، من الفنانين والكتاب والثوريين، الذين يمثلون لها قمة الصدق مع أنفسهم ومع الحياة، وجمعت لهم أرشيفا كبيرا. ربما عاشت أحداث الثورة بقوة وشغف هذا الحب القديم. كنت أراها تتقمص أحيانا روح إحداهن. بدأت أشعر بخوف شديد عليها. ربما هذا الحب، الذي من طرف واحد؛ لأن طرفه الآخر ميت، هو الذي سيغفر لها كل الكذبات الصغيرة التي تنثرها في طريقها وتزيد بها من غموض وضبابية نفسها، وسيمحو أي ذنب ستقترفه في المستقبل؛ فهو بمثابة وديعة ثابتة في بنك الموت.

بدأت أقرأ في مصير هؤلاء «مصاصي الدماء الذاتيين»، الذين تنتمي إليهم دولت، ولايستريحون إلا والدماء تنزف من مكان ما؛ حقيقي أم مجازي، مأساة، جرح، ألم، ضعف. تكوَّنت لديَّ صورة مستقبلية في غاية القتامة لمصيرها. بدأ ينجلي بوضوح القناع الباكي الذي كانت تخفيه تحت القناع العدمي الضاحك. بدأت تكشف لي رويدا رويدا، كأنها تقطر السم نقطة نقطة، عن ذاتها المحبة للدماء، ومحاولتها لجرح نفسها وإحداث عدة خدوش في يدها وقدمها وأيضا في كل أفكارها التي

تؤمن بها. كانت عبارة عن كتلة من جروح، سببها آخرون وظروف غير مواتية، تنزف باستمرار. تذكرت على الفور تلك الندبة التي لحظتها يوم توقيع روايتي على ظهر ساعدها. بدأت ترمي لي فكرتها بأنها يمكن أن تنتحر. ربما كان هذا الإحساس العدمي هو الذي كان يشعرها بندية معي، وربما كذلك كانت تريد أن تستبقيني بجانبها، تحت ضغط هذا الموت المؤجل.
كانت أحداث الثورة وسهولة الموت فيها، وأحيانا مجانيته، بجانب خيانات مصعب حبيبها، كلها تجعل كلامها مصدقا بالنسبة إليَّ، ولايقبل الشك بسبب قدر البراءة الذي تتحدث به وتبكي به وترفض به الحياة وهذا العالم الزائف الذي نعيش فيه جميعا. ولكني تعودت على فرملة تعاطفي مع هذا الجانب الدموي في شخصيتها؛ لإحساسي باستغلالها لي، وبأنها تتلاعب بانتحارها المحتمل هذا. خوفي عليها دخل في منعطف خطر وبدأت أسبب لها الكثير من الخدوش الروحية بدون أن أدري.
كانت تلمس الكثير من الأشياء والمشاعر بإحساس المرة الأولى. إحساس طفولي بريء ظل ملازما لها في نظرتها لكل شيء، حتى نظرتها للانتحار الذي تراه مثل ثمرة جوز هند تحتفظ داخلها بالعصير. كانت تدهشني هذه البراءة، وتزيد من قدر تعلقي بها، كأني أقف أمام قطعة خام من الطبيعة تمَّ اكتشافها حديثا. تقف طويلا أمام الأشياء المعتادة، لاتعرف كيف تفك شفرتها، كما تفك شفرة كل الأشياء غير المعتادة التي كانت تجذبها لخيالها، وتتلاعب بها، وتخنقها حتى تصرِّح لها بسرها البعيد. كان جهادها في كل سنواتها الماضية، لا لكي تكتسب الخبرة؛ ولكن لتدافع عن نفسها ضد الفقاعة التي تعيش فيها. ولكي تدافع عن هذه الفقاعة، زادت الفقاعة ثخانة، وزادت مساحة الكذب في حياتها، وزادت معها الأقنعة التي تلبسها. كل هذه المناورات كانت تحدث بعيدا عن القلب، الذي ما زال سليما، لم يلبس بعد أي أقنعة.
كانت الفقاعة تشكل لها الملاذ الآمن. تخرج منها كخفاش عندما يشم رائحة دفء إنساني عن بعد ليلتصق به. شعرتُ في البداية بأن الثورة قد أخرجتها من هذه الفقاعة. لم أكن على صواب، فهذه الجموع، بعد الأيام الأولى للثورة، التي قضتها محبوسة في البيت؛ لم تكن واضحة ولاتعد بشيء، كانت خليطا عشوائيّا لا جسد ولا قلب له، والسير معه قد ينقل لها الإحساس الجماعي بوجهه القهري وليس الحميمي.
كنت أرى في نفسي هذا الخفاش أيضا الذي يسعى تجاه الدفء، بل كنت أكثر من خفاش في وقت واحد يمتص دفئا طازجا لعدة أقنعة لها: واحد يقف على باب جسدها بكل انتفاضاته الطبيعية وجاذبيته ولمعانه، وثانٍ يقف على باب روحها التي تشكو وتئن بشكل مرهف، وثالث يقف على باب خيالها الذي كان ينفتح في لقاءاتنا، وألهث في اللحاق بهذه الأرض الواسعة التي تتجول فيها بشاعرية وفي مدنها المبهرة المتلألئة التي تعرضها أمامي. ورابع يقف على باب ذكرياتها، والتي برغم بساطتها فقد كانت تحكيها بشكل محكم، تعرف تماما اللقطة التي يجب أن تفرد لها مساحة واستدعاء. كنت أستمتع تماما بحضوري بجانب هذه الروح الحكاءة. داخل بهو هذه الذات مررت بين مقصلتين كان يجب أن أتفاداهما.
كانت روحا نافرة لأقصى درجة، نفور برّي حيواني مصدره خوف مجهول المصدر. ترفض أن تخضع لأي سلطة، من أي طرف أيًّا كان. دائما كنا نتعارك حول هذه النقطة، فهذا الرفض ضد السلطة، في نظري، هو أحد أمراض السلطة. تروّج، السلطة، لمرضها حتى تعدي كل من يقف ضدها. كانت تتهمني بالاستسلام، وبالخوف أحيانا. ولكنها لم تكن ترى تناقضا في عملها داخل

مؤسسات المجتمع المدني، التي تحولت إلى جزيرة آمنة، وسط بحر من الصراخ والفقر والفوضى، يسعى إليها الشباب الثوري. كان يؤلمني هذا الاتهام الذي توجهه لي. قلت لها، ردًّا على هذا الاتهام، بعين على وشك البكاء: «نعم، استسلمت ولكن لم أفقد احترامي لنفسي».

كل فنون الحب كانت
تتلخص في هذا العناق

كان تعانقه عناقا جارفا، كمن يقذف بجسده بقوة ويود منه ألا يعود إليه مرة أخرى، كأنها تستودعه هذا الجسد أمانة عنده لفترة مشبعة من الوقت، قبل أن تسترده مضافا إليه هذا الطيف المسن من الحنان الذي تجده داخل صدره. لو قابلته صدفة وسط الجموع، وبالرغم من أنها تعرف بأنها ستراه، فإنها تعانقه العناق القوي نفسه، في كل مرة، كأنها مفاجأة المرة الأولى. لذة العناق، والعودة بالعمر لهذه المفاجآت السارة كانا أقوى من أي خجل يشعر به وسط الجموع، التي غالبا لم تكن تنظر إليه. عندما يلتحم صدره بثدييها الصغيرين اللينين، كأنه هو الذي نبت له ثديان في التو واللحظة.

كانت شوارع الثورة ميعادا مفتوحا لكل المواعيد المؤجلة. كان يشعر بحضورها على بعد شوارع، يرى أشباها لها، فتيات بشعور منكوشة، وبحقائب ظهر أنيقة، وبأحذية رياضية شهيرة، وبسحائب الدخان الأزرق تسير أينما يسرن، وبقفزات في الهواء، كأنهن لاعبات باليه، يأكلن بها الشوارع ليلحقن تلك المواعيد المؤجلة. يعلم بأنها موجودة داخل هذا المجال المشحون الذي يعبر به في وسط البلد في طريقه للجريدة. لا يخيب ظنه، ويجد من تخرج من وسط هذه الجموع التي تراه وتقفز داخل صدره.

كل فنون الحب كانت تتلخص في هذا العناق. اتفقا بدون كلام أو تصريح على هذا الشكل من الحب، عوضا عن أي أحاسيس أخرى. أصبح هذا العناق مزرعة الحيوانات التي يرعيان فيها النهيق الصامت والخوار الأجوف لكل الرغبات المكبوتة والمنسية والمستبعدة. اتفقا، بدون تصريح أيضا، أن لا تتجاوز علاقتهما علاقة أب بابنته، التي نضجت بعيدا عنه في بلد آخر، إثر عودتها من سفرها الطويل. ظلت مسافرة طوال سنوات العلاقة الثلاث، وظل استقباله لها حارّا، وظلت لهفتها لا تفتر أبدا للقاء هذا الأب الغائب.

شبَّه كاتبنا عناقهما بلوحة «العناق» للفنان النمساوي الدنجوان، وعشيق النساء اللاتي قام برسمهن، جوستاف كليمت (١٨٦٢ – ١٩١٨). كان يحب أعمال هذا الفنان، الذي يجمع في لوحاته بين التجريد الصوفي في أشكاله الزخرفية وألوانها وخطوطها المنحنية اللينة، وبين الشهوانية التي تظهر في موضوعات لوحاته. في هذه اللوحة يصور الفنان جسدين، لرجل وامرأة، في لحظة عناق جارف. لا يظهر من المرأة إلا وجهها الصغير أعلى الكتف اليسرى للرجل، بينما يداها تخرجان من تحت إبطيه وتحوطان ظهره، كأنها تتعلق به؛ حتى لا يختل توازنها بسبب الهزة القوية التي يسببها العناق الجارف. لا يظهر من الرجل إلا جسده من الخلف، ووجهه منحنٍ تماما على كتف المرأة اليسرى. الجسدان لهما هيبة واستطالة وصرحية، ولكن جسد الرجل مهيمن، يحتوي المرأة وجسدها تماما داخل جسده وردائه اللذين يغطيان تماما على جسدِها وردائها. كأن جسد الرجل، في اللوحة، ينوب عن الجسدين معا. ربما كان كليمت يقصد حكاية ميلاد حواء من جسد آدم. لتخرج حواء، بعد هذا العناق، مولودا جديدا.

لم يعجب هذا التفسير دولت، ورأت أن الطريقة التي صور بها كليمت المرأة، برأسها الطافي والناظرة لأعلى، دليل على أنها كانت تسيطر على لحظة العناق، بعكس رأس الرجل المدفون في كتفها، كأنه وليدها وليس خالقها.

عرف بأنه يحبها، ولم يرهقه أن يفسر كنه هذا الحب، أو يقارنه بحبه لزوجته. كان يعرف بأنه يسير في شارع جانبي للحب، يوازي الشارع الكبير، غير معبد، وليست به إضاءات، ولن يفضي إلى شيء. كانا يجوبان أحياء القاهرة القديمة تحت جناح الجموع التي تهتف في كل مكان بسقوط النظام، وسط هذه اللحظات أتيحت الفرصة ببذخ لتسقط أنظمة أخرى من فوارق العمر والحب والتحريم. ولم يجد أي ضير في أن يسير في هذا الشارع الجانبي، غير المعبد، من الحب مع حبيبته الصغيرة، يدا بيد، بينما الجموع تسير في شارع رئيسي تنادي: «الشعب يريد إسقاط النظام».

داخل هذا الشارع الجانبي للحب سيقابل «محسن الحكيم» حيوانات أحلامه وسيسمع خوار ثيرانها ونهيق حميرها، وأصوات كل رغباته المدفونة. يتذكر ذلك اليوم جيدا عندما عادت دولت من استقبال قطار الألتراس القادم من بورسعيد ملآن بالجثث، ورجته أن يأتي إليها في غرفتها، وأكدت له أن جميع من بالشقة مسافرون بسبب الأحداث. انتظرته أسفل أمام باب العمارة. رآها وهو يقترب بالعربة كتمثال شمعي. كانت تصعد السلم بروح خاوية محشوة فقط بالبكاء. بمجرد أن انسلا للداخل، بكت على ذراعه، ودخلا في عناق باكٍ، تحول بعدها، من ناحيته، إلى نهيق صامت.

من قوة حزنها على الموتى، لم تلحظ انتصابه. شعر بالخجل من نفسه، أن هذا القدر الجارف من الحزن قد دغدغ رغبته، تراجع للخلف، وأخرج نفسه من بين ذراعيها، بدون أن تشعر، وبدون أن يثير ريبتها. ربما كان داخل هذا الحزن، أيضا، دعوة ضلت عنوانها ووصلت إليه بدلا من أن تصل لمصعب حبيبها. كان يشك دائما، بأن وسط هذه الرسائل التي أساء فهمها من دولت وتراجع بسببها للخلف في اللحظة الأخيرة، كانت بينها على الأقل رسالة أو رسالتان، بهما دعوة صريحة غير محسوبة ولكنه تجاهلهما، ومنها هذه الدعوة المعلق بها شارة حداد في هذا اليوم الأسود. برغم هذا، كانا يتبادلان مساحات واسعة وغامضة من الشبق الممزوج بالشغف، جعلت لحظات العناق جاذبة لكليهما.

كان زمنا ثوريّا سائلا سمح لها بأن تمتلك وجهين غير متعارضين للحب، وربما أكثر، تحب محسن حبّا استثنائيّا بريئا مخلوطا برغبات مكبوتة، وتعيش حياة الأزواج مع مصعب حبيبها، وربما تدوس بقدميها على دعوات وإغواءات كثيرة في الطريق، رماها عشاق كثيرون خرجوا من المظاهرات وهم يشعرون بالجوع للنساء.

كتبتْ على جدار صفحتها في مدونة «التمبلر»، بأنها بعد كل مظاهرة، كانت رغبتها تشتد لمصعب حبيبها، فتناديه، حتى ولو كان بعيدا، لتجده أمامها واقفا على بابها، أو يخرج من وسط الحشود المنغمس فيها. كانت تسير منومة في صحراء الحب، تنفذ أوامره ومخاطره المشفرة داخل جسدها، دون أن تستمع لصوت أي شيء آخر. كانت تثق في الحب أنه سينجيها. كانت تتحرك برغبة امرأة أرادت أن تستطعم بالحياة بدون أي حواجز أو مقدسات بعد سنوات طويلة مُرَّة عاشتها مع مرض والدتها ثم وفاتها، وسفر «ميادة» شقيقتها، ثم تسلط أبيها وقيامه بحبسها في البيت في أثناء الأيام الأولى للثورة. كل هذا كان يكبّر إحساس السجن في نفسها، ويقوى معه صوت الصراخ الداخلي المكتوم.

قوَّت الثورة هذا الاتصال اللامرئي بينها وبين مصعب حبيبها، الذي يتم بالنية المحضة وقوة الرائحة، مثلما كان يشم الذكر قديما رائحة أنثاه عن بعد في الغابة، أو تشم الأنثى رائحة ذكرها كما

في حالة دولت. تجده بجانبها فجأة في الشارع بدون موعد، المظاهرة هي الموعد. يتوقفان، تعبر من حولهما صفوف المتظاهرين، حتى يجدا نفسيهما في فراغ المدينة شديد القسوة والبرودة، ينسلان مبتعدين إلى السرير في غرفتها، في شقة الزمالك الجماعية، ساحبين في ركبهما نهايات الهتافات والأصداء.

« فشخ... فشخ... فشخ»، كتبت تمتدح مذاق العلاقة الجنسية مع مصعب حبيبها، بعد الخروج مباشرة من المظاهرات، وأصوات الجماهير ما زالت تدوي بين جسديهما، وتصل بالرغبة إلى أعلى القمم. بينما كاتبنا كان يقف على الناحية الأخرى من جدار صفحتها في مدونة «التمبلر»، يتجسس عليها، ويعض إصبعه ندما.

كتابة على حائط «التمبلر»

«النهارده زرنا المتحف القبطي في مصر القديمة. كلمني عنه قبل كده كتير، «عن الضوء القبطي القديم الذي عاشت فيه الديانة وحافظت على نفسها»، ده كلامه، ودي الطريقة اللي كان بيشوف بيها الديانة المسيحية، عن طريق الضوء!

أخدنا المترو لمحطة مار جرجس. كان عنده شغل جنب المتحف، في حي صغير، كل اللي ساكنين فيه مسيحيين. كان بيعمل موضوع حوالين علاقة الأقباط بالثورة وتأثيرها عليهم. كلهم ناس على أد حالهم، ستات ورجالة وشباب. الحي شكله أليف جدًّا، الزقايق الملتوية اللي بتسلم لبعض، واللي تحسسك إنك ماشي في متاهة، ومجموعة الكنايس اللي عدت عليها العائلة المقدسة لما جم يستخبوا في مصر. ريحة البخور ماسبتناش من أول مادخلنا الحي، وفضلت ماسكة في هدومنا لحد ماخرجنا وروَّحنا بيوتنا.

قعدت أتفرج عليه من بعيد والناس ملفوفين حواليه، وهو بيسألهم. كل اللي قابلناهم كانوا بيفتكروني كالعادة بنته، وده شعور كان مريحني جدًّا، خلاني أبص من بعيد على علاقتي بيه، وأشوف فيها الجزء المضيء ده، اللي عمره ماهيتأثر بأي حاجة.

بعدها رحنا على المتحف. ماكانش فيه ناس كتير. أول مرة كنت أزوره، وأشوف التاريخ القبطي بالوضوح ده. كنت بلْمس معاه روح البلد. يمكن وجوده نفسه كان بيحسسني بالروح دي.

أول مادخلنا من بوابة المتحف كأننا اتنقلنا لعصر تاني، حسيت باختلاف الضوء، كل ماندخل جوه أكتر الضوء بيقل. الإحساس بالضوء ده والعتمة الرحبة اللي متصمم المتحف عشان يبرزها خلاني عايزه أعترف له بكل حاجة. ماكنتش عارفة عايزة أعترف بإيه بالضبط، كياني كله كان عايز يعترف. بكيت وإحنا قاعدين وضهرنا لمشربية، كان الضوء اللي جاي منها بيعدي في أجسامنا ويرمي بضلنا على الأرض. شميت ريحة عرقه وهي دايبة في ريحة البخور.

المشربيات الأرابيسك والسقوف الملونة والمنحوتة وشبابيك الإزاز المعشق بتخلق جو روحاني موجود في كل الديانات والأماكن الأثرية. أول مادخلنا من باب المتحف، كان فيه على شمالنا مكان مفتوح مكتوب عليه «فناء»، كان فيه شوية نخل وأعمدة، افتكرت إنها جنينة، فشاورت له إنه يحصلني جوه، وقبل مايطلع صوته ويحذرني، ماشفتش غير عينه اللي بتبرَّق، كنت دخلت في الإزاز اللي ماكنتش شايفاه خالص وكان مغطي واجهة المدخل كلها. ضحك طبعا، الخبطة كانت خفيفة، شدني قبل ما آخد الإزاز كله في وشي.

إتكسفت من نفسي، بس فاكس يعني. ماحدش كان موجود غيره. الراجل بتاع الأمن اللي كان واقف على باب الدخول سمع الصوت وجرى علينا، يمكن افتكرنا بنكسر حاجة ولا حاجة وقعت. الراجل ده وإحنا داخلين بص لنا بصة غريبة شوية، ولما شاف إننا بنتفرج على كل حتة وبناخد وقت طويل قدامها، نبهنا إن المتحف كبير أوي، وهما هيقفلوا على الساعة أربعة ونص.

لفتت نظري لوحة عبارة عن صورة نصفية للمسيح، وعلى راسه إكليل نوراني كله صلبان وزهور، وعلى الجانبين ملاكين شايلين المسيح. المسيح دايما فيه حد بيشيله، إما ملايكة أو صليب. أول ماطلعنا السلم للدور التاني، لقينا مشربية كبيرة على شمالنا قعدنا نكرر لعبة الضوء مع المشربية زي مشربية الدور الأول. قدامنا كان فيه فاترينة جواها ٣ موديلات لفساتين، وجزم جلد ببوز مرفوع، شبه جزمة السندباد، اللي كانت بتلبسها الستات زمان.

وقفنا قدام لوحة كبيرة في فاترينة إزاز، مرسوم عليها آدم وحواء قبل «الخطيَّة» وبعد الخطية. المسافة الصغيرة بينهم في اللوحة هي المسافة بين السما والأرض، والمسافة بين النعيم والجحيم. طبعا في الصورة الأولى كانوا واقفين بثقة وبكبرياء وهما عريانين، والتانية الاتنين حاطين ورق التين مكان العورة، وشكلهم مكسوفين بعد ارتكابهم للخطية. حسيت وهو واقف جنبي، بنتفرج على اللوحة، إن جسمه بيوصَّلي رسالة من تحت لتحت.

عدينا بممر ضيق نازل لمستوى تاني، بيفصل بين عصرين. كان فيه يافطة مكتوب عليها «العصر القبطي الحديث»، عدينا على أوضة فيها شباك مفتوح بيطل على جنينة المتحف. أول مرة أحس بإحساس الهوا الطبيعي جوه المتحف، من غير تكييف. كان فيه اتنين ستات من المشرفات قاعدين قدام الشباك؛ واحدة ضهرها لينا والهوا بيطيَّر طرحتها؛ والتانية واقفة بجنبها بتكلمها وبتطرقع باللبان.

مرة واحدة لقيت البنت اللي واقفة بتوطِّي بسرعة، وعصفورتين داخلين زي الصاروخ من الشباك، عدوا من فوقيها، اتخبط الأولاني بفاترينة إزاز كان محفوظ فيها إنجيل أثري ومحفور على الإزاز كتابات وحروف. من شدة الصدمة وقعت العصفورة على الأرض، شفت نقطة دم بتسيل على الإزاز الشفاف فوق الحروف المحفورة. أخدت العصفور في إيدي، ولفيت جسمه بطرف الشال. الموقف ده فكرني بقاعة المحاضرات في الكلية، كان فيه شباك إزاز عالي، كانت دايما العصافير بتخبط فيه وتقع. اتملا الشباك بنقط دم كتير. الممر اللي بيطل عليه الشباك، كنا بنسميه «مقبرة العصافير».

شجرة العيون

كانا يقفان خلف السياج الحديدي لقلعة محمد علي، ينظران بعين الطائر للقاهرة، أو يتسلقان منبر جامع ابن طولون القديم، ويصعدان لأعلى نقطة فيه، أو يجلسان داخل صحن مسجد محمد علي تحت قبابه المزخرفة من الداخل والنجفة الدائرية العملاقة. في تلك الأماكن المرتفعة التي لا تنتمي إلى الأرض أو للسماء، كانا يجدان خيط الكلام منسابا وشجيّا وضاحكا، يختفي فارق العمر، وتختفي الثورة من شوارع القاهرة، التي ينظران إليها من أعلى.

جلوسها بجواره كان يجذب نوعا من العيون المبحلقة، والحاسدة، والساخرة. وأيضا جلوسه بجوارها بدأ يجذب نوعا من العيون الطامعة في عمرها. في إحدى المرات، مدح صاحب أحد المقاهي في شبرا في «ابنته» الجميلة، عندما صحبته لهناك لتريه بيتيْ عائلة أبيها وأمها القديمين؛ وعندما قال لصاحب المقهى بأنها ليست ابنته بل «صديقته»، لم يفهم هذا المعنى، وفسره بشيء واحد فقط، وعاد بعدها بدقائق ليعرض عليه إحدى الشقق المجاورة للمقهى، ليستريح فيها هو و«صديقته» من عناء حر أغسطس، وسيجد هناك ثلاجة عامرة بالمياة المثلجة وبعض المرطبات والعصائر الطازجة!

لا ينسى أبدا سخرية مجموعة من البنات الريفيات على محطة مصر. كن ينتظرن في الكافتيريا قطار الأقاليم، وكان كاتبنا جالسا مع دولت، قبل سفره في مهمة صحفية للإسكندرية. كان يأمن أكثر للقائها داخل هذه الأماكن المسافرة، التي تبعد عن الحياة اليومية بكل رتابتها وروتينها وأفكارها التقليدية. حتى في مظاهرات الثورة فقد كانت الجموع مسافرة، والقاهرة نفسها مسافرة. ظلت الفتيات يضحكن في أكمامهن ويتهامسن بشكل متعمد؛ حتى يلفتن نظر هذا «العجوز المتصابي» لجريمته، بالزواج بصبية في عمر ابنته، ثم يرحل بها للخليج ليمتص رحيق عمرها البض.

في ذلك المقهى الصغير في إحدى حواري حي الحسين، الذي كان يرتاده الأديب جمال الغيطاني، واتخذه كاتبنا ودولت محطة لهما داخل هذا الحي العتيق، يتناولان فيها سندوتشات الغداء. كان المقهى معتادا على استقبال هذه النماذج المختلفة من محبي الأدب والكتابة والفن. داخل الامتداد الترابي لهذا المقهى، يأخذان ترابيزة بعيدة نوعا ما عن باقي الزبائن. عندها تقترح عليه دولت «لعبة الأسئلة». تبدأ اللعبة بسؤال أحدهما للآخر، عن أي شيء، وعلى الآخر أن يجيب مهما كان السؤال صعبا أو جارحا. يتفرع هذا السؤال ويتكاثر ويتحول إلى شجرة تغطي العمر وأدق أدق أسراره. لم ينجوَا من بحلقة صاحب المقهى الثخين ذي الجلباب البلدي المخطط، ولا من تنصت أخيه الذي يعاني من تخلف عقلي واضح، فبعد أن يضع أمامها الطلبات يقف لدقيقة ليبحلق بصمت أبله في وجه دولت، بينما يخبط بصينية الطلبات الألمنيم على مؤخرته.

كان هناك شيء لافت فيهما يجعلهما باستمرار كأنهما يتحركان على خشبة مسرح. لايعبر سيرهما أو جلوسهما معا عن شكل اجتماعي مألوف، كأنه تفاعل لم يكتمل ولم يفصح بعد عن مُركَّبه الجديد.

في البداية لم يكن «محسن الحكيم» يولي تلك العيون أي اهتمام، يكفيه ثقته في نظرته لنفسه ولعمره. ولكن مع تكرار اقتراب هذه العيون المتلصصة على السطح الشفاف للفقاعة التي يجلسان بداخلها وطرقها عليها بقوة؛ بدأ وجودها يستثير فيه علاقة سادية مع عمره، يريد أن يؤذي هذا

العمر الذي أفلت منه، وأصبح محاصرا داخل أشكال محددة. كانت هذه العيون مزروعة، في الأصل، بداخله على تلك الشجرة الكبيرة، التي تشبه شجرة العائلة، والتي طرحت هذه العيون التي راقبت مسيرة حياته حتى الخمسين، ووقفت حائلا بينه وبين الكثير من المتع الشخصية.
كان الماضي في تلك اللحظة يتدفق في هدوء وفي المكان الصحيح، في صورة هذه الفتاة. كانت تشبه النهر الذي يتحرك من الماضي للمستقبل، والذي يجب أن يفتح صدره له وإلا لا معنى للتجربة. كان يعرف بأنها علاقة استثنائية عبرت بصعوبة من ثقب ضيق في هذا الماضي ووصلت إليه، علاقة يحكمها الشغف ولا تسعها تلك المفردات التقليدية: صداقة، حب، بنوة، أبوة. ربما هذه التعريفات هي ما تمنح العلاقات عمرها الطويل؛ لأنها تمنحها الحماية والغطاء اللذيْن تعيش تحتها. أما علاقتهما غير المصنفة في هذا القاموس الاجتماعي، فعمرها قصير، وقوتها كقوة رائحة الزهور وهي تودع الحياة عند قطفها، علاقة مقطوفة من إحدى الحدائق المنسية للكون، ومنتهية قبل أن تبدأ.
كانت دولت حريصة على أن تلتقط له صورا وتسجل له مقاطع فيديو، كأنها تحضر فيلما عنه من اللحظة الأولى للقائهما، عن تلك العلاقة التي مضت، وتجسد بالكاميرا لحظة افتراقهما، قبل أن تأتي. لم تؤمن ولو لحظة بالعلاقة، ولم تنسَ مهمتها، أو تلعب بها الذاكرة كما لعبت بمحسن وجسدت له الماضي في صورة هذه الفتاة. رأت فيه مستقبلها الذي سيغيب فيه. بينما هو يفتح ذراعيه لنهر الماضي، كانت هي تفتح ذراعها لنهر المستقبل، بينما كان الحاضر، بينهما، فارغا، بلا أذرع وشديد اليبوسة.
كلما قربت عدسة الكاميرا من وجهه، شعر عندها بأنه ميت ورأسه يتناسخ عبر نيجاتيفات عديدة لتصل في النهاية لصورة قديمة ينظر إليها أحد رواد المستقبل. كان هناك زمن مستقبلي يجري بينهما. كان ميتا في خيالها، شبحا، لا تريد منه سوى الذكريات. وربما أيضا كانت هي ميتة أيضا في خيالها نفسه وتتعامل مع نفسها كأنها شبح في طور التحول. اثنان من الموتى التقيا في زمنين مختلفين.
كان تعلُّق دولت وشغفها بمحسن الحكيم وحشييْن لا يقبلان التأجيل. وأيضا نفورها منه كان وحشيًّا ولا يقبل التأجيل. كانت علاقتهما أحد الإيقاعات المتناقضة التي تحفظ لتيار الزمن تألقه وحيويته كونها تقلب وتخلط الماضي والمستقبل وتعيد الالتحام بينهما. الاثنان كانا ينثران الحَبَّ وراءهما؛ كي يسير عليه طائرهما، ليقابلهما في نهاية الطريق.

هرم الحب المقلوب

كنت أهرب باستمرار من مواجهة هذه الحقيقة المُرَّة: أن مصعب كان متعلقا بي بدون حب، مثل تعلقه بأمه، مثل تعلق أي ثوري مغترب بحضن امرأة مجهولة في الليل. يريد أن يلهو ويلعب في تلك المساحة المكشوفة من الجسد التي أتاحتها الثورة، وأيضا تلك الغرف المتعجلة قليلة الأثاث والجاهزة لممارسة جنس متعجل غير مشبع. من الصعب تحت طوفان هذه الموجات أن يخرج رأسك ويرى الحقيقة من خارج عنف الموجة وما تحمله داخلها من توترات أعماق البحر. كنا سابحين على لوح خشب تهشم من سفينة الثورة، وبدون أن ندري بأن السفينة تهشمت. في أثناء السنوات الثلاث الأولى، كان برد الليل يتضاعف، تحوطه ثلوج الموت من كل جانب. بالتأكيد صادف مصعب فتيات كثيرات بادلنه الحب في هذه الغرف المرتجلة، ولكني متأكدة من أنني الوحيدة التي فتحت له جسمي كله كحضن يحتويه. والوحيدة التي كان يمكن لها أن تتحمل خياناته؛ لأن في ظلام علاقتهما يلمع هذا الحبل السري.

كانت مهارة المراوغة، وأحيانا الكذب، كامنة في كل تصرفاته. ألاحظها وأتغاضى عنها، كان هناك شيء يمسح باستمرار أي غلطة أو شك يثيره في نفسي؛ ربما لأنني أيضا كنت أراوغ الحياة، وأكذب، وأحمِّل نفسي فوق ما تستطيع؛ لنبدو في نظر أنفسنا أبطالا نغفر لأبطال مثلنا.

كان الخجل والالتواء والمراوغة نفسها، يسم أيضا علاقاته وصداقاته الحزبية، ولكن يؤديها ببشاشة وبنفس غير يائسة أمامها الكثير لتفعله. لم أشك لحظة في نقاء ثوريته كما لم أشك لحظة في أنانيته. كان يحافظ على خيط وهمي لا يجعله يخسر أحدا. هذا التناقض المريب كان معتادا من الجميع داخل «حزب الثورة الكبير»، لا مكان للحساب ولكنَّ هناك مكانًا صغيرًا لتمرير سن المدية في قلب الآخر. كثرت المُدى المغروسة في أعضاء «حزب الثورة»، من داخله وأيضا من خارجه. الكل مجروح وينزف، ولا يعرف من أين أتى الجرح. لم يبقَ إلا صوت النزف الهادئ وإيقاع الشكوى الذي سيصاحبنا طويلا.

ذلك اليوم الذي لا أنساه عندما انتظرته أمام باب الحزب، الذي خرجت منه ورفسته بقدمي لأسباب تتعلق بدناءة الممارسة التي كان يقوم بها رجاله الكبار والمتحكمون في قراراته. كانت علاقتي بمصعب مقطوعة في تلك الفترة. شعرت بالفخر لأني أملك القدرة على أن أرفس مثل هذه النعمة بالرغم من حاجتي إليها. كنت أحافظ على مبادئي، بعد أن حدث تداخل كريه بين السياسة والصداقة. كنت أريد المكسب بطريقتي، بدون واسطة، وأيضا كي أحتفظ بورقة أخيرة ضد مصعب، أتفوق بها عليه في هذا الماراثون الأخلاقي الذي اكتسحني فيه. كنت آخذ مسافة مع هذا المجتمع السياسي الوسخ، وجاءت الفرصة لأستخدم هذه الورقة وأشهّر به.

توقعت منه أن يترك الحزب بعدي، ولكنه استمر خلافا لاتفاقنا غير المكتوب؛ لأنه كان ينتظر الغنيمة داخل هذا الفساد الحزبي. لا يوجد الكنز إلا في جُحر مملوء بالثعابين كما في أفلام الويسترن. في هذا اليوم انتظرته أمام الباب الحديدي للحزب، أنا ومجموعة من الساذجين من أمثالي، والذي كان من قبل قصرا لأحد الباشوات، لأهتف مع الهاتفين ضد الحزب ورئيسه. كنت وأنا أهتف كأني أكلمه شخصيًّا في أذنه: «إنت ابن كلب وسخ». كنت أرسل له الحب داخل رغيف محشو بالشتائم البذيئة.

كانت الغنائم تقف على أبواب الأحزاب وجمعيات المجتمع المدني لتسد جوع تلك البطون والطموحات لآلاف الشباب. كان المجتمع الثوري يشغي بالنفوذ والمال ونجوم المجتمع. بعد أن هدأت وتيرة المظاهرات تفرقت الجموع بحثا عن أساسيات الحياة. للمرة الأولى كانت كفة المعارضين للدولة بهذه القوة ليصبحوا نجوم الصف الأول، ويتودد لهم الجميع. بعض زملائي ممن كانت لهم كتابات ومقالات في غاية الجمال والذكاء والثورية، حققت لهم شعبية جارفة وسط ألتراس الثورة؛ أصبحوا مُعِدِّين لذلك المذيع المشهور الذي تجاوز السبعين ومازال شعره أسود فاحما ويعيش نموذج الدونجوان، وترى آثار بريق النعمة ناضحا على وجهه. أيضا بعضهم عملوا مراسلين لقنوات لها تمويل أمريكي واضح، ظهرت مع حرب العراق لتجميل صورة أمريكا في المنطقة. جميعهم من الذين ناموا ليلا على أسفلت ميدان التحرير طوال الثمانية عشر يوما، وشموا قنابل الدخان مع القطط والكلاب، ثم ذهبوا في الصباح واقفين على أبواب هذه القنوات.
كانت هناك ستارة كثيفة من المصالح والرغبات الشخصية، منعت أي ضوء من أن يمر. هل كان هناك طريق آخر، أم أن الطريقين المتناقضين يجب أن يتصادما في النهاية كنهاية رحلة لتخرج من هذا الصدام حياة جديدة؟ لو كنت مكانهم فهل كنت سأرفض عملا يحقق الأمان والشعبية مع هذا المذيع الدونجوان الملزق أو غيره؟ الإجابة لا؛ لأني بالفعل عملت في قناة أخرى لرجل أعمال آخر. هل كنا ننسخ في هذا الموقف قصص حب ونضال سقطت كثيرا من كتب التاريخ: تلك المواجهة التاريخية بين الحبيب والحبيبة، الذي تخلى أحدهما عن المبدأ، بينما نجح الآخر نتيجة لتخلي الأول؟ الاثنان يتقابلان عادة في مكان فارق ومتحرك، مثل الأسانسير، فتجد أحدهما يصعد والآخر يهبط! ولكن في حالتنا لم ينجح أحد. المشكلة أننا، أنا ومصعب، كنا في مكان الشخص «المتخلِّي عن»، باختلاف شكل التخلي وطريقته. شربنا ماء واحدا، وتنفسنا هواء عدميّا واحدا.
كانت ساحة الثورة مفتوحة لظهور العديد من الأدوار، فوق طاقة خشبة مسرحها، للنضال والحب والخيانة. ولكن لو لم نلعب هذه الأدوار جميعها فمن سيلعبها؟ إنها مسرحية تؤدَّى للنهاية ويجب أن تنتهي بمأساة. قبولنا بالأدوار غير المناسبة من البداية، أو تصديقنا بأننا نغير وجه العالم، وليس فقط وجه مصر المباركي القبيح، وضع نهاية مأساوية ومبكرة للمسرحية. تلك النهاية التي تقضي على كل الأدوار ليعود المسرح خاليا من جديد. ركبنا بحقائقنا المزيفة وبأنانيتنا، وبصدقنا أيضا، وبأكاذيبنا، وبتضحياتنا، على حصان طروادة الثورة؛ لنغزو تلك القلعة الحصينة للإنسانية.
كنت أرى تأثير الأم على حبيبي، حتى بدون أن أراها. هذا الضعف والتردد في اتخاذ القرارات، وعدم تحمله للمسئولية، وأيضا رائحة حنان أمومي تنبع منه. المرأة تعرف مكان الأم داخل حبيبها، تلمس هذا الجزء الأناني العاطل. كنت متيقنة بأن النصف الآخر لهذا الجزء العاطل منسي داخل جسد الأم؛ بتدليلها له وفرض سيطرتها عليه. في أول لقاء لي بها، تيقنت من صدق حدسي، كنت معه في أثناء توصيلها لإحدى الندوات الدينية التي نشطت بقوة بعد الثورة لحشد أنصار التيارات الإسلامية. دار بيننا حوار في أضيق الحدود، ظهر بوضوح اعتراضها على وجودي في حياة ابنها. كان حائرا بيننا، كما كان حائرا دائما بين أي نقيضين. حاول أن يقطع هذا الصمت البارد بيننا في العربة، ولكنه لم يفلح. كان يخشى أن آخذ صورة غير التي كونها هو عن أمه. أو ربما خاف أن أكتشف الصورة التي تجمعهما معا! وربما كان يخشى أيضا أن تأخذ أمه صورة عني غير صورتي في خياله. لهذه الدرجة كان يخشى أن أجرح تمثال أمه، ولهذه الدرجة كان يخشى

أن تجرح أمه تمثالي. كنا، أنا وأمه، بالنسبة إليه، تمثالين غير قابلين للإيذاء، أو للنمو. هشم اللقاء التمثالين معا.
بالرغم من أنه لم يكن يعول كثيرا على علاقتنا، فإنني شعرت بحرصه على أن نتبادل الصور الجميلة أنا وأمه، وربما كنت أنا المعنية أكثر من أمه، بأن تستقر صورتها الجميلة في خيالي، بصفتي أحد كتَّاب التاريخ في المستقبل، والذي كان يحرص جدًّا على صورته بداخله. ربما كانت هناك عين، من إحدى الأشجار التي تثمر عيونا والتي تنبت عشوائيًّا في حياتنا، تراقبه وتملي عليه تلك الصور الخاطئة التي ربما تدينه في المستقبل.
كانت أمه مثل حجاب معلق في رقبته يحميه في الوقت المناسب من السقوط. مثل علاقتي القصيرة بأمي، أشعر أيضا بأن حياتها الناقصة تحميني. كان يحكي لي كثيرا عن فترة شبابها قبل السفر للسعودية وارتدائها النقاب، عندما كانت العائلة تذهب للتصييف في مصيف مرسى مطروح. كانت تهوى التصوير الفوتوغرافي، واستمرت معها هذه الهواية بعد تخرجها في الجامعة وزواجها. كانت تقوم بتحميض وطباعة الأفلام بنفسها في تلك الغرفة الصغيرة، بجانب الحمام، التي جهزتها كمعمل ووضعت بها مكبر التحميض والأحواض، وبعدها تحولت إلى مخزن للأثاث القديم. كانت تحتفظ بألبومات لصور الجامعة، والشاطئ، وهي بالمايوه، وأعياد ميلاد العائلة، وصور مكبرة لأحد المعارض التي اشتركت فيها في كلية التجارة؛ حيث تخرجت.
كانت الشهور الأولى للثورة فترة تصالح سريع وعاطفي بين كل التيارات والمذاهب المختلفة؛ أديان، أجناس، طبقات. إعلان الاختلاف نفسه، كان مزية في تلك السنوات. كل واحد منا التقط، في حكايته عن عائلته أو عن حياته؛ هذا الشخص المتدين، السلفي، الإخواني، الملحد، المثلي، البهائي، أو استدعى على عجل الزميل المسيحي من مقاعد الدراسة أو من جيرة الحي. كان هذا الشخص يتحول إلى أيقونة، يقف بها الثوري أمام «إله اعتراف» الثورة. قتلتنا الأيقونات والصور، جميعها كانت تخلد لحظات مرتجلة، ربما ليس لها جذور.
في إحدى المرات، التي كان يبيت فيها مصعب في غرفتي، نسيَ موبايله بجوار الشوفونيرة التي يضع عليها علبة سجائره، ودخل الحمام. وهي من المرات النادرة، فقد كان يتمتع بوسوسة لص يمحو أي بصمة. كل منا كان يعرف بأن الآخر لص يمحو بصماته عن جرائمه الصغيرة. كنت أشك باستمرار في وجود غراميات متعددة له، بحثت في سجل الرسائل، ووجدت الرسالة المتوقعة، والتي كان قلبي ينتظرها، وكانت من إحدى الناشطات، التي أصبحت أيقونة كونها جمعت بين ثورية بلا هوادة، ووضع طبقي متميز. لأول مرة الانتماء للطبقات العليا كان مزية في الثورة، وله بريق وجاذبية داخل هذه الجيتوهات الثورية، يغطي أحيانا على بريق الثورية نفسه ويا حبذا لو اجتمعا معا. كان الحب ينمو بتدرج هرمي، هناك من يقف على قمته وهناك من يقف في قاعدته. لم تصنع الثورة هرم الحب المقلوب الذي كنا نسمع عنه في كل الثورات ونتمناه.
كانت شلتنا مزيجا من طبقات متعددة، ولكن ظل لأولاد الطبقة العليا وخريجى الجامعات الأجنبية بريق يجذب إليهن العيون والبطون والآذان والأعضاء التناسيلة، داخل التجمعات الثورية، أكثر من الثوري التقليدي المكافح. لم أحسب نفسي يوما من أولاد الطبقة العليا بالرغم من وضعنا المادي الجيد وتخرجي في مدرسة أجنبية، وتلقى أبي دراسته في جامعة خاصة بالخارج، وإدارته لمحل جدي الشهير، وسكننا في حي مميز، وعضويتي في أحد النوادي.

شعرت بالقرف من نفسي عندما بدأت أتجسس على موبايله وأسترق السمع، بدون أن أوجه بصري له، لأي مكالمة يرد عليها. نزلت درجات في نظرتي لنفسي. كان مبرري أمامها أنني أجدر بحبه ويجب أن أحافظ عليه مهما حدث، حتى ولو اضطررت للسرقة من أجل أن أشبع، ففي النهاية سيجمعنا بيت واحد وسيكون هناك وقت فائض للاعتراف وتعويضه عن هذه الذنوب.
إحساس اللص الشريف كان ينقذني في مواقف كثيرة. كان حفاظي على حبيبي من الضرورات التي تبيح المحظورات، وعلاقتنا الجنسية كانت أيضا من الضرورات، وعيشنا معا كالأزواج من الضرورات، لم تكن هناك محظورات سوى تلك المجرات المنسية في نفوسنا والتي تصطدم بالأخرى في هذا الكون المخاطي، وتلك الفقاعات التي تنفثئ.
كان حبيبي نموذجا جديدا للثوري، يمتلك دونجوانية زئبقية، كفاءة وعلمًا وذكاء وجاذبية وتضحية، ومؤتمرات عالمية، ونظريات حديثة تدور بين ألسنة الجميع سواء المتخصصين في السياسة أم لا، مطاعم فاخرة، وأخرى شعبية. ذلك «المواطن العالمي» الذي يشارك في كل ثورات العالم وهو جالس خلف شاشة اللاب توب. ولكن هذا الدونجوان الزئبقي، هو نفسه الذي يركد في ليل العربة ويبكي بحرقة، ويدخل في جسمي كأنه يريد أن يستقر نهائيًّا في الرحم ولا يخرج.

كتابة على حائط «التمبلر»

«يا حمار... يا غبي.. هفضل أحبك طول عمري، هتجوز غيرك، بس مش هتخلَّى أبدا عن حبك. إنت حقيقتي الوحيدة اللي مش عايزه أتخلى عنها. أنا متصالحة تماما مع غبائك، وأنانيتك وخيانتك. فيه مغناطيس للحب مزروع في دمك، وأنا شوية برادة حديد، ماليش إرادة غير إني أمنحك كل ذرة في جسمي. إنت زي اللغز اللي مالوش حل، زي لغز الحياة والموت والقدر. مش قادرة أمنع نفسي وأبعد، أو مش عارفة، أو ما عنديش أي رغبة في ده. أي حاجة بشوفها بشوفك موجود جواها، مش عارفة حتى أطرد صورتك عن أبسط الحاجات والأفكار. نفسي أعرف ليه كل اللي بيجرالي ده، عايزه أخرج عن المدار اللي إنت موجود فيه، عن أي مدار ممكن حد يجذبني فيه. عايزه أعيش زي نجمة بتخرج عن الجاذبية، وتسقط ، بس سقوطها ده هو اللي بيخليها حرة».

حب مصعب لنفسه
كان يمر عبر حبه لأمه

كان هناك جانب طفولي في رغبة مصعب المستعرة تجاة المرأة وشغفه الشديد بالجنس. هذا التعلق الشديد، والرغبة المتواصلة، والعلاقات المتواترة، التي لم تهدأ حتى في أصعب لحظات الثورة ـ ربما كانت تزداد بسبب الخوف ـ ونهاية بالبكاء المتوقع الذي يختم به علاقته الحميمة مع دولت أو مع أي فتاة، كنوع من العرفان أو الاعتراف بهذه الأم المدفونة داخل جسد الفتاة.

اللذة كانت خليطا من تعلق وخوف وحاجة الطفل الذي بداخله، ورغبته في تملك هذا الجسد الآخر بدون منافسة؛ حيث يتحقق له الذوبان الكامل في «الذات العليا» للجنس، والتي تمثل الأم أحد رموزها الهامة. حتى موهبة التفوق، ورغبته باستمرار في أن يكون أول كشوف الناجحين، كان شبح أمه أيضا يقف وراءها، فهي، بفرحها وثنائها عليه، تمنح نجاحه المعنى الذي ينتظره، بعكس والده الذي لو كال له أطنانا من المديح، فسيضعه، بمجرد أن ينفرد بنفسه، في صندوق المهملات بداخله.

ساهم أبوه في سلبية مشاعر مصعب تجاهه، فقد كانت طيبته تجعل مصعب لا يراه ولا يعبأ به، ربما يحترمه، ولكن لايخشاه؛ لأنه يحتاج لمن يشعر بقوته وبحمايته له، لمن يحفز عنده إفراز هرمون الخوف، أما أمه فشخصيتها حاضرة منذ كان في الرحم تلقنه حبها وترسم له شخصيته وتحفز هرمونات خوفه عبر الحبل السري، فقد أصبح مصعب موهبتها الجديدة التي تضع فيها روحها بعد أن ودعت حياة كانت يمكن أن تكون مختلفة، فجاء مصعب وعاش داخل هذا النتوء النفسي للأم كنيجاتيف لكل أحلامها التي لم تتحقق، يكبر هناك ومعه تكبر هذه الأحلام، وتكبر على شاشة خيالها تلك الصور الخيالية التي تمنت أن تصورها يوما ما.

حب مصعب لنفسه، كان يمر عبر حبه لأمه، وربما أيضا أن حبها لمصعب، انعكس في «صورة» أخرى، كحب مصعب لذاته، ولكن معكوسا في مرآة الأم. فكلما أراد النظر لذاته رأى أمه تقف خلف «صورته» تماما، وربما داخلها. كانت علاقة أمه بأختيه،مختلفة تماما عن علاقتها به، بها جفاء الأنداد، وليس علاقة أم بابنتيها.

اكتسبت أي علاقة حب يدخل فيها مصعب، هذه النكهة الطفولية، وربما هذا ما جعل العلاقات تنجح في بداياتها؛ لرغبته في التدليل المخلوط بعاطفة خوف حقيقية، كانت تتحول أحيانا لحنان مفرط من ناحيته، يريد أن يسعد به هذه الفتاة التي منحته هذا الأمان النفسي والجنسي. هذا السلوك كان ينشط رغبة السيطرة في أي فتاة يحبها، ومعاملته كابن مدلل، كما فعلت دولت تماما. كان برغبته، جزء مقطوع، مغروس داخل جسد الأم. أكسبه، هذا الجزء الغائب، مسحة من الحنان الغامض، تشعر معه الفتاة كأنها تنام مع أحد السحرة الصغار.

كان يصل في علاقاته الحميمة لذروة لاتنتهي بالخسوف والتمدد على الظهر، وإشعال سيجارة الهبوط إلى السفح، أو التكور داخل شرنقة نفسه، بل يسحب رفيقته، في الفراش، لغرفة سرية بداخله، ويبكي بكاء حارقا، بكاء العرفان لهذا الحدب النفسي والجنسي، اللذين منحتهما له الفتاة. يرفعه البكاء إلى سماوات شجية في نفسه، ويبدأ في ارتجال كلام وحوارات بحرارة شديدة، يتكلم بأصدق لسان يمكن أن يتكلم به، بين رحى هذه اللذة المنقضية، وشبح أمه الذي يسكن غرفة البكاء نفسها.

كانت دولت تشم دائما رائحة أمه داخل هذه الغرفة الباكية التي تشبه رائحة خل التفاح اللاذعة، رائحة هذا الجزء المتحور من اللذة، الذي يأخذ شكل البكاء. تشعر بأن هناك شريكا بينهما، وأنها تنام مع الرجل والطفل معا، ولا تعرف أين حدود الرجل وأين حدود الطفل. داخل هذه اللذة كان مصعب يقابل ذاته العليا وأنثاه الغائبة، التي تقف وراء فتاته تماما، يمد لها أصابعه، وقضيبه، وعندما يلمسها، داخل هذه الغرفة التي لاتضم أحدًا سواهما، يبكي. كأن كل اعترافاته الصادقة والتي يدين نفسه فيها غالبا، تركع أمام قدمي شبح هذه الأم التي تسكن هذه الغرفة، التي حملها الطفل الذي كانه ولم يتخلَّ عنها، وربما بنى طفولته عليها؛ فهي الجزء الأقدم في ذاته، بل الأكثر أصالة من أي شيء آخر.

الحزب كان يشكل له أمًّا ثانية. كان يلقي بنفسه داخل العمل الحزبي في أثناء الثورة، ومن قبلها ضمن حركة «كفاية»، ثم جاءت الأم الجديدة وهي الثورة، فألقى بنفسه فيها أيضا، كابن مدلل. كانت الثورة بمثابة «الذات العليا» التي يود أن يذوب فيها بوصفها أمًّا حنونا، تمد ثدييها لترضع هؤلاء المحرومين الكبار من الأمومة، حتى ولو بلغوا فمازال حرمانهم أقوى؛ ربما لأنهم لم يكشفوا هذا الجانب اللامرئي من سلطة الأم المخلوط بسلطة الحب والحنان.

لم يعرف هؤلاء المحرومون الكبار بأنه قبل أن تكون حواء أمًّا مقدسة كانت امرأة خرجت من ضلع آدم، ثم عاد آدم وخرج من ضلعها، ولكنه خرج بذاكرة ملساء لا تقف عليها ذكريات الولادات القديمة، عندما كان معبودا، فعبد أمه، ونصبها إلها، فازداد شعوره بالحرمان والعطش الدائمين نتيجة لهذا الدين الجديد.

يرغب مصعب دائما في ذات أكبر يذوب فيها. لايرى السلطة الخفية في كل علاقات الحب التي عاشها؛ لأنه لم يرد أن يراها، حتى في منبعها الأمومي أو الأبوي، فأخذت تتراكم؛ تلك السلطة الخفية، داخل نفسه، فيزداد تعلقا بها وبرموزها الخفية. كان متسقا تماما مع كل الأمراض الطبيعية التي أورثتها الأمومة والأبوة. فعندما جاءت الثورة، بحثت داخل خياله، فلم تجد فضاء لتحلَّ فيه، أو رموزا لتملأها، فخرجت، الثورة، ووقفت على الباب تنتظر منه أن يفعل شيئا، أن يطرد إحدى معبوداته. ولكنه لم يقدر على التخلي عن أي من معبوداته وعن كل دياناته القديمة. حتى خساراته لم يرضَ أن يتخلى عنها، وعن إيقاعها؛ لأنها كانت تشغل، بشجنها، مكانا أليفا في ذاته يمده بالإيقاع الحزين الذي يحب أن يسير عليه «مارش» حياته.

ربما رفض مصعب لحمل دولت، مرتبط بأنه في هذه الحالة يخون حبه لأمه، ويخرج من هذه الغرفة السرية تماما، أو يطردها منها، ويتحول لأب، وليس لابن أبدي كما كان يريد.

ثم ظهرت الأم الأخيرة وهي «الهزيمة» التي سيظل يرضع لبنها معلنا فشل ثورته، وأنهم، كجيل قام بالثورة، مهزومون يرضعون لبنا حزينا، ويجب الاعتراف بهذا، ويجب قتل الأمل لأن «الأمل خيانة»، بعكس شعارات الثورة التي كانت تنادي بأن «اليأس خيانة». المشترك بين الأمل واليأس هنا هو الخيانة! سكنت «الهزيمة» بغرفة مجاورة لغرفة الأم أو بداخلها، ليبكي فيها الطفل ويندب حظه مدى العمر، ليتحول هذا المستقبل إلى قدر مكتوب بدون ميللمتر واحد للمناورة، أو لاختراع أمومة جديدة غير مقدسة. القداسة جعلت الأم ملاذا من الخوف، والملاذ جعل الأم رحما، والرحم جعل الأم إلهة، فنولد ونحن نحمل بين جوانحنا هذا الحنين القهري المقدس للرحم.

متاهات الدورة الشهرية

لومضة من الزمن امتدت شهورا، كنا جيلا مرغوبا فيه من صداقات الكبار، نسير وهالة القداسة تسير فوق رءوسنا؛ تلك الرءوس التي سيحين قطافها سريعا، بعد حين، عندما تنتهي صلاحية هذه الهالة المقدسة، وتميل الرءوس. حتى «محسن الحكيم»، كنت أشعر بفرحه وتعلقه بصداقتي، وربما كنت إحدى واجهاته الاجتماعية التي يحتمي بها في مشوار كفاحه أمام نفسه وأمام قرائه. كانت أبواب أصحاب النفوذ مفتوحة أمامنا خصوصا لو كانوا في صف الثورة، أو يدَّعون هذا خوفا من موجات الهجوم والتحفيل. كانت الأرض تهتز تحت أقدامهم، أو اعتقدت هذا، ولم أدرِ بأن هذه الهزة لن تدوم طويلا وهذا التعاطف أيضا لن يدوم طويلا، كان نوعا من التكتيك الذي تستلزمه المرحلة، وبعد انتهائها عادوا إلى خنادقهم، وتجاراتهم، ومراكزهم البحثية، وسفرياتهم، ومكاتبهم المكيفة، ومؤتمراتهم العبثية، ودوراتهن الشهرية.

تنمَّرت بإحداهن، من صاحبات النفوذ ونجوم المرحلة، كانت تستفزني سيرتها و«الشُّوهَات» التي تؤديها، وحدسي بأنها شخصية مدعية؛ حتى دُعيت لبيتها، بصحبة العديد من الأصدقاء والصديقات. كانت تدير مركزا للأبحاث الاجتماعية في لندن، ولها نفوذ واسع اكتسبته من مهاراتها الأكاديمية بالإضافة إلى ميراث عائلي وطني عتيد في تقلد المراكز الحساسة على هذا البرزخ الفاصل ما بين الهامش والسلطة.

كانت في منتصف الأربعينيات تودع زمنا جميلا، لن تكون فيه دورة شهرية مرة أخرى، كما كتبت على صفحتها. لم تكتب هذا نصًّا، ولكن الدورة الشهرية كانت إحدى لازماتها وأقنعتها التي تبرر بها اندفاعها وميولها الانتحارية، التي زاد معدلها مع تقلبات الثورة، كما كتبت عن نفسها أيضا. تعاملتْ مع الدورة الشهرية ببلاغة زائدة، حتى صارت نكتة تلوكها الألسن من حولها واجتذبت أكثر من «معجب ولهان» ينتظر سقوط هذا الجسد المتحرش على عجل، حتى ولو كان في عقده الخامس، فقد دهنته الثورة، والولوج في تفاصيلها، بزيت ثوري جعله خمريّا جذابا في عيون العديد من الشباب الطامحين لمنحة دراسية، أو وظيفة في إحدى المؤسسات الأجنبية العاملة في مصر.

في هذه الجلسة، في شقتها الواسعة بالزمالك، ووسط مجتمعها القوي الذي يصفق لها دائما؛ هاجمتها بشدة. أمسكت بقوة بنقطة ضعفها: هذا التناقض الواضح، والذي لا يحتاج إلى مجهود في رصده، بين كونها سيدة أرستقراطية لا يليق بها أن تنادي بالثورة وبالحلول الجذرية وهي لا تنتمي للشعب، وأن أغلب أوقات الثورة الحرجة كانت فيها مسافرة بالخارج، أو سائرة في متاهات الدورة الشهرية تفكر في أفول نجم الولادة في حياتها. كانت الثورة طبيبا نفسيّا نعترف أمامه بكل شيء صدقا أو كذبا.

ابتلعتِ الطُّعم، أو ربما أوهمتني بهذا، فلن أكون الأولى التي تقف في طابور الهجوم عليها، ولا الأخيرة بالطبع. كانت مدربة على ابتلاعه، والدفاع عن نفسها بحجج واهية؛ ربما لتثبيت تهمة الأرستقراطية عليها وليس نفيها! كانت تحترف دور الفريسة، التي سرعان ماستقوم وتجري وهي تشير، بأناملها، ضاحكة، لصيادها المخدوع .

كانت هذه السيدة تحب أن تعيش داخل فقاعتها الأرستقراطية، وتحب من يركز عليها ويشعرها بها وبقوة مناعتها أمام أي هجوم، بل تحب من يهاجمها من أجلها. حتى ولو بكت أو اعتذرت؛ فقد

كانت محمية بهذه الفقاعة. كانت أفضالها على الكثيرين من الأصدقاء الثوريين، الصغار والكبار على السواء، ونوافذ الرزق الحقيقية التي فتحتها لهم، تمنع الوصول بالهجوم لحد الاعتراف.
تحولت الجلسة إلى حالة من الفضفضة، انتهت بالعناق والدموع، وصرنا صديقيْن، وأضافتني إلى قائمة طويلة تتوزع في كل أنحاء العالم.
كان هناك شيء جذاب في هذه السيدة، ليس جاذبية الادعاء، ولا الكذب، ولا رغبتي في إضافة مصدر مهم إلى حياتي، ولكن ربما الخبرة العلمية التي اكتسبتها في حياتها جعلت فكرة الثورة بالنسبة إليها موضوعا بحثيًا مجردا أكثر منه حبًّا عاطفيًّا؛ لذا طفت على سطح الثورة كل عواطفها الأخرى المعطلة إلا عاطفة الثورة نفسها.
داخل تلك الدوائر اللامعة، كانت هناك نقطة قريبة جدًّا، أو بعيدة جدًّا، يجب أن يقف عندها أي هجوم سواء كان بين أصدقاء أو أعداء، فشبكة المصالح التي تعقدت في عهد مبارك، جعلت المساحات المتاحة لاتخاذ مواقف حقيقية ضيقة للغاية كالمرور من خرم إبرة. كانت الصدامات المجانية التي اتسمت بها مرحلة الثورة تحدث خارج دوائر المصالح هذه. قليلون من كانوا على استعداد للخسارة، وربما الثورة نفسها حدثت في أرض خلاء، بعيدا بمسافة مانعة عن أن تهدد المصالح الشخصية لصاحبات وأصحاب النفوذ في البلد.
اصطدمت سفينة الثورة المبحرة سريعا بالجزء المخفي، الغارق في التكفير والذنب والموت والمصالح الشخصية والأنانية، من جبل التنازلات الجليدي الذي أخذ يكبر ويكبر يوما بعد يوم.

الفقاعة

قمنا بالثورة، وكل منا يعيش في فقاعة مستقلة. تكبر معنا وتصغر. حاولنا أن نخرج منها. من فرط شفافيتها لم نعرف حدودها، أو قوتها، ولم نقدر على النفاذ منها. أوهمتنا شفافيتها كثيرا بأننا تخطيناها. كانت حدودها متماهية مع الحدود الخارجية لأجسامنا، وأحيانا نشعر بحضورها داخل الهواء الفاسد الذي تنفسته من قبل كل الأجيال السابقة.

أحيانا كانت مثل رحم الأم؛ هذا الكيس المائي الذي نعيش فيه أجمل أيامنا. كانت الفقاعة محكمة، تتحكم في كل تصرفاتنا ورؤيتنا لأنفسنا وللآخرين. كأننا خلقنا لنتغذى ذاتيًّا من تشوهاتنا، من أنانيتنا التي اكتشفناها سارية في الأنفاق المعتمة لجيلنا والموصولة بكل الأجيال السابقة التي كرهناها لأنها أورثتنا تركة ثقيلة من الديدان. لاجديد داخل الفقاعة سوى التكرار، ومعاينة الخطوط المتداخلة للحدود وتشمُّم رائحة الجثث المدفونة داخل هذه الأنفاق.

كانت اللحظات التي شعرت فيها بأني خارج حدود الفقاعة، نادرة: ربما عندما كنت أنام مع مصعب، أو أصل لذروة شجية في الحوار والفضفضة مع محسن. وأحيانا وسط الحشود. لحظة دخول القطار القادم من بورسعيد وهو يحمل جثث شباب الألتراس لمحطة رمسيس، اتسعت الفقاعة بحجم الكون، شعرت بحرية السباحة خارج حدود المكان والزمان، ولكنها الحرية التي يتيحها الموت.

في تلك اللحظات النادرة من الحرية، التي تختفي عادة خلف ذروة ما، أو خلف موت ما؛ أشعر بأني أطير بلا جاذبية، أشم هواء طازجا، ولا أشعر بأي حدود، بل بذوبان كوني، كأن الطريقة الوحيدة للخروج من الفقاعة هي الذوبان، وهذا الذوبان لايأتي إلا كصدى لموت أو لغناء آخرين. عندها تتسع الفقاعة لتشمل اثنين، وتتسع أكثر لتشمل جماعة أكبر، وتتسع أكثر لتلامس الحدود الداخلية للكون الذي نعيش فيه.

لم تخلصنا الثورة من فقاعاتنا، بل وسَّعتها، منحتها مساحة جديدة لتناسب أجسادنا وطموحاتنا الجديدة، وأيضا أنانياتنا الجديدة، التي تمددت بدورها. ربما كنا نحتاج لتضحيات أكثر لنخرج منها تماما. كل الذي بذلناه لم يكن كافيا. كانت أغلب التضحيات مدفوعة بشيك يصرف لحامله. لم أقدم على تضحية كبيرة في أثناء الثورة، كنت محبوسة في البيت أتفرج على تضحيات الآخرين، وأملأ فقاعتي بالذنب، والبكاء. ربما تضحيتي الوحيدة هي هذا الابن، أو الابنة، الذي أجهضته.

سريعا نعود للفقاعة خوفا من أن ننسى إحساسنا بأنفسنا الذي اعتدناه، وساهم في تكوين شخصياتنا طوال سنوات العزل الإجباري والاختياري والفساد قبل الثورة. حتى فترة العيش في الشقق المفروشة، بعد استقلالي عن البيت، عشت أيضا مع مجموعة من أصحاب الفقاعات المحمولة على الأكتاف، أو داخل حقائب السفر. كنت أبيت ليلا في فقاعتي النفسية، يتردد من حولي صدى أصواتي الداخلية، أعلى من أي صوت خارجي. حتى حياتي في بيتنا كنت أيضا داخل فقاعة الدين والحجاب ومرض أمي، وعناد تؤأمي، ولامبالاة أبي، كلها عوالم قوية تجذبني للداخل، ولا تجعلني أحدس بثخانة الحاجز الشفاف الذي يفصلني عن الحياة الحقيقية.

خرجت، مجازيًّا، من البيت ولكن لم أخرج من الفقاعة. الفقاعة كامنة في جينات المجتمع وهوائه وترابه ومعجونة بالأغذية المسرطنة التي نأكلها، وبالمياة الملوثة لنهر النيل. لقد حملتها معي على كتفي، كبيت ثانٍ، وذهبت لفقاعة نفسية أكبر.

الفقاعة شيء جميل، مكتمل، هش في ظاهره، سريع الزوال، يتلاشى بمجرد أن يلامس جسمًا صلبًا. جماله في هشاشته المتجددة، وبعده عن أي اصطدام بكل ما هو صلب، ونفاذيته للضوء. تخدعنا، أحيانا، بأنها هشة ويمكن مغادرتها بسهولة، وأننا نرى منها الحياة جيدا، عندها نصطدم بجدارها الجارح مثل حد الموسى، لتنجرح أجسامنا، ويتكسر هذا الزجاج الفاصل بيننا وبين الحياة، وتتغبش الرؤية من جديد.

يمنحنا شكل الفقاعة هذا الإحساس الزائف بالاكتمال للشكل الدائري، وتشرنق أجسادنا بداخله. كل منا له فقاعة على حجم جسمه، ينام فيها كنوم الطفل داخل الرحم. داخل هذا الزمن السعيد يتولد إحساس بامتلاك خط البداية والنهاية. نحن البداية ونحن النهاية، كآلهة معزولين. منحتنا الثورة خيطي البداية والنهاية، اللذين رسمناهما حول أنفسنا وأصبحنا مسجونين من جديد ولكن هذه المرة بأيدينا نحن. أي لحظة تحرر نعيشها ونفرح بها، ونطهو من أجلها طعاما روحيّا شهيّا، ذابت سريعا. أي وجبة جنسية فائقة الجمال؛ كان يعقبها خسوف نفسي حاد، كأن نفسياتنا مضبوطة على الاكتئاب، نشك في أننا يمكن أن نفرح. حتى الفرح العارم الذي عشناه في أثناء الأيام الأولى للثورة، سندفع ثمنه مضاعفا.

حتى في أدق تفاصيل علاقاتنا الشخصية والحميمية، كجيل؛ كنا نسابق الزمن لنصل للذروة في الجنس وفي الزواج وفي الانفصال. نريد أن نضع الحياة داخل كبسولة نبتلعها مرة واحدة ونرتاح. كبسولة أو فقاعة، داخلها يستدير الزمن وننزلق بتكرار أبدي، بينما الموت كان يقف قريبا من خطوة أقدامنا التالية.

كنت أستغرب من حرص «محسن» على العائلة، كان ينصحني دائما بألَّا أفقد الخيط الذي يربطني بعائلتي، أو بأبي على وجه الخصوص. يرى المستقبل وقد ازدادت فيه الفقاعات، بعد أن تفقد شفافيتها الخادعة ويكون لها جدار أسود لا يدخل ولا يخرج منه أي شعاع ضوء. عن أي عائلة يتكلم؟ حتى ولو كنت أحمل مشاعر حب مجهولة لوالدي، وحزن تجاه موت والدتي، أو مشاعر مضطربة لميادة، وشفقة لمحمود أخي الأصغر؛ ليتمه المبكر وحزنه الذي لن يكتمل، إلا أن هذه المشاعر لا تكفي لأشعر بثخانة وجودي الداخلي. كل هزائم حياتي تفتتت على هذا السطح الخارجي البارد لجسمي، كسرطان الزجاج.

حضور الموت في فقاعتي الذاتية، كان أقوى تأثيرا من الثورة، برغم عدد الأصدقاء الذين ماتوا. موت أصدقائي كان يجعلني أحفر في نقطة الانتقام نفسها، من النظام والدولة والأجيال السابقة، ومن نفسي أيضا. أما موت فرد من أفراد عائلتي، فقد كان يجعلني أطرق كمتسولة بشدة على باب الموت الرحب وأنتظر منه الإجابة، وعندما لا تأتي أبحث عن طرق فرعية لشفاء الندوب التي يخلفها ملك الموت. أي طريق كان من قبل مكتوب عليه «بلا عودة»، جعلني الموت، القريب مني، أعود للسير فيه من جديد.

بيت الحرير

يخرج الحرير من فم دولت، تدور به دورة كاملة حول جسدها المتكور في وضع الجنين. خيط رفيع واهن يتلوه خيط رفيع آخر، ثم آخر ثم آخر. دورات متعاقبة من خيوط الحرير. نقطة البدء هي نقطة النهاية، كطفل يتعلم رسم الدوائر للمرة الأولى، ترسم هي أيضا مدارات حولها، بخيوط الحرير، تتخلل ظلمتها نجوم وأقمار وشموس صغيرة. تلتف الخيوط وتتشابك وتتقاطع حولها، وتتداخل مسارات النجوم، تضغط على جسدها، فيزداد انكماشا، واضمحلالا. كل خيط يخرج منها، يحجب خيطا آخر من الضوء كان يمكن أن يصل إليها. لحمة وسداة من الضوء والظلام، ثم لحمة وسداة، ينزلق ثوب الحريرعليها، يأخذ شكل الجسم والحلم معا. يضيق البيت والحلم معا، عليها.

يقل الضوء يوما بعد يوم، خيطا بعد خيط، حبيبا بعد حبيب، موتا بعد موت، كذبة بعد أخرى. داخل هذه المجرة الحريرية المعزولة التي تسكنها، تتعاقب عليها دورات البعث، ودورات القمر، ودورات الشوكولاتة باللبن، ودورات البكاء، ودورات اللذة.

داخل ظلام هذا البيت الحريري، تسعى دولت، بحركة دودية، على جدرانه الداخلية بحثا عن أي ثغرة ضوء. تشعر بحاجتها للضوء، فقط عندما تكون قد أحكمت نسج خيوط بيتها الحريري من الداخل، ولم تترك ثغرة فيه، أو مكان خيط واحد فارغا، لتعبر منه نسيلة خيط من الضوء. تخبط بقوة على جدران مجرتها الحريرية، تصيح، لعل أحدا، من سكان تلك المجرات الحريرية المعزولة الأخرى التي تدور في مدارات قريبة منها؛ يسمع نداءها. تلمح دولت ضوءا بعيدا، يأتي من نافذة قديمة لاتزال مضاءة في بيت مخيلتها المظلم. هناك البيت جاهز قبل أن يُبنى، والشرنقة جاهزة قبل أن تكون هناك دودة أو فراشة، والحياة نفسها قناع يبحث عن معنى، والسجن هو الفراشة التي تبحث عن نافذة.

تسعى دولت لنافذة الخيال المضيئة، التي تنفتح في جدار مجرتها الحريرية، تنسلخ من جسدها الأرضي، وتغادر بيتها، وينبت لها جناحان، تطير بهما نحو نافذة الضوء، وتنتظر هناك دورة أخرى وحيوات أخرى لا تزال تحملها في ذاكرة خيالها.

الدودة تعرف بأنها يوما ما ستطير، والفراشة تعرف بأنها يوما ما ستعود وتزحف على الأرض، والشرنقة تعرف بأنها يوما ما سيغادرها الجميع وتبقى وحيدة، لا عمل لها. ربما في هذه الحالة سيعاد فك كل خيوط العزلة الحريرية التي نسجتها الدودة الأولى والثانية والثالثة والألف والمليون، بدأب ويأس، سيقل سواده مع مرور السنوات، ومرور القرون، أو ربما ستسكنها ديدان أخرى حالمة لتعيد صبر ويأس الجدات الأُولَيات الحالمات من الديدان.

ملايين ملايين الشرانق التي غادرتها فراشاتها؛ تلك البيوت السكنية الجاهزة للإقامة والحلم معا. ملايين ملايين الشرانق التي ماتت بها فراشاتها بدون أن تخرج للنور. جميعها تنتظر الحالمين، من يحلم بأن يطير، ومن يحلم بأن يقص أجنحته الخيالية، ومن يحلم بأن يقص خياله نفسه. ملايين الشرانق العاطلة، بيوت العزلة المكيفة، تنتظر من يحلم بالطيران وهو يزحف، ومن يحلم بأن يعود زاحفا، وهو طائر، ويعيش بين ديدان الأرض وشعيرات جذور أشجارها.

ربما خيوط الحرير التي خرجت من فم دولت كانت خيوطا وهمية، والشرنقة نفسها كانت وهمية ولايوجد، أصلا، بيت يُبنى من الداخل إلا في الخيال. فالبيت فكرة جاءت من الخارج، ونافذة

الضوء، أيضا جاءت من مكان خارج الجسم، خارج البيت، ولايمكن الوصول إليها إلا بالقفز خارج الجسم، خارج البيت، خارج أسوار الحياة.

بكاء الدمية

أغلب نقاشاتنا الدافئة كانت محصورة داخل هذا المثلث: أمي والثورة ومصعب. طبعا بجانب علاقتي الشخصية بالله، التي كانت تمر أيضا بفترة تحول بعد الثورة. كنت أتجرأ في حضوره في الكشف عن هذا الإله المشترك بين الناس جميعا، وقبل أن تكون هناك أديان، والذي دارت بيني وبينه حوارات طويلة، واحتفظت بصورته داخلي.

كنت أمارس مشاعري الدينية، في ذلك الوقت، بتقشف حاد، أحفر من نفسي وأستخرج التراب القديم بدون أن أجد شيئا يملأ هذه الحفرة سوى هذا الشجن الصوفي الذي يملؤني من الثورة ومن الحب. كنت أعيش حياتي، قبل الثورة، كفتاة صالحة ومتدينة بدون أي ذرة تردد أو شك في الدين أو في الصورة المعتمدة منه. أداوم على الصلوات في المسجد، مع أمي، وقراءة القرآن والذهاب معها لدروس التجويد والحفظ في بيت إحدى صديقاتها. ليست أمي وحدها السبب في ردة فعلي العنيف واختياري لهذا الشكل المتقشف والمحايد من التدين. ولكن كل زميلاتي في المدرسة، ثم الجامعة، كن متدينات بلا روح. كان الهواء الذي نتنفسه إما يأتي من ريح الجنة وإما من خبث النار. لم نتنفس هواء إنسانيّا، يهب من هذا المكان الواسع والمفتوح الذي يسمى الخيال. برغم التزامي الظاهري أمام أمي، فلم أتردد من أن أسترق لتلك الشخصية الأخرى، بعض القبلات والرغبات السريعة؛ كي أجعلها راغبة في العيش معي ولاتفكر في مفارقتي.

كان «محسن» يتحلى بحس صوفي صافٍ، وبروح متسامية تحاول أن تصل لمعاني الحياة المتوارية، حتى خلت أحيانا بأننا لا نعيش إلا وسط حياة افتراضية. ولكن هذا التسامي لم يكن خالصا لوجه الله كل الوقت، بل أحيانا لوجه العدم، عندما تتأرجح يداه ويحركهما بسرعة، غير سرعة الانتشاء، وبيأس وعصبية، قرب الهاوية. هذا النوع من التسامي الذي لا يوجد بعده شيء، لا جنة ولا نار ولا حساب، كأن خوفنا، الذي تربي في هذا المكان الفاصل، صار بالنسبة إليه نسيا منسيّا.

نقاشاتنا عن أمي كانت غالبا تطفو فوق بحر من الدموع. يناولني كوب ماء، افتراضيًّا، لو كان يحدثني بالشات، أو حقيقيًّا لو كان يجلس بجانبي على المقهى؛ كي أعوض الدموع. أرفضه في الحالتين بشده. لا أكره الماء إلا عندما أبكي. كان ينقب داخلي عن أم لم تمت. نبهني لقيمة الفقد المبكر للأم؛ ربما لكي يعوض خسارتي الفادحة المبكرة. خسارات كثيرة كان يحولها لانتصارات؛ حتى يسحبني من حساباتي الخاطئة وتقديري لخساراتي الشخصية، كأن ما تأخذه منا الحياة تعوضنا عنه بمشاعر نفرزها ذاتيًّا، كي يلتئم مكان الجرح كما يحدث في جروح الأشجار.

بعد كل حوار معه كان يزداد شوقي للحديث مع أمي. كان يحرضني على أهمية مواجهة الحياة مبكرا بدون حماية، أن أفرز ذاتيًّا أمومتي كما المرض القوي الذي يفرز مناعته وأجسامه المضادة. لم أستوعب هذا بسهولة، فقد تعذبت من فقد أمي، ولكن بعد مرور الوقت شعرت بأني ولدت أمي ذاتيًّا من جديد من برعم أحد هذه الجروح.

أتاح لي بأن أضع يدي على مخزون الشعور هذا، بيني وبين أمي، وأفتحه وأتجول فيه بجرأة؛ حيث تعيش الأضحية والذنب والحب ودورات الميلاد والموت جنبا إلى جنب. كانت تنتابني موجات من الشجن والتذكر والفرح خلال هذه التماسات مع تلك الرموز. شعرت بأن هناك أبوابا موارية يقف وراءها كل من فقدناهم.

« الأشياء التي تطمئننا لا تأتي فقط ممن يعيشون معنا ونراهم كل يوم يمرون بحياتنا، ولكن تأتي أيضا من مكان عميق بداخلنا يعيش فيه من نحبهم».
كان يحيرني هذا «المكان العميق» الذي تكرر ذكره في أحد إيميلاته. أثارني هذا التكرار، وتساءلت بيني وبين نفسي: أين يقع هذا المكان؟ هل داخل حزن أعمق وأكبر؟ هل داخل وعي أكبر؟ هل داخل الحياة، أم داخل الموت؟ هل هذا «العمق» خدعة تسحبنا لتخيل عالم آخر بعيد من الصعب الإمساك به؟
حتى الآن لم أمسك بمحتوى هذا المكان العميق، إلا عبر التذكر، عبر ارتعاشات الحضور والتجسد الإلهي في جسد المحب كما يحدث في العالم الصوفي الذي حدثني عنه «منسي»، كثيرا، والذي كان يواظب على حضور إحدى حلقات الصوفية «الشيك»، ودعاني كثيرا لها. كنت جاهزة لكي أدمن هذه الارتعاشات التي تجسد للحظة هذا «المكان العميق» الذي يسكن فيه كل من أحببناهم؛ أمي والله، ولكن دون أن أكون من هؤلاء «المحبين». ربما الحب كان مرتبة عالية لن أصل إليها أبدا.
كل التحولات التي حدثت لي في أثناء الثورة كانت مكبوتة من قبل، ثم نُزع عنها الغطاء فجأة، فاندفعت إلى مقدمة المسرح بدون ترتيب أو إعداد لظهورها، كأن هناك أحدا دفعها مرة واحدة. كنت أنفذ هذه الأدوار بشكل آلي وبلا روح، ببرود الدمية، كأنها تتحرك بقصور ذاتي، أو بأثر رجعي.
«لحظة التغيير يجب أن تكون مدفوعة بفرح وراءها، يوازي الألم الذي يسببه التغيير».
كتب لي هذه الجملة في إحدى أجنداتي، في مقابلاتي الأولى له. ربما كنت أملك هذا الفرح وقتها، أما روحي الآن وبعد سنوات من الثورة والمتاهة، فقد وصلت إلى مرحلة الدمية. بدأت رحلتي من مرحلة الدمية، وعلى أمل أن ينبت لهذه الدمية قلب في المستقبل.
كنت، أحيانا، أتوجس من شجنه، ورغبته الوشيكة في البكاء. بالرغم من أني كنت خلال هذه السنوات شخصية بكَّاءة، والدموع تملأ صوتي وحلقي باستمرار؛ إلا أني كنت أفرِّق جيدا بين بكائي المنساب وبكائه الوشيك الذي لم يحدث. بكائي كان يأتي من داخلي، كأحد أملاكي الشخصية، بكاء الدمية الوحيدة داخل صندوق اللعب، أما بكاؤه فكان يهبط من مكان متسامٍ، من هذا القلب المختنق، كأنه رثاء مقنّع للذات وللإنسانية بشكل عام. كان يحلق بدموعه الوشيكة وسط سماء مليئة بالانكسارات والآمال المستحيلة، وفي وسطها يبزغ نجم إنسان كالمسيح، مستسلما لقدره، ولوحدته. كنت أشعر بانقباض شديد من أحلامه، كأني ودعت الأرض وعلى وشك الصلب.
كان جسده كله يسعى إلى الصليب، سواء صليب الأضحية، أو صليب الذات.
كنت، معه، أمسُّ الأجزاء الخالدة في العلاقات والحياة والنفس.

كتابة على حائط «التمبلر»

«لما كان بيجوع كنت ألاقيه واقف قدام بابي زي الكلب. أكون متخانقة معاه خناقة كبيرة لرب السما، ولكن كان بيرجع دايما عشان ينام في حضني لما مايلاقيش حضن تاني ينام جواه. الحب عندي كان عامل زي البوصلة المجنونة اللي مالهاش مركز، ولا كرامة، وبتروح في كل اتجاه هو موجود فيه. دايما كنت بقاوم إني أسامحه من غير ما آخد حقي من الزعل، بس مابقدرش، ماكنتش عايزاه يشوفني زي أي واحدة شرموطة مالهاش قلب أو كرامة يمضغها بسرعة ويرميها. لما أشوفه أنسى أي إساءة، أو إهانة، وآخده من إيده لأوضتي، وأول حاجة أعملها إني أحضنه كإني عايزة أبلعه جوه جسمي ومايطلعش تاني. اللحظة اللي بقرَّب فيها منه وبلزق بعضوه، بحس بسعادة ونشوة وأمان مالهمش آخر. كأن فيه حاجة ضايعة من جسمي ورجعت لي تاني. حاجة مسروقة مني ولقيتها. ريحة جسمه، بتخليني كأني دخلت مكان واسع كله ذبذبات، ماعرفش ساعتها أتلم على نفسي، منبه بيصحِّي كل ذرات جسمي في وقت واحد، ويحولها لرماد خفيف يفضل يدور في مدار عضوه. أكيد العضو ده زمان.. زمان أوي، كان حتة من المرأة، وحد سرقه منها، وإداه للراجل، وساب حفرة مكانه، زي ما تكون شاهد على الحنين. أو كان الاتنين حاجة واحدة، وحد جه فصلهم عن بعض، بس القسمة ماكنتش بالعدل».

شقق جماعية

خروجي من بيت العائلة، جعلني أغير نقطة عودتي في الليل، وأرى الحياة في القاهرة بشكل جديد كأني أزورها للمرة الأولى.عرفت الليل الذي لم أعرفه بهذه القوة من قبل. كانت الناس كلها تعيش في الشارع. «الناس»، و«الشارع»، كان معناهما فارغا في قاموسي الشخصي. لم يعد «الشارع» هو المكان الذي أسير فيه مسرعة بخطوة وجدية وملابس جندي في ميدان؛ خوفا من التحرش والعيون المصوبة إلى صدري أو مؤخرتي. كنت أتبرأ من مؤخرتي في الشارع، بينما كانت هي إحدى نقاط قوتي في حسم رغبة مصعب واجتذابه إلى السرير، كنت أرى في عينيه لهبا أخضر عندما ينظر إليهما.

جاءت الثورة لتقوي علاقتي بالليل، بهذا الجزء الذي ينام فيه العقل وتصحو فيه الغرائز والأحلام. سكنت العديد من الشقق المفروشة المشتركة، وصادقت الكثير من قطط وكلاب الشوارع وأطعمتهما ببقايا طعامي، وأقمت معهما حوارات ليليلة طويلة، وانتظرت طويلا عربات الأصدقاء وأنا واقفة بجوار حقائبي؛ لكي يساعدوني في نقلها لمكان سكن جديد، لنقطة جديدة في خريطة التيه، وبجواري الكثير من أصص نباتات الظل والصبار والنعناع والريحان، التي قاومت بها برودة الانتظارات والشقق الجديدة.

اختلطت بمجموعات كبيرة من المصريين والأجانب الذين يعيشون داخل هذه الغرف المؤقتة في انتظار الانتقال لشقة خاصة ووظيفة أفضل، أو مغادرة البلد نهائيًّا. جميعهم لاوقت لديهم للصداقة، أو لأي علاقة عميقة، كل التعاملات تتم من على السطح، سواء الحب أو حتى الكره. لم أشعر بأي حنين لأي مكان أغادره، كل الأماكن متشابهة، ربما تختلف في درجة راحتها أو تعبها، ربما الحنين اختفى بعد موت أمي، ومغادرتي لبيت العائلة. كأن الحنين صار جزءا داخل نفسي، وليس خارجها، أحن إليه.

كان يشغل هذه الشقق مجتمع جديد عليَّ تماما، مصريون وأجانب، يتوزعون على أحياء القاهرة الراقية: الزمالك، المهندسين، الدقي، جاردن سيتي. يعيش المصريون، بحرية تامة، على حس الأجانب المقيمين بها، بالإضافة إلى التاريخ العريق لهذه الأحياء، الذي منحها مميزات عديدة لا تتوفر للأحياء الأخرى، فحيُّنا في مصر الجديدة كان له طابع عائلي محافظ.

لم أتصور وجود هذا المجتمع المفتوح. رجال ونساء، شابات وشباب، عانسات وعزاب، خليط من كل شيء، حكايات حقيقية وأخرى مُختلقة، أكاذيب لا يحاسب عليها أحد، وتحرشات مكتومة، وصور جانبية سريعة تتكون بالمصادفة، وانطباعات مبتورة لا تجد الوقت لتكوّن حكاية. أحيانا كنت أؤجر كنبة الصالة؛ لسعرها المنخفض نسبيًّا، ولهذا السبب أضطر بأن أنام بعد أن ينام الجميع، وأقوم قبل أن يقوم الجميع. كنت أصنع جدرانا من اليقظة بضبط مواقيت النوم والاستيقاظ. عندما ترقيت شغلت الغرفة الواسعة التي تطل على الشارع، والملحق بها جهاز تكييف بعد أن سافرت صاحبتها الإسبانية. كل الشقق التي سكنتها، بل الشوارع والأحياء، جميعها تحولت إلى فقاعة بحجم جسمي، وكنت الساكنة الوحيدة بها.

كانت هناك مساحة حرة نتقاسمها جميعا، ولكنها ملتبسة أيضا، وإلا لماذا المفاجآت، لماذا الهستيريا التي تصيب إحداهن، من الأجنبيات، عندما تتخيل أن زميلتها وبلدياتها ستهجم عليها ليلا، فتضع الدولاب وراء الباب؟ لماذا هذا الفاصل الوهمي بين أطعمتنا في الثلاجة؟ كل واحدة منا كانت

تعرف حدود الأخرى بصرامة، وتحفظ عدد ذرات رمال «وطنها الغذائي» داخل الثلاجة. هذه الشقق تكشف تلك الفقاعة الذاتية التي يعيش فيها كل ساكن على حدة. بالرغم من أن الثلاجة ملآنة بأطعمة الآخرين، فإنني مررت بأوقات جائعة كثيرة. كان راتبي من القناة، في بداية تدريبي، وحتى العمل بدوام جزئي في بعض الجمعيات الأهلية؛ يسد بالكاد جوع الغرفة ذات الإيجار المرتفع، مع توفير بعض الأساسيات . كنت أخرس جوعي بأكياس الخبز «البيتي بان» المخزنة في الفريزر. أتناولها مع كوب الشوكولاتة الساخنة.

كنا نتشارك، أحيانا، في حدود «أوطاننا الغذائية»، ونقوم بطهي أكلات جماعية مميزة، أو نقوم بعمل تورتة لحفل وداع إحداهن. غالبا ما تنتهي حفلات الوداع هذه بالعراك، لو سكرت إحداهن، أو أصطحب أحد المدعوين فتاة بدون إذن من صاحبة الحفل، وكانت هذه الفتاة جميلة أو جذابة أو تلبس ملابس مفتوحة، واستأثرت ببعض الاهتمام الزائد عن اهتمام المدعوين بصاحبة الدعوة؛ عندها تقوم القيامة وتتفسخ الحدود، ويُنثر تراب الأوطان ويهال على الرءوس والأرض.

واجهت أصعب فترات حياتي داخل هذه الشقق، عند خصامي مع مصعب. عندها أشعر بشعور المطلقة المقهورة التي تريد أن يعود زوجها لمكانه في السرير وحياتها مهما كان الثمن، ويمكن أن تنسى أي إساءة أو خيانة، في سبيل أن يعود وينقذها من هذه الوحدة. طبعا هذا الشعور كان يتحول في أوقات أخرى إلى شعور بالكراهية والمقت الشديدين، شعور الزوجة التي تريد الانتقام؛ لأنه ضيَّع بغبائه، هذه الفرصة النادرة، التي لن تعوض؛ للحصول على السعادة. راودتني أحيانا فكرة الهرب بصحبة شخص مجهول، يحرق معي ساعات حياتي القادمة، ولايذكرني بأي شيء، ونذهب معا لأحد الشاليهات النائية في الساحل الشمالي في عز المطر؛ لنسكر، ونشرب البانجو ونبكي.

كنت أتسول الدفء العائلي الذي فقدته، ليس فقط من لحظة خروجي من البيت، ولكن ربما من قبل هذا بسنين، منذ مرض والدتي، فلم نعد نشم في البيت سوى آثار رائحة المطهرات والأدوية واحتراق الشعر بالإشعاع ، بدلا من رائحة الأطعمة الشهية، التي كنت أشمها دائما في بيت رباب. حاولت أن أزرع نفسي في عائلة رباب، مثل العضو الجديد الذي يتواءم سريعا مع الجسم. صرت واحدة منهم. كنت أمتلك موهبة الدخول في تفاصيل حياة الآخرين، وأرى نفسي واحدة من هؤلاء الأطفال الذين يظهرون في صورهم المعلقة على الحوائط أو في ألبوماتهم، حتى إنني كنت أنادي والدها ووالدتها: بابا وماما. كانت أمنيتي دائما أن أجلس إلى مائدة طعام، كل أفراد العائلة حاضرون فيها، وليست هناك كراسي خالية بفعل المرض أو الموت أو السفر. حياتي كانت مليئة بالكراسي الخالية.

كان بيتنا يحكمه ملاكا المرض والنوم. كانت ترعبني ساعات النوم الطويلة لأمي، أشعر كل مرة بأنها، الأخيرة، وأنها لن تقوم من هذا النوم. صار نومها في الآونة الأخيرة، مثل تجارب موت مصغرة أشاهدها كل يوم ويتكرر خوفي وتتكاثف معها سحب الرعب. أحيانا كنت أحممها بمفردي، أو بمساعدة خالتي، ألمس هذا الجلد المترهل من ساعدها، أرى شعيراته وعروقه وقد طفت على السطح، كنا نضع كرسيّا داخل البانيو ونقف من حولها، ونتحمم جميعا. كانت أمي تحب هذه اللحظات السعيدة التي نقف فيها ثلاثتنا تحت الدش، والمياه تغمر شعورنا وأجسادنا، مع الغناء الحزين الذي يخرج مني.

بعد أن أدخلها السرير، أستفرد بنفسي وأبكي بكاء حارقا، لايشاهده سوى رينجو، الذي شهد على كل لحظات ضعفي ورعبي من موت أمي. أحيانا كنت أرتمي في حضن محمود الذي يفيض

بحزن مصمت. بينما أبي غائب باستمرار، أو يتعمد الغياب لو كانت خالتي تبيت معنا لتساعد أمي في البيت. فقد كان يكرهها ضمن سلسلة الذين يكرههم. لا أعرف أبي كان يحب من. كان يجمع حوله الأعداء، يسحبهم داخل فراغ فقاعته الذاتية، ويظل يتعارك معهم حتى يُفني أحدهما الآخر.
أحسست أن سفر ميادة كان مثل القدر الذي أُرسل لي وحدي. لم أغضب منها لسفرها، فلو كنت مكانها فربما اخترت السفر، خصوصا أنه جاء قبل اكتشاف هذا المرض اللعين عند أمي، ولكني كنت غاضبة جدًّا لشعوري بأن هناك جزءا مسروقا مني، ولو كان موجودا، فربما بذلت المزيد من الجهد والرعاية؛ لكي تعيش أمي أكثر، ولأوصلتها للموت على فراش دافئ وثير ومن حولها الحكايات الجميلة والضحكات بدلا من الدموع.
لم أكن أدري بأني، وأنا أستقل بحياتي؛ أفقد الطريق نهائيًّا لترميم صورة عائلتي مرة أخرى. كان «محسن» يحثني دائما على أن أتمسك بهذه البقايا، والخيوط المهترئة والواهية وظلال الصور من العائلة وكراسيها الخالية، حتى ولو كانت مائدة طعامها بها كرسى واحد فقط مشغول؛ لأنني يوما ما سأحتاج لهذه الخيوط الواهية وهذا الكرسي الخالي لأبدأ بهما حياتي. ليس هذا حقيقيًّا يا صديقي، فكل الخيوط كانت تتقطع ولا تطول طرفا آخر. لقد لفظ الجسم العضو المزروع، وطلبت مني رباب أن أقطع علاقتي بها، بعد عملية إجهاضي بعدة أسابيع. كانت رباب إحدى حبيبات مصعب السابقات، قبل أن أتعرف عليه، واستأذنت منها قبل أن تبدأ علاقتي به ووافقت. كنا نتبادل الأحبة كما نتبادل النقود والملابس. أخفت رباب استمرار حبها لمصعب؛ كي لا تشعر بالإهانة، وربما حبي له أجّج نار الشعلة المنطفئة من جديد.
حس الجماعة المنتشية الذي كنا نتحرك به في أثناء المظاهرات، غطى على أي إهانات، وجعل لها تفسيرا عاطفيّا. جعل هذا الحس رباب تقف معي بقوة في أثناء عملية الإجهاض، كأنها هي حبيبته الأصلية التي كانت تُجهض نفسها. إلى هذا الحد كان التداخل والشراكة في الحب والألم، والعائلة، والنقود. أما بعد غياب هذا الحس الجماعي، فبدأت العلاقة تتأزم مع رباب، وكبرت الإهانة في قلبها، وبدأت تختلق الأعذار كي تتخلص مني وتنزعني من البيت الذي أحببته وصرت جزءا منه.
كانت هذه الشقق مثل أي مكان له حدوده المرئية واللامرئية، ودائما هناك تبديل للمواقع وانتقال لوضع أفضل. كانت مقتنياتي قليلة للغاية، عبارة عن حقيبتين متوسطتي الحجم، واثنتين أخريين من شنط «الباك باج»، مع كرتونتين. أحمل معي «مكاني» من غرفة لغرفة، أو من بيت لآخر. أول ما أفعله في الغرفة الجديدة التي أنتقل إليها، أن أعلق على أحد حوائطها البرواز الصغير الذي أهداه لي محسن الحكيم ويحوي مستنسخا صغيرا من لوحة «العناق» للفنان النمساوي جوستاف كليمت، والتي كان يحبها. بجانب صورة لأمي، وصورة أخرى عائلية تجمعني أنا وميادة مع أمي وأبي وعماتي وأزواجهن في مصيف العجمي. هذا الثالوث الذي أعمِّد به أي غرفة قبل بداية حياتي فيها. وتحت هذا الثالوث، أيضا، كنت أنام مع مصعب.
لم أحصل يوما على شعور الأمان الذي اعتقدت بأن الحرية ستوفره. هل هو خطئي أن أتخيل الحرية وأنا سجينة؛ فجعلني أتخيلها بلا حدود وبلا سياج، ومصدر سعادة أبدية؟ ربما الحرية الشخصية حالة غير مشروطة بالأمان أو الراحة، بل بالقلق، والتربص، وأن تضع المسدس تحت وسادتك في انتظار دوران أكرة الباب. هذه الصورة البوليسية التي تخيم على حياة الشخص المُطارد، وربما من يبحث عن حريته سيظل أيضا مطاردا.

كنت أعيش داخل هذه الشقق كدمية، تعود لأصلها الإنساني فقط عندما يأتي حبيبي، حتى عندما يأتي حبيبي، كنا أحيانا نمارس غرام الدمى، نشم معا، وبدون اتفاق، رائحة البلاستيك المحترق لأجسادنا.
أغلب الفتيات المصريات اللاتي صادفتهن في هذه الشقق كن من القاهرة، وليس من خارجها،كما توقعت، وأغلبهن لم يتزوجن، وتتراوح أعمارهن بين العقد الثالث والخامس. كل ساكن سواء كان ذكرا أو أنثى، له حبيب، يأتيه في أوقات محددة. نقوم بضبط جداول الزيارات، بدون خجل، مثل ضبط مواعيد الدورة الشهرية؛ حتى لا تتعارض المصالح والرغبات.
اختفى المعنى الروحي للبيت، واقتصر فقط على الحصول على متعتي النوم والجنس. هذا الشعور كان يفسد عليَّ متعتي مع حبيبي. شعور غير مريح، وغير إنساني بالمرة. أتخيل أن هناك في الغرف الأخرى من يتنصتون علينا ويعرفون مانفعله، بالرغم من أنهم أيضا يفعلون ما نفعله. أي باب مغلق معناه أن وراءه رغبتيْن تتصارعان. كنا في مستعمرة جماعية نتشارك بالنظرات السريعة وبالتنصت المرهف على كل اللحظات الحميمة. ولكن برغم هذه الحرية والتي وصلت لكشف اللاشعور، فإنه كان هناك نظام صارم أوجده هذا الشكل الجديد من الحرية. كانت هذه الشقق ممرًّا لعبور الحكايات الحزينة ومصنعا لتصدير القلق والتربص ومشاعر الدمى. ربما لأن الحكايات الفرحة المكتملة لن يكون لها مستمعون في جيلنا.
نقف وراء الباب نسترق السمع، قبل خروجنا للاستحمام. نخرج عندما لا يكون أحد هناك في الصالة. كان مصعب شديد الخجل من الذهاب للحمام بمفرده، فكنت أخلي له الطريق حتى لايصادف أحدا من أهل البيت من البنات أو الرجال. كان يأتي بفعل غريب، بدلا من الخروج بملابس البيت التي كان يرتديها منذ قليل، يعاود ارتداء ملابس الخروج كاملة ليدخل بها الحمام، ليضع طلاء على تلك اللحظات الحميمة التي مرت منذ قليل. تماما مثل خجله من تقبيلي في الميدان أمام الناس، فيربت على خدي كأنه معلم يشجع تلميذته.
المزية في هذه الشقق، وربما التي لم يكتشفها سواي، أني أصبح القائدة الوحيدة لحبيبي الثوري داخلها، يأتمر بأمري ويتحرك خلف ظلي. يتخلى عن دور القائد الثوري الذي يحرك المئات. كنت أستغرب منه خجله هذا بالرغم من اندفاعه في كل مواجهات الثورة في الصفوف الأولى للموت. أصبحت مثل أمه، التي ترشده في كل شيء، خصوصًا في الفراش، تتحول مشاعر الأمومة إلى لذة طافحة وسعادة بهذا الابن العائد.
اكتشفت جزءا ميتا في نفسي، داخل هذه الشقق، لايخجل ويعرف مصلحته جيدا ويمكن أن يتعايش مع الآخرين في أي مكان وتحت أي ظروف وضمن أي حدود. ليس هو الجزء الإنساني الذي كنت أبحث عنه ليتشارك ويقتسم الحياة مع الآخرين، بل الجزء الجاف الأناني، الذي يبني حدودا مع الآخرين، وينفصل عنهم وهو يعيش معهم.
أحيانا كانت تأتيني دعوات مواربة من الرجال والشباب الذين يشغلون إحدى الغرف التي يتبدل مستأجروها باستمرار. أشعر بتحرش في كلامهم حتى ولو لم يكن يدور حول الجنس. ربما تعقيد حكايتي التي أرويها دائما عن نفسي وعن حياتي وموت أمي، وسني الصغيرة، جميعها تزيد رغبة التعاطف معي من الطرف الآخر، والتي كانت تُلضم برغبة في الاقتراب أكثر مني، وربما التفكير في النوم معي.

يرمي أحدهم الطّعم بوضوح على أمل أن ينام مع هذه الفتاة الصغيرة المنفردة بنفسها التي تاهت عن القطيع. أحدهم، وكان مؤدبا جدًّا في كل تعاملاته وصرنا بعدها صديقين جدًّا؛ كان يرسل لي الإيميلات الحارة من الغرفة المجاورة لغرفتي ويوقع «معجب ولهان». وهناك آخر، كان ينتظرني في الصالة بعد خروجي من الحمام ليشم رائحة جسدي بينما أنفه يتجه لأعلى وراء الرائحة، كأنه يشم رائحة طعام شهي يتصاعد بخاره في سماء الغرفة؛ ويرسم لي بأصابعه في الهواء علامات تدل على مدى شهوانية جسدي بعد الاستحمام.
أمام هذه المبادرات لم أكن أعرف ماذا أفعل، وكيف أثور لهذه الإهانة، وهل هي إهانة بالفعل. ربما كنت أحتاج الشعور برغبة الرجال فيَّ، هذه الثقة الهشة وسط الشك والخواء اللذيْن أشعر بهما داخلي. كان يمكن أن أرفضهم جميعا وأثور في وجوههم لو كان «مصعب» يبادلني الحب بنفس القوة التي أمنحه بها، ولايجعل هناك فجوة يمكن أن يتسلل منها أحدهم. كانت علاقتي المتذبذبة بمصعب تزيد فجوات نفسي، وعدد المتسللين عبرها.
هذا «المعجب الولهان»، كان يمر بالقاهرة ترانزيت قادما من الإسكندرية من أجل علاج أمه في أحد المستشفيات الخاصة بمدينة ستة أكتوبر. لم أجرؤ على خسارته برغم هذه التلميحات والمعاكسات المغطاة، والتي عرفت كيف أوقفها. لم أخبر مصعب بالأمر، كنا متخاصمين في هذا الوقت. لم يكن للشقة «كبير» ألجأ إليه لو صدرت من أحدهم أي إساءة تجاهي أو تجاه أي شخص آخر. لايوجد مجتمع بل أفراد، وفي هذه الحالة يجب أن تصفي الأمر مع خصمك وجها لوجه. كان رجلا ناجحا، أضفته إلى قائمة أصدقائي من الرجال الناجحين وأصحاب النفوذ. تكررت مرات إقامته. كان ينتظر عودتي من الخارج، أو أنتظر عودته من زيارة أمه في المستشفى؛ ليفتح كنز نجاحه على مصراعيه، ويحكي حكاياته ومغامراته وعبوره بنقطة الصفر في حياته؛ حيث كنت أقف وقتئذ. بينما أنا جالسة على كنبة الصالة أستمع له، وبيننا طبق الفستق اللذيذ، خفيف الملح، الذي كان يأتي به دائما في طريق عودته من الخارج. كانت حكايته تواسيني، وتخفف عني جوعي القهري للنجاح. كنت أريد النجاح، لا لكي أفرض سلطة على أحد؛ ولكن لأحمي نفسي بعد أن صرت وحيدة تماما في هذا العالم، ولا أملك ترف الخسارة.

الكذب الخلاق

أحيانا كثيرة كنت أنفر من دور الأب، أو الحبيب الذي تجاوزه الحب. أنفر من هذا التعلق الشديد في رقبتي، أريد أن أخفض هاتين اليدين الملتفتين حول رقبتي، أو المتشابكتين خلف ظهري؛ لأني غير مؤهل لهذا الدور الصعب. حتى وإن ساقتها الظروف في طريقي، بدون أي تدخل مني، فليس معنى هذا أنها «صدفة» يجب ألا أتجاهلها. كنت أحترم هذه «الصدفة» بشكل مبالغ فيه، وربما أتعامل معها كإحدى علامات السماء التي يجب أن ننتبه لها جيدا، فهي لاتتكرر كثيرا على مدار قوس الحياة الصغير. تستفزني أي صدفة، كآخر يتحداني، ويجب أن أكون على قدر المسئولية أمامه، وألا أهرب منه مهما كانت العواقب، كأنها امتحان إلهي يجب ألا أسقط فيه.

فوجئت بها، في إحدى المرات، تضع يدها خلف ظهري ونحن سائران تحت الباكيات القديمة في حي الحلمية الجديدة. في ذلك اليوم قضينا جزءا من فترة ما بعد الظهر في شارع المعز ثم تحركنا باتجاه باب زويلة وسوق الخيَّامية، وسرنا حتى وصلنا حي الحلمية الجديدة ثم مررنا بشارع كلوت بك، في اتجاه محطة رمسيس. كان الجو شتويًّا لطيفا، الأجواء المثالية للاعتراف بالحب. لفتت نظرنا آثار حريق في أحد أقسام الشرطة لم يخفه الطلاء ولا الترميمات المتعجلة.

جلسنا في أحد المقاهي في سوق الحلمية بجوار محل كبدة. استنشقت الرائحة فطلبت سندوتشات لنأكلها على المقهى. استدعت رائحة الكبدة الإسكندراني «لعبة الأسئلة»، كانت هذه المرة تدور عن حياتي الخاصة. حاولت دولت معرفة المزيد عن علاقتي بسناء زوجتي. حاولت أن أتملص من بعض الأسئلة التي وجدت فيها تدخلا ليس من حقها. ظهر عليَّ التحفظ، فساد الصمت. شعرتْ بأنها تجاوزت الحد المسموح به للَّعب، فحاولتْ أن تكون لطيفة معي أكثر من المعتاد. اقترحتْ أن أصحبها في مشوار عمل بجوار محطة القطار. وافقتُ. في أثناء السير وجدتها تحوط ظهري بذراعها اليمنى. شعرت بانتصاب أبوي خفيف، انتصاب الحماية، أو الفرح، كأنك تصحب ابنتك للمدرسة للمرة الأولى. هناك انتصاب يرتبط بنوع من الأحاسيس الفائضة، بل المفاجئة، كأن الجسم يفرغ طاقته الزائدة في هذا العضو الذي يخرج منه.

بعد أي إعلان عن مشاعرها الداخلية، سواء كانت خوفا أو حبّا، كانت تظهر شخصيتها الأخرى المضادة للأولى. في منتصف الطريق فجأة تذكرتْ، ونزعتْ ذراعها بقوة، شعرتُ وقتها كأن ظهري كان مسنودا ثم أصبح سائبا على وشك السقوط، بتأثير قوة الحركة التي قامت بها، كأنها تمسح هذا الجزء من الشريط الذي به بوح وإعلان يُبثان على الهواء من داخل عمق هذا الوجود.

داخل إحدى الكافتيريات النائية بجوار المتحف الإسلامي بباب الخلق، لجأنا إليها بعد زيارة المتحف؛ أنكرتها ثلاثا أمام مجموعة من الصحفيات، اللاتي يعملن معي في الجريدة، مثلما أنكر بطرس المسيح. وقتها كانت تفرجني على أحد الفيديوهات التي انتهت من مونتاجها، عن عامل نسيج قابلته في الميدان وبدأت تتتبع حياته في قريته في محافظة الغربية ومكان عمله في مصانع المحلة. فوجئت بدخول مجموعة من زميلات سناء في قسم التصوير بالجريدة. شعرت بأني ضُبطت متلبسًا، ليس أمامهن، بل أمام نفسي. كأن هناك شيئا يجب أن يعيش في السر في تلك العلاقة التي تنمو على حواف المدن والمتاحف، وتلك الأماكن الأثرية القديمة التي تستدعي ماضيا أصبح غير موجود. كأننا أردنا للعلاقة أن تعيش داخل حياة افتراضية. حتى المظاهرات لم تكن سوى زمن قديم، هو زمن الحلم، والمجتمع كله في لحظة فورانه وتحوله بكامله إلى هامش مدينة

بلا تقاليد ولا قوانين، كأنه أيضا مجتمع افتراضي. في ذلك اليوم تقدمت الصديقات ناحيتي ليسلمن عليَّ، فتوجهت لهن بكليتي حتى أحجب وجودها، تماما مثل وضع الخسوف للقمر. عند مرور هذه الذكرى الآن على خيالي، لا يتبقى منها سوى صورة هذا الهلال.
لم أتعامل معها بندية، عند حدوث أي سوء تفاهم، أو بسبب أي «كذبة بيضاء» مفضوحة، ولا أعقب؛ حتى لا أخلق نتوءات نفسية من العتاب، تجعل الرءوس متساوية. فالغضب، وليس الحب، هو ما يساوي بين الأعمار؛ لتسير العلاقة بعدها في منحنى خطر من الشد والجذب والعتاب والصلح إلى آخر هذه المشاعر التي توثق العرى بين البشر، تعمق كراهيتهم لبعضهم البعض، كما تعمق أيضا حبهم لبعضهم البعض؛ بحيث لايقدرون على أن يتركوا بعضهم البعض بسبب هذا المزيج من الحب والكراهية الموزع بينهما.
كنت أتعالى على هذا النوع من التعقيب؛ كي أحتفظ بنسبة واحد وخمسين في المائة داخل العلاقة.
الكذب الخلاق كان إحدى أدوات حياتها الفعالة، تصنع عوالم ليس بغرض استعراض ما ليس فيها؛ ولكن لكي تتجاوز ضعف نفسها ومخاوفها وقلة حيلتها. كانت شخصيتها أقوى من هذا النوع الرديء والتقليدي للكذب، فحولت جزءا منه إلى مكان الحلم. كان الكذب أحد أعضائها النفسية القوية، ملكة نفسية توسع بها من عالمها الضيق، وأحيانا يدخل بشحمه ولحمه إلى أرض الأحلام؛ فتكتسب الحقيقة ظلالا ومساحات جديدة وفاتنة؛ حتى تصبح حقيقة محلقة، تصلح كسيناريو فيلم.
كانت بارعة في ارتجال سيناريوهات مباشرة وعلى الهواء لأفكار وصور وأحلام يقظة. تغمض عينيها لثوانٍ ليأتي عالم كامل ومتناسق من مكان بعيد جدًّا في المسافة وفي الحس. لقد منحت كذبها، أو شخصيتها الأخرى، طاقة دافئة وحقيقية من نفسها. الحقيقة كانت ضيفة دائمة على عوالم الكذب والخيال والأحلام. صاغت حقائق وجودها من هذا المثلث وليس من التجربة؛ لذا كان كذبها له حس فطري أصيل.
بالتأكيد كان عذابها ممضًّا، عندما يتغلب الكذب الصرف الفقير، ولَيُّ الحقيقة بدون سبب، أو بسبب تافه؛ على هذا الكذب الخلاق. أو عندما ترى نفسها مجبرة على الكذب، كأن هناك آلة داخلها تريد أن تعكر أي مياه بحبر كائن الحبَّار؛ حتى لايراها أحد بوضوح ويمكنها عندئذ الهرب، وتطمس أي دليل يمكن أن يقوم ضدها. اللحظة القاتلة، التي تندم عليها وتعض بسببها إصبع الندم، عندما تسوقها شخصيتها الأخرى في متاهات معدنية باردة ليس بها خيال. أحيانا كنت أشفق عليها من هذا الصراع بينها وبين تلك الشخصية الأخرى، وأتعاطف مع الشخصيتين اللتين اختلقتهما من الخيال المحض: عزيزة ويونس.
كانت تستقوي بعزيزة ويونس على حدة وسيطرة هذه الشخصية الأخرى بداخلها.
كانت علاقتي بدولت مغامرة روحية بمعنى الكلمة أكثر منها علاقة بالجسد. وربما في هذه السن الخمسينية يتحول الجسد إلى معنى، لممر روحانى به العديد من المرايا، والانعكاسات. داخل هذا الممر الروحاني تذوب أي غريزة ضاغطة بفعل الأضواء والصور المنعكسة من هذه المرايا.
أتذكر دولت الآن، بعد أن جاء المستقبل الذي كانت تخاف منه. جاء سريعا؛ لأننا عجَّلنا به. لا أتذكر سوى مجموعة من الحكايات والمواقف الرمزية التي جمعتنا. ربما أفتقد الرؤية الشاملة التي أراها بها. ربما هذه الطريقة اختارتها الذاكرة؛ لتمنحها رخصة للعيش بداخلي بدون حسم أو خصام. فحكايتي معها تتعدى الخصام، بعد أن دخلت في النسيج الحي للذاكرة، لكلْيْنا، وترقد هناك تنتظر لحظة الاستدعاء والدخول إلى العالم من جديد.

في حكايتنا كنا نربي مجموعة من الرموز الصغيرة؛ لتعيش وتُبعث في سياق حكاية أكبر ورموز حياة أكبر، بدلا من أن تموت وحيدة ومعزولة بانتهاء حياتنا أو بخصامنا. تلك العائلة من الرموز الحميمة صنعت مجالا نفسيّا شجيّا أعيش فيه حتى الآن، وأدندن داخله إيقاع حياتي. وأعتقد أنها صنعت لها أيضا مجالا شجيّا تدندن فيه إيقاع حياتها، وفي أي مكان اختارته للعيش به.

عزيزة ويونس وبهلول

كما كان كذبها خلاقا، كانت وحدتها أيضا خلاقة. ولدتْ عزيزة ويونس من قلب ظلام هذه الوحدة. شخصيتان خياليتان، تظهران فقط لها عند الحاجة الماسة إليهما. لهما جدعنة الأبطال الشعبيين، ويتمتعان أيضا بخفة دم حادة وبلسان ساخر مثلها. كانا مثل بطلين ساخرين من عصور قديمة قذفتهما سفينة الزمن ليعيشا في عصر حديث، وسيندهشان لكل شيء يريانه، أو يلمسانه، وستتولد المفارقة من أن هذين البطلين القديمين هما اللذان سيمنحان، تلك الأشياء التي يقع بصرهما عليها؛ براءتها وقدرتها على الإدهاش. يعيشان ويكبران معها، بدون حواجز أو حدود، ويدخلان ويخرجان من عالمها بدون حواجز أيضا. كانتا تعيشان معها في نفس الغرفة، التي تشاركها فيها ميادة، ولكنها لاتراهما كما تراهما دولت، ثم انتقلا معها إلى كل الغرف التي سكنتها.

كروائي، كنت منبهرا بهاتين الشخصيتين، ووقفت بجوارهما كثيرا عندما كانت تتطاول عليهما، وفاتحتها بأنهما شخصيتان صالحتان بأن يعيشا داخل رواية كبيرة. ربما كنت أحفزها بأن تخرج كل أبطالها المغمورين إلى النور. ولكن كنت أغفل جزءا هامّا في الموضوع، وهي أنها اخترعتهما ليس لصالح أن يعيشا في رواية ويشتهرا؛ ولكن لأنها وحيدة وتريد ونيسا. كانت تتذمر، لو حاولت أن أتحدث عنهما بصيغة الشخصيات الروائية فهذا معناه أنني حولت كل حقائقها إلى ألعاب فنية، وسلبت منها أغلى صديقين عاشا طويلا معها.

عندما أبادرها بالسؤال عنهما: «يونس مريض اليوم»، تنطقها بالفصحى، نطق مسلسلات الأطفال المدبلجة في الدول الخليجية. أو تبادرني «عزيزة طهقانة من يونس»، أو «عزيزة مبسوطة النهارده». كانا يعيشان معنا ويتخللان علاقتنا باعتبار أن ما نعيشه معًا حكاية، فلا مانع من دخولهما أو خروجهما، كأطياف داخل هذه الحكاية. أحيانا كنا نحملهما ذنوبنا الشخصية: «سوف أقتل عزيزة»، «سوف أقول لعزيزة يجب أن تقفي بجانب نفسك»، «قولِي لعزيزة أن تحترم يونس»، «قولي ليونس أن لايستغل عزيزة»، «خذ هذه الهدية البسيطة وأعطها لعزيزة». حوار طويل كان يمكن أن يدور حول هاتين الشخصيتين الخياليتين. وأضفتُ إليهما أيضا شخصية من اختراعي هي شخصية «بهلول»؛ باعتباره الابن غير الشرعي الذي نتج عن علاقتنا الافتراضية غير الشرعية والذي دخل عامه الثالث، خلال علاقتنا، قبل أن نفترق.

كانت الحكاية تتمدد في اتجاهات عدة. كان «بهلول» رمزا لرغبة جنسية غير متحققة، وعندما كنت أذكر اسمه في حديثنا أشعر برغبة تشق طريقها في جسمي وتصل لغايتها. كنا نلجأ لبهلول كقناع لتمرير تلك المشاعر التحتية التي تدور بين أب وابنته، كما تذكرها كتب التحليل النفسي لفرويد.

كنت أربط بين هذه الشخصيات الخيالية، وبين الأماكن التي نحب الجلوس فيها، كلها كانت أماكن روائية، تصلح لأن تكون خلفية ثابتة لحكايات واعترافات سرعان ما سيختفي أصحابها، وتتحول لـ«رواية المستقبل»، والتي سنعيش فيها بوصفنا الأشباح المستقبليين لها. داخل هذه الأماكن كانت تنشط ذاكرتها تجاه لعبتها المحببة، «لعبة الأسئلة»، التي تبدأ بـ«اسأل». عندما يعبر اللقاء بمنحنى الملل، تأتي هذه اللعبة وتبعث فيه الحرارة. كل واحد منا يسأل سؤالا وعلى الآخر أن يرد عليه بصراحة. لعبة في غاية البراءة، وفي غاية القسوة. كانت أسئلة اللعبة تأتي من كل حدب وصوب. كانت تريد معرفة المزيد والمزيد. كان من الطبيعي أن تخرج اللعبة من نطاق الهزار وتدخل في

الجد، وتتحول الجلسة لشباك اعتراف. كانت تتمتع بهذا الشبق الذي يمنحه الاعتراف للنفس العارية، أن تكشف تحت جناح هذه اللعبة البريئة، والاستجواب المبطن بالفرو، عن هذا المكنون المذنب في هذا الآخر الذي يجلس أمامها، كأنها تعريه بالأسئلة. وأيضا لكي تطرح مخاوفها وما يشغل بالها بوصفه جزءا من اللعبة. هذا الالتواء البريء في الطرق التي تستخدمها لتوصيل هواجسها، رسم لي من بعيد وبقلم واهن ضعيف خريطة تلك المتاهة التي تتحكم في حياتها.
كنت أفسر اقترابها النفسي الشديد مني، وخوفها الشديد عليَّ ورغبتها في تعريتي بالأسئلة؛ أنها في يوم قريب سوف تحطم هذا التمثال الذي صنعَتْه لي، لا لشيء سوى أنه حال بينها وبين حبها لنفسها، بل بث السم فيها. أقهقه قهقهة عدمية وأنا أشرح لها هذه النبوءة. كنت أمنحها عن طيب خاطر كل الإجابات، وليست الأسرار، التي تخص حياتي؛ لأنها ستتعذب كثيرا في المستقبل القريب، ليس فقط بعد تحطيمها لتمثالي، ولكن لتحطيمها كل التماثيل وانتظارها في أرض معبدها خالصة لعبادة نفسها بدون أي أوثان.
كانت الجملة الأثيرة التي تنهي بها حوار ما بيننا في التلفون، أو في رسالة على الفيسبوك: «لما أشوفك هبقى أحكيلك». هذه الجملة التي تؤجل الحكاية التي لن تكتمل. كل حدث يمكن أن يتحول في حياتها إلى حكاية. لم أرَ أصالة في مخيلة كما وجدتها في مخيلة دولت. كنت ألهث وراء مخيلتها وهذا الجزء المبدع والأصيل فيه. أنتظرها مثل انتظار شهريار لشهر زاد أن تكمل الحكاية، تأجيل الحكاية هو فعل النجاة، بينما الانتهاء منها هو فعل الموت. فتظل الحكاية مفتوحة، تتفرع كشجرة، أو كجذور تتمدد داخل الأماكن والتواريخ. ولكنها هي أيضا التي ستنهي الحكاية؛ لأنها تتعجل الموت، وسيطيح مسرور السياف برقبتها. كان شهريار وشهرزاد في جسد واحد، ليلًا ونهارًا، شمسًا وقمرًا، من تحب الحياة وتطمح في امتدادها، وأيضا من تحب الموت وتطمح في إنهائها.
عندما كانت تذكر كلمة «الحكاية»، أشعر بهذه الفوهة السوداء التي ستبتلع أعمارنا وتستمر الحكايات من بعدنا. عندما كانت تتكلم عن أي «حكاية»، كانت ترى المستقبل، بينما نحن، أنا وهي، غائبان عنه. ليس فارق السن بيننا هو ما كانت تراهن عليه، ولكن فارق سن أخرى، بينها وبين الزمن، كمرور قرن في أثناء الحكاية، يختفي فيه كل من تعرفهم، ومن ارتبطت بهم وبتفاصيل حياتهم. زمن الحكاية كان بمثابة خلاص شخصي لها، كزمن «أهل الكهف» الذين ناموا في أثناء سرد الحكاية، وصحوا كأنهم ناموا لحظة، عبرت فيها المأساة ونجوا.
المستقبل بالنسبة إليها عبارة عن «كُبشة سنين» غير محسوبة بدقة؛ لذا كنت أشعر معها بتساوٍ في العمر، أمام الزمن العملاق الهارب دوما. كانت تملك شيئا معتقا في روحها يجعلها تتساوى في العمر مع أي شيء سابق على وجودها.
كتبت لي في إحدى رسائلها المؤثرة، عندما كنت مسافرا في مهمة صحفية خارج مصر. بأنها تشعر بأنها ستموت صغيرة. بدأ هذا الإحساس يسيطر عليها بعد وفاة أمها، وأكسبها عقيدة محارب في الحب لا يخشى شيئا. حتى ولو لم يصدق هذا الإحساس، فمن يعشْ ويؤمن به فسيربي داخله حتما «آخر ميتا»، مثل الأيقونة التي ينهار إطارها، وتخرج الروح المحبوسة فيها. هذا «الآخر الميت» كان ينازل المستقبل، والخبرة، والعمر، والحب والمغامرة، كان أقوى من كل هذا. أوقات كثيرة كنت أشك بأن ما أسمعه ليس صوتها، بل صوت قرين عمره مائة ألف عام، جاء من حياة

سابقة وعاش داخلها. ربما هذا القرين المسن هو الذي كان يرفض أي شبيه؛ لأنه زهق من الحياة، واكتشف لعبتها مبكرا، ويرفض أي توأمة له.

كتابة على حائط «التمبلر»

«أشاهده على المكتب يقرأ وحوله ستائر من دخان السجائر تعزله عَمَّا حوله. أتسلل من الخلف، أضع رقبتي على ترقوته بهدوء خوفا من أن يفزع. أسحبه بأنفاسي الملهوفة، أشم عطر فمه المحشو بالسجائر، أتمهل في كل خطوة حتى لاتكون النقلة مفاجئة، يبدأ في الانتباه لهدفي من هذه المناورة، يقف، يضع الكتاب والأوراق جانبا، يجذبني إليه بقوة، يضع سيجارته التي لم ينتهِ منها بعد في الطقطوقة؛ على أمل أنه سيعود إليها سريعا. ألمس انتصاب عضوه، أشعر بسعادة غامرة، أسحبه للسرير، أبدأ في فك أزرار قميصه، وندخل في غرام عارم، بينما رماد السيجارة يتساقط داخل تجويف الطقطوقة الزجاجية».

نسخة من قصة حياتي

شعرت بأني أودعته قصة حياتي كاملة، من كثرة الحكايات والأسرار والأفكار والضحكات التي تبادلناها. ربما كنت أسعى لهذا بدون إرادة واضحة سوى الاحتفاظ بنسخة من حياتي في مكان آمن، لو ضاعت النسخة الأصلية أو تعرضت للتلف. في إحدى المرات عرضت عليه نصّا وتصريحا بأن يكتب قصة حياتي ـ وربما هو يفعل هذا الآن في مكان ما ـ وأعطيت له تصريحا شفاهيّا بأن يستخدم كل أبطالها وأسرارها وخيباتها، بدون خوف أو خجل من لوم مستقبلي؛ لو شكَّلت له ولكتابته أي أهمية. كنت أريد أن أرد له هذا الجميل باستماعه واهتمامه وحبه لي. وفي الوقت نفسه حدست بأن هذه الهزة التي تعرضت لها روحي وحياتي، في تلك الفترة المكثفة، منحتني بريقا في عالم الفن والحكايات.

أسراري، الحقيقي منها والخيالي، هي ثروتي الوحيدة التي كنت أقدمها له كل يوم على طبق من ذهب، أمنحه الفرصة بأن يتجول في أنحاء نفسي، وأنا مطمئنة، مغمضة العينين، لهذه العين الأخرى التي تستخرج الأشياء النفيسة بدون أن تخلف ندبات تذكر. بالتأكيد لن تكون هناك أحداث درامية في حياتي، ولها هذا المذاق الحراق والتأثير القوي، توازي أحداث هذه السنوات الثلاث الأولى للثورة. عندما كنت أختلس النظر وأدير الشريط السينمائي لأحداث حياتي وأحداث البلد، فأشعر بقشعريرة لصدق فيلم الثورة، ولهذا التداخل الشبحي بين الاثنين. وكذلك التداخل الشبحي بيني وبين «محسن»، والذي لم يكن يحدث إلا بسبب هذه الطاقة المجنونة التي ولَّدتها الأحداث.

أرسلت له على الإنبوكس إحدى تدويناتي اليومية على حائط صفحتي «وادي المستضعفين»، على مدونة «التمبلر». لم أعرف طريقة إرسالها بمفردها، دون باقي التدوينات التي بدأت في كتابتها منذ بداية الثورة، فأرسلت له وصلة المدونة كلها، شارحة له نيتي الأصلية في أن يقرأ التدوينة التي أرسلتها فقط، ثم ألحقتها: «ولكن لا يمنع هذا من أن تقرأ باقي التدوينات».

أرسلت لمحسن دعوة مفتوحة للمشاركة في أدق أدق تفاصيل حياتي، وأسراري، وتحولات حبي لمصعب وانكساراتي معه أيضا. بالإضافة إلى يومياتي معه؛ محسن، والتي تخص زياراتنا للأماكن الحميمة والأثرية، وبعض مقولاته التي كانت تحفر في ذاكرتي. هذا الجزء الاعترافي المدون والمكتوب، الذي لايظهر في أحاديثنا الشفاهية، والذي أقوم بكتابته في خلوتي. كنت أيضا أريد أن أحتفظ بنسخة من حكاية هزيمة حبي وتفاصيلها لو ضاعت النسخة الأصلية للحكاية أو تشوهت بسبب هزيمة الثورة التي ستأخذ كل شيء في طريقها. أردت أن أجعله الشاهد على نهاري وليلي، على وعيي ولاوعيي، كذبي وصدقي، قبل أن أمسح هذه الصفحة، وأنثر رمادها على النهر المقدس للماضي، عندما يعبر إكسبريس الثورة ويأخذ معه جو المصارحة والاعتراف، ونعود فرادى لفقاعاتنا الذاتية ولبيوتنا الحريرية الوثيرة.

صفحتي على مدونة «التمبلر» كانت قدس أقداس أسراري، كان يتسلل إليها ليمضي بها أوقاتا طويلة، فالسر المدون كان له سحر وجاذبية أكثر من السر الشفاهي. كانت الصفحة بمثابة العقل الباطن لكل منا، كلانا كان يبوح من وراء ستار. لا يترك أثرا ولا كلمة ولا حرفا دون تدقيق، يتشرب بيومياتي، وبصور اخترتها لنساء تظهر أجزاء حساسة من أجسادهن، وبمقتطفات الأشعار، يكشف مستقبل أفكاري؛ ربما ليتدخل في الوقت المناسب ويمنع الأقدار السيئة داخل سفينة خيالي الجانحة.

بدأت ألعب معه، داخل قدس الأقداس هذا. أحيانا أضع أفكارا مخيفة عن نفسي، وأحيانا أؤلف حكايات غرامية لم تحدث، وعذابات اختلقتها؛ كي أجعله مشدودا لهذه الحكاية بدون ملل.
كنت أسمع صوت أنفاسه وهو يتجول في قدس أقداسي، أعاين هذه النقطة التي يقف عندها داخل غرف هذا العالم الافتراضي، أحس بملمس عينه وهي تتحسس جلد الحروف والصور والأحاسيس التي أكتبها. عند عودتي للصفحة ليلا أشعر بأن غريبا مَرَّ عليها، في غيابي، ووضع فيها لمسته، كعبور لص داخل بيت. كانت هذه الإغراءات الجسدية، مثل الدقيق الذي أرشه في الطريق وأعاين بعده آثار أقدامه ومسارها وهي تتجول داخل غرف الصفحة وأسرَّتها وغرامياتها. أحفر حفرة وأموّهها بالأحاسيس الملتبسة ليسقط فيها. ظل يلازمني هذا الإحساس الشبحي، والتجسس على حياتي، في علاقتي بمحسن. أحيانا تخيلت أنه شخصية غير موجودة، ولاتعيش إلا في خيالي فقط، مثل عزيزة ويونس؛ لقوة حضوره داخل قشرة نفسي، بحيث لا أقدر على الفصل بينهما. تخيلت أن هذا الكون الأثيري الذي يجمعنا ربما كان امتدادا لحياة أولى كنا فيها حيوانات، ثم تناسخنا في هذه الصورة الآدمية، ولم يكن هذا الفارق العمري في الحياة الثانية، إلا للتمييز بين الفراشة التي تناسختُ منها، والغزالة التي تناسخ منها.
كنت خائفة من أن أفقده، لم أكن لأتحمل أي خسارة في ذلك الوقت؛ لذا كنت أشجع رحلة تجسسه داخل مدونتي، ببعض التذكارات المغرية التي يتعلق بها رجل مثله في الخمسين. أدفعه ليفكر بي، أو على الأقل أحتل جزءا واسعا من خياله؛ لتكتمل صورة تمثالي داخله، خطوطه الخارجية، والداخلية معا.
بين الفينة والأخرى أرسل بالونات اختبار، مثل وصفي لعلاقة غرامية مع مصعب، أو تجسيد إحدى حالات الاكتئاب، أو تدوينة حزينة أريد منها استرجاع أمي. أنتظر عندما نتقابل ماذا سيقول، هل سيقرأ أيضا من تلك البلورة السحرية، أم سيبتلع السر نهائيًّا داخل بطن السمكة، أم سيراني فتاة لعوبا أو شرموطة رمتها الثورة على شاطئها كالحيتان النافقة؟
بدأت أشعر كأني أتقيأ حياتي في وجوده. كنت متخوفة من ألَّا أحتفظ لنفسي ولا لحياتي القادمة بجزء من أسراري وأحداث حياتي الهامة، تلك البذرة الطبيعية التي ستكبر بعيدا عن ضوء الاعتراف القوي. كنت أخشى أن يحمل وحده أسرار كوني، فتزداد سلطته وتحكمه في روحي ويزداد معهما خوفي من غيابه. كانت درجة توغله داخل روحي تنذر بالخطر.
كنت أشم رائحة عرقه عن بعد، كما كنت أفعل وأنا صغيرة عند عودة أبي من العمل. أتلصص بحواسي كلها على دائرة العرق الناشعة على قميصه، تحت إبطيه، لتنفذ عبر سنين لتصل لمركز حواس تلك الطفلة التي يحملها أبوها إلى السرير ورائحة عرقه تتسلل إلى نومها.
في أوقات أخرى، كنت أشعر بأن مصعب أيضا لا يكتفي بعلاقته معي، ولكن أيضا كان يقفز داخل خيالي ويتجسس عليه. لم أكن أتبادل أفكارا كثيرة مع مصعب، كما أتبادلها مع محسن. كنت أشعر بلذة عقلية من أفكار محسن وطريقة تفلسفه، بينما أشعر بلذة جسدية مع مصعب.
كنت أيضا أصنع بعض الشراك لمصعب داخل المدونة. ربما أثرت غيرته من علاقتي بمحسن ـ حرصت على ألّا يتقابلا أبدا إلا داخل صفحتي على المدونة ـ ومن طريقتي الشاعرية في الحديث عنه بالرغم من عدم ذكر اسمه، داخل صفحة المدونة، إلا بالإشارة للحرف الأول منه «م»، والذي هو أيضا الحرف الأول من اسم مصعب! كنت أرى مصعب يقف في النقطة نفسها التي يقف فيها محسن في فضاء التمبلر، أو بالقرب منه، مع مرور الوقت تداخل الشبحان، وتداخلت

الروائح والعيون التي تبرق في الظلام من وراء الشاشة المضيئة، وبدأت أشعر كأني في علاقة جنسية ثنائية.
ربما السر الوحيد الذي لم أشأ أن أخبر به «محسن»، هو عملية الإجهاض التي أجريتها. كانت فترة في غاية القسوة بالنسبة إليَّ، أتصل به يوميًّا وأبكي، أريد فقط أن أسمع صوته بدون أن أتكلم أو أبوح بسبب هذا البكاء. كان أيضا مشغولا في تلك الفترة بتغطية أحداث عزل محمد مرسي. حرصت على ألا نتقابل في تلك الفترة، التي قضيت جزءا كبيرا منها في بيت رباب، إلا بعد زوال حالة الهزال من وجهي، ومن روحي، وعودتي لامتلاك إيقاع حياتي. كنت متيقنة من أني لو جلست في مجال هذه الدائرة الإنسانية الدافئة التي يرسمها حوله، لاعترفت أمامه بكل ما حدث.
كان بداخلي كرسي أبوة شاغر، مهما حاولت أن أتخلص من هذا الشعور وهو ما كان يعطل حركتي ويجعلني أنظر إلى الخلف دوما، وأخلط بين شعوري تجاهه وشعوري تجاه أبي، فتتعقد الأمور. كل من قابلته في هذا الوقت الحرج من حياتي، بعد خروجي من البيت؛ كانت له «نفحة» من هذا الأب الجديد القديم، الذي أحلم به، بكل ما في الكلمة من حنان ورغبة وسيطرة وعناد وغموض. أب، أرغبه وأخشاه. لقد تفاجأ أبي الحقيقي بأنوثتي، خارج الحجاب وسلطته. صارت، أنوثتي، عبئا عليه يريد أن يتخلص منها ويهينها بأسرع ما يمكن. أما أبي الجديد فلم يتفاجأ، بل جئت له أنثى ناضجة كاملة الإثمار، ولكن محطمة النفس؛ لذا كانت كل الثمار التي سقطت من جسمي مُرّة ومحرمة وغير قابلة للأكل.

الحذاء المقطوع

كل بيوت الأصدقاء تحولت، في أثناء الثورة، إلى بِنسيونات تأوي العديد من الغرباء، لا يجمعك مع الفتاة التي تنام بجوارك، أو الأخرى التي تنام على الكنبة المقابلة، سوى الشخير والطعام والعيون التي تبرق في الظلام، والثورة التي تدور في الخارج بإيقاع ممل ورتيب ومكرر وبلا مفاجآت كأنها فيلم شاهدناه عشرات المرات. لو صادفت النوم عند إحدى صديقاتي، لكنت أسلك مثل الريفيين الذين يضعون أحذيتهم تحت رءوسهم حتى لا تُسرق وهم نائمون. كنت أضع الحذاء في ركن قريب مني ولا أخلطه بصفوف الأحذية المتناثرة في زاوية الغرفة أو بجوار باب الدخول؛ لسبب غير خوف الريفيين من السرقة؛ حتى لا يرى أحد هذا الثقب الكبير، الذي أخذ يتسع مع توالي السير في المظاهرات.

يشكل الحذاء بالنسبة إليَّ أهمية كبيرة، مثل القميص المكوي الأنيق عند مصعب، وجاكت الكتان عند محسن. درجة من الراحة والأناقة لايمكن أن أتنازل عنهما في اختياراتي لأحذيتي. هذه الأناقة كانت تتطلب مبلغا كبيرا من المال لم يكن متوفرا معي في ذلك الوقت. ربما أسير جائعة ولكن لا أتنازل عن جودة وراحة الحذاء. كان يمنحني ثقة حتى ولو لم أكن أملك أي نقود في حافظتي، يكفي هذا المركب الجلدي الأنيق الذي أبحر به وسط شوارع القاهرة القذرة بدون خوف.

ظل ثقب الحذاء، سرًّا، لا يمكن أن أفضحه أو أبوح به ولو لأقرب الأصدقاء. كان اعتزازي بنفسي مبنيًّا على مجموعة من الأشياء البسيطة والأسرار؛ منها الحذاء، أو الثقب النفسي الذي أود مداراته. يمكن أن أعلن أمام الجميع بأني مفلسة أو جائعة، ولكن لايمكن أن أعلن أمامهم أن حذائي مقطوع، وأني أحتاج لنقود لآتي بآخر جديد. إنها درجة قاتلة من الإهانة.

كان مصعب مسجونا في ذلك الوقت في إحدى قضايا التظاهر، ورباب مسافرة مع أهلها لخارج مصر. ولا يوجد من ألجأ إليه وأطلب منه نقودا. كنت أخجل من أن أطلب نقودا من محسن، بالرغم من تيقني بأنه لن يردني، ولكن كنت أحب في نفسي، بل أثمِّن، هذا الخجل والتعفف. هناك أناس يمكن أن تكشف جِسمك أمامهم ولكن لايمكن أن تكشف أمامهم ثقب الحذاء.

بعد خروجي من البيت واستقلالي بحياتي واعتمادي على نفسي في كل أموري الشخصية، أصبحتْ أصغر تفصيلة في حياتي مهمة في نظري ولها حضور قوي ومؤثر وتسبب لي أرقا. كل شيء أصبح له تاريخ انتهاء وزوال: الحذاء، القميص، البالطو، البوت الجلدي الطويل، ملابسي الداخلية، علبة الشوكولاتة، دفع اشتراك النت، فاتورة الكهرباء. أصبحت أسمع صوت مؤشر المنبه للقنبلة الموقوتة المعلق في كل ملابسي وأشيائي والعدادات وشاشة اللاب توب: «تك.. تك.. تك»، معلنا عن مرور الزمن واقتراب هذه الأشياء من النهاية. أي شيء كنت أخسره في ذلك الوقت لم أكن أملك ترف تعويضه.

بالرغم من أن كل مقابلاتي وكلامي وحواراتي مع محسن كانت مهمة، بداية من معرفتي به، فإن هذه المقابلة التي بحت فيها بسر ثقب الحذاء كانت من أهم المرات التي تكلمنا فيها وشكلت نقطة تحول. شعرت بعدها بأنه وصل لمكان بداخلي لن يصل إليه أحد، كأن هذا الثقب النفسي أطلعه على الغرفة الأخيرة الموصدة في نفسي. ضحك حينها كثيرا، وأخبرني بأنه أيضا بدأ حياته من مرحلة «الحذاء المثقوب» الذي كان يعتقد بأنه يخفيه عن جميع أصدقائه في تلك الظروف الغريبة

التي كانت تجمعهم في أثناء سني الجامعة. وعرف بعدها أن الجميع كان يراه لأنه، بحرصه الزائد هذا، جعلهم يلتفتون له. ظل ثقب الحذاء، كما قال، مثل عين تنظر له أينما ولى وجهه.
انتقل حديثنا في ذلك اليوم إلى ثقوب أخرى هادئة كانت تطل منها عيون تراقبني، كنت أتنقل بينها وللمرة الأولى، بدون أن أبكي، أو أشعر بوخزة الإبرة وهي تشك قلبي. ربما هدوء محسن الزائد، وعدم وجود طاقة سلبية بداخلي، جعلا للكلام حينها مزاجية مختلفة. برغم ألم قدمي الذي سببه هذا الثقب، والتراب الذي كان يحوشه داخل الحذاء؛ فإن روحي كانت مجبورة تماما. أخذ يحدثني يومها عن التحولات التي طرأت على حياتي بعد خروجي من البيت، ويثمن لي طريقتي في احترامي لمبادئي الخاصة في الحياة وعدم تخلِّيَّ عنها في حياتي الجديدة. أحيانا كنت أشك في صدق كلامه، وأشك بأنه يقوم باستمالتي نحوه بهذا الإطراء، فكيف لا يرى كل الثغرات التي تتخلل علاقتي به؟ كنت أشك في أنه لا يراني جيدا، من كثرة تشجيعه لي. ربما كان يريد أن يجرفني بهذا التشجيع بقوة حتى أنتقل للضفة الأخرى من الحياة الجديدة، ويثبِّت أركان هذا التحول الذي كان هشًّا ويمكن أن يحدث له نكوص. ربما كان يفكر بهذه الطريقة.
في هذا اليوم حدث شيء غريب منه، نظر إلى حذائي وطلب مني أن أخلعه ليرى قدمي المصابة، التي كنت أزكُّ عليها؛ ليطمئن لعدم وجود صديد أو جرح. كنا في إحدى الكافتيريات القريبة من ميدان التحرير. اندهشت لطلبه، تشممت من بعيد رائحة تحرش ولكنها ذكية وناعمة للغاية. كان يقول طلبه بنبرة متعالية، كأنه يلبس بالطو أبيض ويضع جوانتي العمليات في يده وتفوح منه رائحة اليود. كنت مُدرَّبة على التقاط أثر التحرش من على بعد أميال؛ بسبب إحساسي الدائم بأني فريسة مطاردة تقف في مرمى سهام مجتمع جائع. ربما كان يريد أن يقوم بغسل قدمي كما غسلت مريم المجدلية قدم المسيح المدماة. واتتني قوة وحماسة بأن أخلع الحذاء وأكشف قدمي أمامه، وأمام كل رواد الكافتيريا. كنت أريد أن أحقق له رغبته. كانت أصابع قدمي، في البداية، منكمشة من الخجل. شعرت بعينه تنزلق بحنو على قدمي، وبيده تزيل الوسخ والألم معا. ألمت بي رعشة جسدية كأني داخل علاقة جنسية، تتم عن طريق هذه اليد التي تلمس باطن قدمي.

كتابة على حائط «التمبلر»

«النهارده زرت مع «م»، مسجد مولانا «ابن الفارض»، كنا راكبين التاكسي من السيدة عيشة، قبلها كنا بنتمشى في سوق الإمام، جالي خاطر في دماغي. وقَّفت التاكسي عند مدخل طريق «الأبجية»، الجبل كان باين من بعيد. مشينا في طريق طويل ضيق ومليان تراب مخلوط بجير أبيض، عدينا على دكاكين وبيوت ومدافن، لحد ما وصلنا للمقام جوه جبل المقطم. في.. «وادي المستضعفين» كإننا كنا ماشيين في شرايين صغيرة توصل في النهاية للقلب. زرت المقام كذا مرَّة مع رباب في المولد قبل الثورة.

أول ما دخلت الوادي، حسيت بهدوء وطمأنينة وبحالة دوبان في كل اللي حواليَّ. قعدنا نتفرج على القاهرة من فوق الجبل، المساجد والقبب والمآذن، والبيوت المتعشقة في بعضيها، افتكرت اليوم اللي طلعنا فيه المدنة الخشب في مسجد ابن طولون، ودخَّنَّا سيجارتين حشيش فوق بيوت حي السيدة.

افتكرت الوادي اللي زرته مع رباب في شرم الشيخ قبل الثورة. نفس حالة الانسجام مع الكون. قعدنا ساعة ونص تقريبا ماشيين بالجمال، وسط ممرات ضيقة جدًّا بين الجبال. كنا تلات جنسيات؛ بنتين من كرواتيا وراجل صربي خمسيني ملامحه شرقية خالص. لحد ما وصلنا الوادي المقصود، مرة واحدة الذاكرة اتمددت قدام الاتساع المهول اللي ظهر قدامنا، بعد ما كنا محشورين جوه الممرات الضيقة. بقعة بيضا بريئة تماما. حسيت إني بره أي فقاعة عشت فيها، راح الإحساس بالألم اللي كان بيلازمني دايما في السفر. كان الوادي زي آلة لتفريغ كل خطايا الذاكرة، وإعادة حشوها بالاتساع والهوا والرمل، زي ما بتتحشي بطون المومياوات الخالدة.

لما دخلنا الوادي المسحور ده، كل واحد مننا راح يقعد في حتة، بكينا كلنا بكا جماعي من غير اتفاق، بكا من غير ألم، بكا العين اللي انفجرت جوانا في لحظتها.

طلع علينا شوية عيال صيَّع بيعرضوا إنهم يفرجونا على المساجد الأثرية المنحوتة في الجبل. وافق «م»، يمكن عشان يتقي شرهم، ورحنا معاهم مسجد مش بعيد من مقام «ابن الفارض»، اسمه مسجد «شاهين»، بعدها رحنا مسجد تاني له اسم ظريف جدًّا «الست لولو»، مش عارفين لحد دلوقتِ إن كانت الست دي هندية أو باكستانية، بعدها فرجونا على مسجد تالت نسيت اسمه، مش باقي منه غير القبة.

«وادي المستضعفين»: سمعت عنه كتير قبل كده من منسي. أثَّر فيَّ الاسم جدًّا وحسيت إنه يخصني جدًّا. إتخيلت مكان بيتجمع فيه كل المستضعفين في الأرض، عشان لما يتجمعوا مع بعض ضعفهم هيتحول لقوة.

لما جيت مع رباب قبل كده،حسيت إني مفصولة عن كل حاجة، كأني دخلت جوه فقاعة بس فقاعة واسعة جدًّا جدًّا، بحجم الكون. أول مرة أستلذ بضعفي وهشاشتي، بقيت زي حتة حلاوة مارشميلو دايبة على لساني.

التراب كان مغطي البيوت، وشريط دخان طالع من بعيد. زي عادته في كل الأماكن العالية، طلَّع سيجارة من العلبة المعدن، مد إيده بيها ناحيتي، شاورت له بإيدي «يعني بلاش يعني»، العيال الصيع كانوا بيبصوا علينا من بعيد، خفت بجد ليثبتونا لمَّا يلاقونا بنشرب بانجو. طلع فوق صخرة

قريبة مني، وقعد يدخن السيجارة، ورحت قعدت جنبه، ولزقت فيه، «ماتزعلش يعني»، ضحك، وقعدنا ساكتين نكلم ربنا من فوق الجبل.
وبعدها انطلقنا سعداء إلى إحدى الكافتيريات اللي جنب ميدان التحرير».

الثورة والصوفية

الشقوق التي بدأت تكبر في علاقتي بمصعب، أثرت تلقائيًّا على علاقتي بمحسن. هناك شجرة للحب كلنا معلقون بها: أنا ومحسن وسناء زوجته ومصعب. بالرغم من أن مصعب لم يقابل قط محسن، ولا أنا قابلت سناء، ولكن داخل هذه الشجرة الافتراضية كان يحدث التفاعل. أحسست بعبء هذه العلاقة، كأنني كنت مضطرة لها بدون أن أعرف سببا لهذا الاضطرار. بالتأكيد لم يكن السبب فقط كبر سنه واختلاف تجربته عن تجربتي. شعرت كأن هناك ستارة انزاحت وكشفت عن هذا الإحساس وهذا الفارق في العمر، اللذيْن كنت أتعامل معهما بشكل شعري حالم. كانت العلاقة محمولة على ثلاثة أضلاع وغياب أحدها يعني سقوطها وتكسر قواعدها. ربما سبَّقت بقراري هذا، عندما شعرت بأنه لامحالة سيتخذ القرار نفسه، وسيهجر هذه العلاقة الاستثنائية التي نمت أيضا في ظروف استثنائية. فقد تكررت في الآونة الأخيرة أحاديثه عن زوجته وتأكيده على التاريخ المشترك القوي الذي يجمع بينهما، ربما بدأ يشعر بخطأ ما تجاه زوجته ويريد أن يكفر عنه بأن يذكِّر نفسه ويذكرني بهذا التاريخ. زرع حبه لزوجته وسط ميثولوجيات وأساطير وعقد ذنب وتطهير وأديان وأضحيات. كان حبه هذا أحد وجوه إيمانه الصوفي المتسامي. ربما أحببته بسبب هذا الخليط بين الحاضر والماضي والمستقبل والخيال والأساطير داخل إيمانه.

هل كان يرى نفسه بطلا إغريقيّا يبحث عن مأساة ليبدأ بعدها رحلة سقوطه وتكفيره؟ هل كان يفكر في أنه يخون زوجته مثلا؟ لو صح هذا، فهو مريض، أو نموذج قديم للبطل، الذي يريد دوما أن يقف في مكان من يطلب المغفرة، وعلاقته بي تخضع لهذا الذنب الذي يستدعي المغفرة. كنتُ «الذنب الكبير» الذي يربيه في تلك الفترة الاستثنائية، وربما لن يتعثر بعد هذا في ذنب له كل هذا التألق والشعرية والبريق.

مع تضخم الذنب، شعر محسن بأن هذه «المغامرة» يجب أن تتوقف. «المغامرة..المغامرة.. المغامرة»، دائما ما كان يروج لهذه الكلمة، هي وكلمة «المخاطرة»، من خلالهما يكتشف الإنسان نفسه كما يقول. ربما دعاني لهذه المغامرة كي أكتشف هذه النفس الأخرى التي تعذبني. لقد أخلصت للمغامرة حتى نهايتها، أما هو فلم يكن يعرف قيمتها، وتراجع خوفا من السقوط. عرفت قيمة المغامرة لأني كنت أعيشها بكل وجداني وليست لي سوابق في هذا الطريق، فكان كل ما يحدث من كوارث ومفاجآت، أعتبره جزءا من هذه المغامرة، فالمغامرة، كما أدركت عبر تجربتي، هي حياة كاملة، ليست لها حدود تقف عندها، ولا تنتهي إلا بالموت، أو بكارثة، أو انفجار يعيد ترتيب مدارات الحياة الشخصية.

بدأت أبحث عن ذات عليا لتذوب فيها روحي المحطمة والتي سقط منها عمودان أساسيان. لم أجد أمامي من شلة أصدقائي الذين يمكن أن أثق بهم، بدون أن تكون الثورة هي المشترك بيننا، سوى «منسي». كنت أثق في اختياراته لحياته؛ لأني أعرف أنه لا يريد تحقيق أي مكسب في حياته سوى أن يشعر بجدواها، يفعل الأفضل دون انتظار النتيجة؛ ليعيش دائما في مستوى «صفر ضغوط» و«صفر توتر» كما يقول. كان «منسي» مواظبا في حياته على ثلاثة أشياء: الوظيفة المحترمة التي تناسب ما دفعه أهله في تعليمه، وحلقات الصوفية، وأخيرا تدخين الحشيش والبانجو. كل منها له زمنه الذي لايتداخل مع الزمن الآخر أو يؤثر عليه، كأن حياته وظيفة مقسمة على ٣ نوبتجيات يقوم بها جميعا بنفس الكفاءة والحماس.

اجتذبت الحلقات الصوفية العديد من جيلي في أثناء الثورة؛ ربما لتستوعب إحباطات الواقفين على بابها، أو المطرودين من جنتها؛ هؤلاء المثاليين الذين يبحثون عن «ذات عليا» يثقون بها ويتبادلون معها الأمل. ما شجعني على خوض التجربة، بجانب وجود منسي، هو حضور هذه «الذات العليا» داخل هذا التجمع ورغبة الجميع من «الطبقات العليا» أيضا، في الاندماج فيها! كأننا نتسلق جميعنا حبلا واحدا للإنقاذ، تتعلق به كل الطبقات والأعمار.

كان البرنامج يضم درسا دينيّا يقدمه صاحب البيت، ثم نبدأ بعده النقاش، ويُختتم اليوم بقراءات جماعية من المصحف، تتوالى داخل هذه الدائرة التي نشكلها بأجسادنا وأصواتنا مع ترنح خفيف، لكل منا، داخل حيز الكراسي، يصل أحيانا لدرجة الوجد الأرستقراطي المتحفظ، والذي يزداد مع الوقت وتصبح الكراسي على وشك الطيران، ومعها يطير هذا الوجد الذي يتخفف من طبقيته قليلا، وينطلق في أراضٍ غير متوقعة من اللاشعور. كنا نتجمع في نهاية اليوم حول مائدة العشاء الفاخر الشهي. كان رواد هذه الحلقات موزعين على كل الطوائف والطبقات المميزة، ما بين رجال أعمال وأصحاب نفوذ، وأصحاب كرامات، وشباب وشابات من عمري وأكبر قليلا. ولكن ما يجمع بين كل هؤلاء هو إخفاء الخرقة الصوفية تحت طبقات من الملابس الأنيقة ذات الماركات الشهيرة.

في البداية، مثل أي بداية، تشعر بأنه عالم ساحر شفاف ولاتوجد أي حواجز تمنع الوصول لأي شيء. ولكن مع الوقت تظهر الحواجز اللامرئية، التي ترسم خريطة البيت، وتحدد لك المكان الذي ستشغله وسط هذا الزحام والتدافع حول «الذات العليا». صاحب البيت، هو من يملك مفاتيح المرور، وتخطي كل الحواجز. حدث بيننا استلطاف بعد تعدد مرات حضوري. في البداية كان يراقبني من بعيد. عندما قدمني إليه منسي، عرَّفني أمامه بأني إحدى الشابات الثوريات، ربما هذا أخَّرَ التعارف الحقيقي. دعاني لمكتبه، الذي يقع في نهاية الممر الذي يشرف على الصالة وصالون البيت حيث كنا نقيم جلستنا. كان يريد أن يسمع مني أكثر عن نشاطي وحياتي الخاصة، وربما خاف أن أكون مدسوسة من أي جهاز أمني، فقد كان يثق بقدرته على كشف الأسرار المخفية حتى في بطون الأسماك!

لعبت معه نفس اللعبة التي لعبتها أحيانا مع محسن، أو مصعب، فتحت له صندوقا احتياطيّا للأسرار المستهلكة؛ كي أمنحه بعض الثقة في بصيرته، وأبين له مدى خضوعي لهذه «الذات العليا»، التي يمثلها هو في هذه الجلسة الثنائية، والتي تملأ كل أرجاء البيت، مع الضوء الاعترافي لأباجورة الورق اليابانية هرمية الشكل الموضوعة على المنضدة بجوار مكتبه. كانت هناك أسرار وآلام خط الدفاع الأول. يمكن أن أخسر هذا الخط؛ في سبيل أن أكسب ثقته التي ستحدد لي موقعي وسط هذه الحلقة الصوفية.

كان صاحب البيت، الذي يسير في عقده السابع، كما حكى لي منسي، من الذين أصابوا ثروة قدرية مع ثقافة رفيعة، ترجع للنسب العائلي التليد الذي بدأ تكوين ثروته مع العطايا التي كان يوزعها الباشا محمد علي على رعاياه، فكان أحد أفرادها يقف على ذؤابة شجرة عائلته، واستمرت الثروة تنتشر في شرايين وعقول وجذور شجرة العائلة إلى أن وصلت لصاحب البيت، والذي أزال منها رواسب التفوق والاستعلاء اللذين تشتهر بهما العائلة، وأدخل مكانهما هذه الثقافة الصوفية، وهذه «الذات العليا»، ولكن المشوبة أيضا باستعلاء، والمحاطة بصفوة مجتمعية.

كانت «الذات العليا» التي تطفو فوق الجلسة، جيلًا جديدًا من الروحانية الطبقية، ولكنه أضاف إليها خبرات حقيقية وأفكارا تأملية، وحقائق ثاقبة، أتاحها له هذا المكان القوي والسيادي الذي

يشغله وتلك الأراضي الواسعة التي ورثها، بفلاحيها، في إحدى قرى الدلتا، ويقوم بإدارتها بنفسه، يسير فيها الهوينى بعربته وسائقها ليحصي خلالها بدقة عدد حبات رمل هذا الوطن.
لأن الثروة كانت مربوطة بالطين والأرض ودورة إنبات مكررة، فكان هناك جانب أرضي في هذا الاستعلاء وهذه الذات العليا، مرتبطًا بالطين وبالزراعة وبعث البذور. ربما هذا الجانب دفعه دفعا تجاه الصوفية، والبحث عن تلك الذات الخالقة التي تقف وراء الحياة، وتحول الموت إلى حياة. منحه الطين سر الخلق، وأحيا صورة «آدم» القديم ومعجزته، التي كان يراها في كل شيء من حوله، من نبات وحيوان وأشجار. كل شيء «آدم»، كل نبتة آدم، كل بذرة عبارة عن حيوان منوي سينشئ آدم، وكل مزارع خالق. تضخم الجزء الذي يشغله آدم في ذاكرته، فكان يحتاج لـ«حواء»، لتكافئ هذا التراكم الرأسمالي لآدم وقوة حضوره داخل حياته وخياله ونفسه، فكانت الروح الصوفية، و«الذات العليا»، جزأيْن من هذا الاحتياج إلى «حواء».
هذا أحد التحليلات الذي أسقطه على صاحب البيت من رواية قديمة قرأتها كانت تربط بين الصوفية والذات العليا والأنثى، وتكشف أن داخل هذه الذات العليا التي يتمنى الصوفي الوصول إليها، ذاتًا أنثوية كامنة. وأيضا داخل الذات العليا التي تذوب فيها المرأة المتصوفة، هناك حضور ذكوري كامن، يأخذ صورة العلاقة مع الله. ربما لم أحبذ هذا التفسير بشكل كامل، ولكن أجد فيه بعض الصحة، بأن خلف فنائنا في الأشياء أو الحب، تقبع إحدى ملذات حياتنا الأبدية، حتى ولو كانت لذة الفناء نفسها.
أحسست بصاحب البيت يتحرش بي داخل ذاته العليا، لمست تحرشه في كلماته ولمساته الحانية، ولكنه تحرش مختلف، له لذة ذهنية وتحليق سماوي، يجعلني أشعر بغرغرة لعاب منتشٍ في حلقي. الكبار يملكون قناعا يخفون به حماقاتهم. كانت هناك نعومة يغلف بها أي شيء، ولا يمكنك أن تمسك عليه كلمة واضحة أو لمسة صريحة. يرمي بالطُّعم وينتظر بعيدا عنه، من سيكتشف الشفرة الصحيحة ويفك اللغز. بدأت أشك مع الوقت في كل هؤلاء الشابات، بأنهن كن ضحايا له، ويكتمن الأمر.
بينما صاحب البيت يستجوبني تحت هذه الإضاءة الهادئة لغرفة مكتبه بعيدا عن الجميع الذين يتحركون في الخارج، سلمت له أيضا لحظة حقيقية، وربما هي التي غيرت من نظرته لي وصرفته عن استمالتي وشعر بأني أملك ذاتا لها خصوصيتها. كانت لحظة مرور نعش أمي وأنا أنظر له من وراء شباك الجامع، بعد الصلاة، وقبل أن أصل إليه وأرافقه في العربة التي أقلتنا للمدافن. طاردتني هذه الصورة في تلك اللحظة، كان النعش طافيا يسير لوحده فوق كتل الناس، شعرت بأن «الذات العليا» تهبط لتأخذ وديعتها وتطير بها للسماء.وتركتني أخبط بجانحيَّ داخل حضن صاحب البيت كي ألحق بها!
بالرغم من تدخينه السيجار الكوبي في حضور هذه «الذات العليا»، وجلوسه خلف دخانه يتأمل الباقين بتعالٍ مغلف بالصمت، واضعا رجلا فوق أخرى، فإن صوت تلاوته القرآن كان مؤثرا جدًّا في نفسي، ذكَّرني بصوت أمي الجميل في جلسات التجويد التي كانت تصحبني إليها. مع مرور الوقت وحضور هذه الحلقات الأسبوعية، بدأت أأتنس بهذا العمر الصخري الذي تخطى حاجز العودة للمراهقة، وأزال كل أسلاكه الشائكة وفتح حدوده للآخرين؛ كي يستريحوا بداخله، وأأتنس كذلك بتلك اللذة الذهنية التي أشعر بها في حضوره.

كان البيت عبارة عن متحف، في كل زاوية هناك قطعة فنية ترجع لعصور إسلامية، أو قبطية، أو عثمانية، مع إضاءة هادئة للنجف الياباني كروي الشكل، والهرمي، بأحجامه المختلفة، المصنوع من الورق اليدوي. كذلك لوحة قماش الخيامية الكبيرة التي تتصدر واجهة غرفة المعيشة حيث نجلس، ومشغول عليها نجمات إسلامية ثُمانية الأضلاع، تتداخل مع زخارف التوريق النباتية، بجانب السجاد الصحراوي الذي يقوم بدو الصحراء الغربية وسيناء، بتصنيعه من صوف الخراف، ويتسم بالزخارف الهندسية المجردة التي تشبه تجريد الصحراء التي أتت منه، مع قطع السجاد الإيراني ذي التركيبة اللونية البنية الدافئة.
كانت نقاط التأمل والانسحاب للداخل متناثرة في جميع أرجاء البيت. نشأتُ في بيت أغلب ما فيه مستنسخ من نسخات غربية متوفرة في الأسواق بكثرة، لم أشعر يوما بتعاطف مع أي جزء من بيتنا، وأثاثه كبير الحجم، ولم أسرح بخيالي في أي تفصيلة، سوى ما هو مُخزَّن داخل الدواليب مثل فستان فرح أمي، وملابسها القديمة، وعرائسنا القماش، وألبوم العائلة.
في حضور هذه «الذات العليا» أيضا كانت هناك نظرية «العبد والسيد»، وهناك أيضا من يقف بين الاثنين ينتظر دورا في المستقبل. ربما المجتمع كان يخفي فوارقه الطبقية داخل إيمانه بهذه «الذات العليا»، كما كان أيضا يخفي استغلاله تحت «ذات الثورة العليا». كان المال والسلطة والله يتحركون معًا في ذلك الوقت، جنبا إلى جنب.
انتظرت طويلا، ولم أجد تلك «الذات العليا» التي يمكن أن أحل فيها، أو تحل فيَّ. خرجت من هذه الحلقة الصوفية بقناعة أن أكون «أنا» «الذات العليا»، وأنفخ في نفسي وأتكاثر من داخلي إلى ذوات صغيرة تملأ هذا الفراغ الذي كان يشغله مصعب. سد عليَّ مصعب الطريق على أن أذوب في هذه الذات العليا، الذي احتل مكانها. سيكون لمصعب مكان بداخلي جاهز باستمرار، ولن يملأه أحد غيره. لقد احتل هذا المكان المتفرد المخصص فقط لشخص واحد: هذا «الآخر» الذي يرسله لك القدر داخل زجاجة، ولامناص عندها سوى اتباعه والسير وراءه مهما كانت التضحيات، حتى ولو خسرته وخسرت معه أمل التواصل مع الذات العليا.
كنت أحمل مصعب داخلي كبذور في فمي، كما كان المصري القديم يضع البذور في فم الميت؛ ليقوم عند البعث، وتبدأ دورة الإنبات مع بداية الحياة الجديدة. لقد ملكني حقيقة ومجازا، وهنا المأساة، لم يملك مصعب حياتي فقط، ولكن أيضا تسلل إلى آخرتي.
كنت أخاف من عنف تعلقي به، ودخوله لكل الأماكن المحرمة على أي آخر، سوى نفسي. كان هذا الإحساس يجعلني أشك في نفسي ذاتها، بأنها غير موجودة أصلا. منحت مصعب كل شيء لأنني لا أملك سوى هذا الفراغ، هذه الفقاعة التي عاشت فيَّ، وعشت فيها. أنا حارسة الفراغ الذي يحتاج دائما لمن يملؤه.
كانت الثورة ترمي على شاطئها بالأسماك النافقة. كثيرون لم يتحملوا إيقاع الثورة فخرجوا من الميدان سريعا يبحثون عن طريق آخر. بحر الثورة وضفافها كانا ضيقين. كانت الثورة تحدث داخل شقة صغيرة جدًّا، كل غرفها مسكونة سلفا، الثوار في غرفة، وفي الغرفة المجاورة لهم تماما يسكن الرأسمالي صاحب القناة التلفزيونية الشهيرة، وفي الغرفة الثالثة تسكن السلطة، وفي غرفة رابعة يسكن الله. بينما نحن نغير التاريخ، كان صاحب القناة التلفزيونية يعد أمواله ويحسب احتياجاته وخطوته القادمة.

لا أنسى هذا المشهد حيث كنت أقيم في العمارة المطلة على ميدان التحرير، مع العديد من الثوار، في إحدى الليالي الثورية. يومها دخل علينا صاحب القناة الشهيرة في مصر ببدلته الأنيقة وبكوفيته الحمراء المشغول عليها طيور سوداء يتفقد حال شباب الثورة المنهك. لم أشك لحظة بأنه جاء ليطمئن على ثروته وكيف سيكون مآلها في المستقبل، وبالفعل بعدها بأيام جذب لقناته كل هؤلاء الشباب الثوري المنهك. الخطوط كانت متداخلة جدًّا والستارة كثيفة لا ينفذ منها الضوء. في موقف آخر كان يمكن أن أبصق وأحفل على صاحب هذه القناة، التي عملت بها بعد ذلك، ولكن في الغرف المكيفة، استعاد حجمه. وصغرنا أمام أنفسنا وأمام الآخرين، بعد أن كنا كبارا جدًّا في الميدان. منحنا حلم الثورة تمددا غير محسوب لكل شخصية، ويمكن قراءة تناقضات وسلوك كل شخصية وسط هذا التمدد المفاجئ لها، أما الآن، بعد زوال الحلم، فعادت كل شخصية لحجمها الطبيعي، بعد أن فقدت حلمها.

كان التناقض مقبولا لحظة الثورة والأحلام. أما الآن في لحظة الحقيقة العارية، فالتناقض سيؤدي إلى الموت لا محالة؛ لأن الحقيقة لن تقبل أي كذب بجوارها. لن أقدر على الكذب على «الحقيقة». كنا نتعجل النجاح كما نتعجل الموت. انفتحت ثقوب عديدة في هذا الثوب الجمعي الذي لبسناه، وكان يمكن للجميع المرور منها للجهة الأخرى. شباب من جيلي تحدوا الموت تحديا قياسيّا في جرأته، وشباب من جيلي أيضا حققوا نجاحا واعترافا سريعين. وشباب من جيلي تحولوا لأسماك نافقة لها عيون مفتوحة. المجتمع وضعنا جميعا داخل علبة السردين لنأخذ أشكالنا الأخيرة المعلبة قبل أن يلتهمنا.

ذروات لم نحلم بالوصول إليها، كقمة جبل إيفرست، وصل إليها زملاء لنا. وحضيض لم نحلم بالوصول إليه، كالجحيم، وصل إليه أيضا زملاء لنا. تكونت النماذج الثورية سواء فوق قمة جبل إيفرست أو في حضيض الجحيم، بسرعة لافتة، كأنها جاهزة قبل أن تشتعل الثورة. ربما كنا جيلا يجب قطفه سريعا من على الشجرة، قبل أن ينضج، ليقوم بأدواره المطلوبة منه في الحياة وليسد فراغات فاغرة في دولاب عمل المجتمع وخياله وأساطيره وحكاياه.

كنا مثل نحل الجبال والمزارع، يحمل رائحة أشجارها وقممها العالية، ولكنه لايستمتع بها. كانت كل الحوائط الزجاجية التي يجري فيها جيلنا منكسة وغير مرئية، لفترة ما من الزمن، ثم استيقظت مرة واحدة. ننظر إلى الوراء لنحصي الجروح التي خلَّفها زجاج هذه الحوائط الشفافة في أجسادنا، ونحصي أيضا خيوط الدماء التي خلفناها على زجاجها.

قررت زوجتي الانفصال

«مافيش حل غير إننا ننفصل». الجملة المزلزلة التي نطقت بها زوجتي وتركتْ من أجلها البيت.
لم أقدر على تفسير علاقتي بدولت بشكل كامل حينها؛ لذا احتفظت بها داخلي، وبدون أن أبوح بتفاصيلها كاملة لزوجتي، كما هو معتاد في علاقتنا، أن يكون كل شيء ظاهرا وطافيا فوق سطح الحياة اليومية. هنا بدأت المشكلة: أن هناك مشاعر يصعب وصفها، ولايمكن أن تدخل في باب المصارحة أو الاعتراف؛ لذا بدأ يظهر على تصرفاتي نوع من السرِّية التي بلا أسرار. هذه السرِّية كانت بداية لسوء فهم في علاقتي مع سناء ومع نفسي، فلقد أدخلت مادة غريبة على علاقتنا كان لها أثر في نواحٍ كثيرة، على الأقل أنها مست هذا الجزء الذي يخص وضوحي وصراحتي تجاهها، هذا المكان الذي كنت أنظفه من الأسرار أولا بأول. حكيت لها عن بعض المواقف المحايدة في علاقتي بدولت؛ لتخليص ذمتي، ولكن لم أحكِ عن شعوري الذي كنت أجهله حينها، وربما كانت هي تراه بوضوح. كانت مستغربة من هذه العلاقة جدًّا، ولكنها صدَّقت بأنها تجربة يجب أن تخوضها هي معي للنهاية، حتى ترى ماذا سيحدث حينها، هل ستكملها، أم ستتوقف عند نقطة معينة وتطلب الانفصال.
لم يكن من طبع سناء التنقيب ورائي في أي شيء، ولاتسمح لنفسها بأن تكون هذا النموذج المخابراتي. كان لي دائما مكاني المستقل، في حياتنا، بجدرانه الشفافة، والتي لا تنظر إليه؛ حتى لا تجرح خصوصيتي، إلا لو أطلعتها على ما بداخله. كل حياتنا كانت مكشوفة أمام بعضنا، ولكل منا خصوصيته. هذه الخصوصية كانت الخط الأحمر الذي لايتعداه الآخر، شركتنا التي بنيناها معًا. ولكني جررتها بحماقة لكي تتخطى هذا الخط الأحمر، وجررتها لكي تدوس عليه؛ لسبب بسيط أن دولت تعدت هذا الخط أيضا، فشعرت سناء بمن يزاحمها في علاقتها معي.
في كل أحاديثنا على السكايب، في أثناء سفرها الطويل مع والدتها أو بعد عودتها، كانت تنظر في عيني لترى تفاعلات هذه السرِّية وتصمت. ترى هذا البريق المعكوس من سطح صخر أسود وغامض اسمه «الرغبة»، وتصمت. كانت عيني مكان ضعفي، أو مكان حقيقتي. كل تجمعات الصمت هذه صنعت مسارا بداخلها لتحرير الأنا الخاصة بها: «يجب أن ننفصل».
لا تؤمن سناء بفكرة الدفاع عن حبها، فالدفاع نقض لفكرة الحرية، وإرغام على مسار ما، بينما هي تريد اختيار المسار الحر، المصفى من التجاذب والضغوط، الذي ولدت عليه الكائنات وتلازمت بسببه الثنائيات لتكمل دائرة الحياة: الليل والنهار، الشمس والقمر، وغيرها وغيرها.
ربما كانت سناء تعاقبني على هذا الضوء المنبعث من تلك الصخرة السوداء. قصاص مزدوج، ولا أندم عليه، سواء في مغامرتي الخاصة مع دولت، أو في مغامرة سناء لتحرير «الأنا»، برغبتها في الانفصال عني.
كانت علاقتنا تحمل عنا، نحن الاثنين، ثقل رغباتنا وهفواتنا ونزواتنا كأنها صديق ثالث. حمتنا هذه العلاقة من أن تتوه هذه الرغبة في طريق ليس له خط رجعة. ربما كان حيز المغامرة، في هذه الظروف غير المكتملة والضاغطة، غير كافٍ لإنجاز «أنا» جديدة تجدد ثقتها بنفسها وبالآخر. ولكن هذه «الأنا» التي تخصني بدأت تعكس إشعاعات بعيدة للرغبة والحب، لم تكن تراها، تبثها نجوم ومجرات كانت خامدة من قبل، وأيقظها بلوغي الخط الأحمر لعامي الخمسين.

أسأل نفسي هذا السؤال مرارا: كيف تترتب الحياة بهذا الشكل؟ هل هي الصدفة الضرورية، أم هناك من يضع لك السؤال والإجابة معا، وماعليك سوى أن تحفر أعمق من السطح؛ لترى هذه المجرات المدفونة تحت الجلد، ولاتخشى عندها المخاطرة، وأيضا لا تخشى تقبل مغامرة الآخر؟
حاولت أن أعاقب نفسي بهذا العقاب القاسي، والمحترم في آن، والذي كنت قد سمعت به، بأن شاعرا روسيّا عندما أخطا خطأ كبيرا في حق زوجته، قام بنفي نفسه بنفسه في سيبريا وسط الثلوج. كان هو الحارس على عقابه، وعلى سجنه وعلى ذنبه. رذاذ باقٍ من هذه الحكاية التي سمعتها منذ سنوات طويلة على أحد المقاهي في عابدين مع شلة الأصدقاء اليساريين، خرجت مع دخان الشيشة والشاي بالنعناع ودخان الأحلام الذي كان يعلو وينافس دخان الشيشة في كثافته. خرجت هذه الحكاية من دائرة الظل في عقلي الباطن، لتستقر في دائرة الضوء، تنتظر اللحظة التي تعود فيها مرة أخرى إلى الحياة في صورة جديدة، عبر حياتي.
حتى الحكايات لها أكثر من حياة، دورات تتناسخ فيها، حياة ثم موت ثم بعث. عبرت حكاية هذا الشاعر، عبر العديد من الأجساد، وانتشرت في فضاء الحياة، كروح خالصة، تنتظر جسدا لتعود من خلاله مرة أخرى إلى الحياة. جاءت الحكاية ووقفت كالطائر بجانبنا في المقهى ونحن ندخن الشيشة والأحلام المستحيلة التي كنا نؤمن بها وقتها. ربما رائحة دم هذه الأحلام، أيقظت هذه الحكاية من واستدعتها من داخل الأرشيف الكوني للحكايات الحالمة.
نقتسم، أنا وهذا الشاعر الروسي، الآن تلك البذرة القديمة للتكفير. أشعر بأن جسدي ليس جسدي أنا، بل هو جسده هو، بل أجساد ملايين البشر الذين آمنوا بصفاء الحب، وبأن التكفير يصهر الذنب، ليعود للحب مرة أخرى صفاؤه وبراءته. حتى التكفير أيضا صورة من صور البعث القديمة للحب، الذي مات، فأحياه الذنب، ليعود مرة أخرى للحياة، ويلبس ثوب التكفير، وينصهر ليدخل في ثوب الحب مرة أخرى. فالحب هو القناع الأول والأخير، هو والموت، لا توجد قبلهما بداية، وليس بعدهما نهاية.
كنا شلة مقهى عابدين وقتها، في بداية التسعينيات، نبحث عن إنسانية نظيفة تعاقب نفسها بنفسها، وتصلح نفسها بنفسها، وتأخذ القصاص من نفسها حتى لاتنقسم على نفسها. كانت هذه الحكاية للشاعر الروسي تمثل لي نُبل المذنب الذي لاينتظر أن ينزل عليه عقاب من أحد، بل من نفسه، ولايحاسبه أحد بل هو يحاسب نفسه؛ كونه أول المعترفين بالذنب. يزيح كل من حوله كي يستفرد بذنبه في مساحة بيضاء نظيفة. هو المذنب والإله معا.
عاش الشاعر وسط الثلج حتى أصدرت زوجته عفوها عنه. وربما في أثناء قضائه هذه العقوبة نسيَ انتظار عفو زوجته، وانتظر إذنا من إله المغفرة العصامي بداخله، الذي ينظف نفسه أولا بأول ولا يرضى بأي شريك. كان رأيي وسط شلة أصدقاء عابدين، بأن زوجة الشاعر كانت جسرا يصله بأصل الذنب في نفسه. ودارت نقاشات مطولة حول هذه النقطة، هناك من كان يرى بأن الذنب أصله أنثوي! كنت وقتها، ومازلت، مفتونا بهذه العلاقة المركبة سواء مع الذنب أو مع الحب أو مع القصاص الذاتي. ربما كانت فتنتي لها علاقة بأنانيتي، ربما كنت أريد أن أكون أنانيّا حتى في ذنبي، ولا أشرك أحدا في احتلال جزء بداخله، عبر شراكته لي، سواء بتسامحه أو بعقابه. كم خدعنا الذنب وأظهر لنا قناعا، بأنه صنو التضحية والإيثار، ولم يوضح لنا وجهه الحقيقي بأنه صنو الأنانية! كنت وقتها أبالغ في تمجيد، وكل أصدقاء شلة عابدين الذين يقذفون أفكارهم الحالمة

مباشرة من أنوفهم وراء دخان الشيشة الكثيف؛ هذه النزعة الفردية في نفسي، وأبني لها جدرانا عالية.
من يرفض من الآخرين مشاركته ذنبه، فربما يعبر عن خوف من أن يشاركوه الحب أيضا، الذي هو في النهاية ضفيرة متواشجة مع الذنب. ولكن لم أجد بداخلي سوى هذا النموذج الروسي القديم للعقاب الذاتي فتوكلت على الله وسلمت نفسي للسجن.
سلسلة الهروب بالذنب، أو تهريبه من وراء الضمير، ستفضي في النهاية إلى استقلال جزء من النفس لتأمين كل هذه الذنوب الهاربة، ربما يكون سجنا، ربما ماخورا، أو صحراء يتم التكفير فيها. اخترت الذهاب إلى صحراء سيوة؛ حيث تعرفت على نفسي، وذنبي، هناك مرارا، فقد لجأت لهذه الواحة من قبل، عندما كنت أعاني من إحساسي بالذنب لوفاة والدي، والذي اعتقدت وقتها بأنني كنت السبب فيه فكانت هذه الواحة مرتبطة عندي بتكفير عن ذنب ما، كأنها إحدى الآلهة الإغريقية.
خرجت من الواحة باتجاه كثبان الرمال، في تلك المساحة السيبيرية الصفراء، وطلبت من مضيفي «صاحب الفندق» الذي نزلت به أن يأتي لي بخيمة، ووضعني بجوار مجموعة من النخلات وأمام عين ماء عذبة. ظللت أتعبد في اللون الأصفر صباحا، والأزرق ليلا، هناك خارج هذه النفس المذنبة، لأكثر من شهر، لا آكل إلا من هذه النخلات. أحيانا كان يعبر بي بعض الرحالة المسافرين باتجاه الواحات الداخلة والخارجة فيمنحونني جزءا من مياههم ومأكلهم، عادة كنت أترك معظمه لثعلبين صغيرين تائهين، صارا صديقين لي، ولا أعرف من أتى بهما في هذه الصحراء بعيدا عن أي طعام أو صحبة. ربما هما أيضا كانا يعيشان رحلة تكفير مشابهة لرحلتي، لشخصين من زمن آخر، اتخذا جسديْ هذين الثعلبين؛ لذا وجدا الونس في ناري التي أشعلها ليلا.
أصعد إلى قمة الكثبان ثم أتدحرج عليها عدة مرات، ثم أعاود الكرَّة، مثل السيدات اللاتي يبغين الحمل ويتدحرجن على رمال المعابد الفرعونية. وأحيانا كنت ألعب مع نفسي لعبة المتاهة. أبتعد عن مركز وجودي في الصحراء؛ الخيمة وعين المياه، وأسير طويلا وراء الكثبان العالية؛ حتى يختفي هذا المركز، وتتداخل أشكال وأطوال الكثبان، ويذوب المشهد الطبيعي كلوحة مرسومة بالألوان المائية سُكبت عليها المياه، وأبدأ في التذكر لتلك الجهة التي أتيت منها، والتي ذابت واختلطت مع كل الجهات الأخرى، ولا تبقى في عقلي جهة إلا التيه، والذوبان الكامل في اتجاهات الصحراء جميعها.
شارفت على التيه النفسي والمادي، في إحدى المرات التي لعبت فيها هذه اللعبة الخطرة، ودخل الليل عليَّ، لولا أن صاحب الفندق السيوي قرر في هذا اليوم أن يأتي ليطمئن عليَّ ويقضي معي بعض الوقت، نشرب الشاي، وندخن معًا عدة سجائر ملغمة بالبانجو. في المرات السابقة كان يأتي بزجاجة بلاستيكية للمياة المعدنية مملوءة بمشروب العرقي، الذي يصنعونه في البيوت من البلح، ويضيف إليها نبات حشيشة الليمون ذا المذاق الروحاني، ولكن نفسي كانت تعاف أي مسكرات طوال هذا المنفى، فكنت أتركه يشربها بمفرده، وأسكر على سُكره الشفاف وهو يغني باللغة السيوية تحت سلسلة نجوم درب التبانة شديدة اللمعان. عندما لم يجدني «عتمان» في الخيمة، أطلق كشافه وصوته في الصحراء ليرشدني بأن أسير باتجاه عمود الضوء، وبالفعل التقينا في منتصف الطريق.

كنت أحاول أن أستعيد سلاما فقدته، حتى ولو لم أعرف السبب، فكل هذا التشوش سببه كامن في نفسي، ويرجع عدم معرفتي به إلى أني بدأت أفقد الطريق وأخلط الاتجاهات ولا أعرف الحقيقة من الخداع، وربما بدأت نفسي تخدعني، وتقنعني بالحب؛ لأنها كانت تبحث عن بديل لي لتحبه.
كنت أعاقب نفسي باللون الأصفر للرمال بدلا من اللون الأبيض للثلج كما فعل الشاعر الروسي، وبهذه الكثبان المنبسطة التي يتجول عليها بصري ويتبعه ذنبي وتشوق قلبي، ثم يعود. رياضة روحية لكل مفردات وجداني كنت أقوم بها يوميّا، حتى انفتح سجن الذنوب في نهاية المدة وبدأت أبكي وحيدا بجانب عين المياه، لا يشهد عليَّ إلا الله.
في اليوم التالي جاءني مضيفي حاملا رسالة من زوجتي بأن أقوم بالاتصال بها. فقدت حينها ما يزيد على خمسة عشر كيلوجراما من وزني، كانت تعادل وزن الذنب بداخلي.

دخول أخي المستشفى ووفاته هناك

هزَّني نبأ دخول أخي حامد المستشفى في العناية المركزة. كان يصغرني بعشر سنوات. أنا الأخ الثاني بعد عفاف التي تكبرني بسنتين. كان يعاني منذ طفولته من الربو. ذهبت إليه في المستشفى. لم أجد بنطلونا في البيت على مقاسي الجديد بعد أن فقدت وزني. ارتديت أحد بنطلونات سناء الجينز، فقد كانت قريبة من مقاسي الجديد، وإن كان أقصر بحوالي عشرين سنتيمترا، قمت بفك الثنية الكبيرة، ولكن ظل هناك فارق بسيط ملحوظ.

وجدت أخي على جهاز التنفس الصناعي غائبا عن الوعي. وصلت الرئة إلى درجة دنيا في قدرتها على القيام بوظائفها الطبيعية، فاضطروا لتركيب هذا الجهاز الذي يشير لقرب النهاية، التي قرأتها بوضوح في غيابه عن الوعي، وأيضا في إجابات الأطباء. كانت زوجته منهارة تماما، ترفض أن تراه في العناية المركزة بهذه الحالة. ربما رأت الرئة في تلك اللحظة جهازا دخيلا يقوم بوظيفتها فازداد إحساسها بالعزلة والإهانة، وهي التي قامت بوظيفتها طوال أربعين عاما بكفاءة عالية، فأصرت على الانسحاب بهدوء.

ظللت طوال أسبوع أتردد على المستشفى، أدخل لرؤيته، وأتحدث معه، وهو نائم تماما، لايصدر سوى هذا الصفير البعيد لجهاز التنفس. كان سريره يقع في عنبر كبير للعناية المركزة، تفصل بين كل مريض وآخر ستارة بيضاء. وأنا أخطو باتجاه سريره، أمر يوميّا على أرشيف طويل من الغيبوبة، لمرضى معلقة حياتهم على أجهزة صناعية مشابهة. أشعر بانقباض نفسي في هذه المسافة التي تطول بقوة الزمن القليل المتبقي، بينما أعاين هذه النسخ المتشابهة من الموت. أجلس أمامه على طرف السرير، وأذكِّره بشذرات من طفولتنا في بيت العائلة في مصر الجديدة، وحفلات الموسيقى التي كان يحبها، وأول جيتار إسبانى اشتريته له من مرتبي الخاص عندما بدأت العمل في الصحافة.

أحب حامد الموسيقى، لكنه، مثل كل شيء في حياته، لم يخلص لها. كان خاليا من الإيمان بأي شيء، بل لا يجد طاقة على الاستمرار كثيرا في ارتباطه بمهنة أو بيت أو بعلاقة طويلة الأجل. الحياة بالنسبة إليه من بدايتها مثل زائدة دودية ملتهبة يجب استئصالها. كان يتمتع بحس تشاؤمي حقيقي بلا أي تفلسف ولا ادعاء. ربما لأنه كان حقيقة ولا يرى الحياة وهي في درجة الصفر، بلا أي ديكورات ولا زخارف، ولا أمل، بلا ماضٍ ولا مستقبل، بلا أزمنة تجسد الأمل مع الوهم. مرض الربو الذي ولد به جعله يخبط مبكرا بأجنحة فزعة في تلك الفقاعات النفسية المغلقة، والخالية من الأكسجين.

بعد تخرجه في كلية التجارة، عمل حامد لفترة في أحد التوكيلات الملاحية بالإسكندرية ليبتعد عن بيت العائلة بكل تعقيداته. استقر هناك عامين. ثم تركها بسبب رطوبة مناخها، الذي يؤثر على مرضه، وعاد للقاهرة، ليفتتح مكتبا لنقل الطرود داخل وخارج مصر، وهي خدمة جديدة آنذاك. لكنه سريعا ما أغلق المكتب، وعاد يجرب حظه في الموسيقى مع أصدقاء الطفولة. كونوا فرقة استمرت لعامين ثم تفرقوا. كانوا يعيدون غناء أغاني الفرق الأجنبية في السبعينيات والثمانينيات. في ذلك الوقت كان يتكسَّب عيشه من ترجمة العقود التجارية من وإلى الفرنسية، التي كان يجيدها، وهو ما سمح له بهامش من الحياة يحتمل التجريب وممارستها كهاوٍ، وبدون رغبة جادة في إهدار موهبة التشاؤم التي كان يتمتع بها.

تزوج قبل وفاته بعام، صديقة، تعود صداقتهما لسنوات الطفولة، ابنة حي مصر الجديدة وزميلة الحفلة الصباحية لسينما نورماندي والوقوف والتسكع أمام المحل الوحيد لبيع شرائط الكاسيت للفرق الأجنبية الحديثة في التسعينيات، ونزهات الميريلاند، والسينما الصيفية بحدائق غرناطة. طُلقت شهيرة من زوجها، وعادت بابنتها، التي بلغت العاشرة، من الخليج حيث كان يعمل الأب. أعجبه ارتباطه بعائلة جاهزة، بدون تعب أو بناء عائلة من الصفر، وربما كان يعرف بأنه سيموت، وبأن هذا الزواج لن يغير من مبادئه التي لا تصبر على العلاقات طويلة الأجل.
عند عودته للعمل بالقاهرة، عاد حامد للبيت مرة أخرى. كانت تعقيدات البيت، الذي تركه من أجلها لعامين كاملين قضاهما في الإسكندرية، تنحل تدريجيّا وببطء على مدار عقود من الزمن، بعد خروجنا منه، سواء بالزواج أو السفر أو الموت. وزاد عدد الكراسي الشاغرة في حجرة السفرة التي كانت تجمعنا، ولم يعد سوى كرسي واحد مشغول، يخصه هو، بجانب الفراغ.
منذ ذلك الوقت وحتى وفاته لم يبرح حامد شقة العائلة في مصر الجديدة؛ بوصفه الأصغر الذي سقط على رأسه الميراث المصفى للعائلة، خليط المكان والذاكرة والألم. ظل يحفظ هذا الفراغ الذي خلفته العائلة. احتلت صور العائلة القديمة كل الغرف، أخرج كل الألبومات ونثر صورها على الحوائط حتى غرفتا المطبخ والحمام لم يسلما من هذه الوجوه الشاخصة. ألبومات تعود لعقود طويلة، ولسلسلة عائلية ممتدة، جميعها تتنفس الهواء وتنظر وجوهها في عينيه كل صباح. كان يعتبر أن هذا حق كل من مَرَّ بالبيت، أن يأخذ نصيبه منه بهذا الرمز المعلق على الحائط.
كنت أطلق على هذا البيت اسم «متحف الموت الجميل»، هو ومكتبة صديقي وليم الذي يبيع فيها نسخًا من «بورتريهات الفيوم»؛ تلك الوجوه التي تطل علينا أيضا من عالم الموت. مجموعة من صور الموتى في العصر الروماني، كانت تُرسم لهم وهم أحياء، لتوضع على أكفانهم بعد موتهم. حتى تتعرف أرواحهم على الأجساد التي غادرتها منذ قليل، لتبدأ معها رحلة الحساب ثم البعث. كل هذا يحدث عبر هذه الصورة، التي تعمل كبطاقة شخصية في عالم الأرواح، العنوان الثابت الذي تستدل به الروح على بيتها الذي غادرته منذ قليل.
كانت هذه الصور العائلية تسلب لبي لساعات عند زيارتي لحامد. يستقبلني عادة بالروب المنزلي الأزرق، ثم يذهب ليعزف على الجيتار في غرفة الصالون، ويلف سيجارة تصلني رائحتها سريعا، بينما أبدأ تجول العينين العشوائي على الحوائط، أتفحَّص الصور وأزمانها وحالات أصحابها ومناسباتها. أستعيد أبي وأمي وخالاتي وعماتي، والأجداد، وأتكلم معهم جميعا كأنهم حاضرون. كنت أخرج من عنده بوجبة مشبعة من الحنين، أسير على حافة ناطحة سحاب لا يفصلها عن العالم الآخر سوى زرقة السماء.
كنت أتخيل أن كل صورة من صور العائلة ستعود إليها الروح لتدخل فيها، وتكمل رحلة البعث، ولكن بدون جسد تحاول أن تتعرف عليه، فالجسد قد ذاب، والصورة هي التي تلعب دور الجسد القديم، الذي ستبعث معه. أحيانا أخرى أتخيل أن هذه الصور قد سكنتها أرواح أصحابها بالفعل، وهي الآن تنظر لي وتشاهدني من وراء تلك العيون المتحجرة.
أقمنا عزاء أخي وسط متحف الموت هذا، وبجوارنا كان هناك متحف مصغر للموت منصوب لشهداء الثورة.

دخول مصعب السجن

دخول مصعب السجن في أثناء حكم الإخوان، شوَّش على قرار الهجران. بعد أن استجمعت شجاعتي وأضع حجرا ثقيلا على قلبي حتى لا أعود عن القرار. اتخذت القرار مرات عديدة من قبل، ولكن الأمل كان يتجدد، أو يحدث شيء ليفشل الخطة، وسرعان ما أزيح هذا الحجر الثقيل. كان مصعب، بالنسبة إليَّ، أكثر من حبيب، حاضرا في كل علاقاتي الأخرى، ربما كانت حكايته معي هي الخيط الجامع بين أصدقائي في تلك الفترة. صنعتُ حولي دائرة محكمة لاينفذ منها، ولا أنفذ منها. كانت هناك فتحات كثيرة يدخل منها الحب واليأس معا. تحول حبه إلى شبكة عنكبوتية تعقدت خيوطها حولي، مثل الشرنقة حول جسم الدودة، لاخلاص منها إلا بتدخل قدري، بانتظار البعث، والدخول في طور الموت ثم انتظار طور الفراشة.

كان مصعب قريبا وبعيدا في الوقت نفسه، كلما اقتربت منه أكثر زادت جروحي، كأنني أقفز فوق حائط من الزجاج المهشم، وكلما بعدت عنه تحول هذا الحائط الزجاجي إلى حائط ثلجي، أفقد أمامه الإحساس تمامًا. في فيلم «إدوارد ذو الأيدي المقصات» تحولت يدا البطل جوني ديب إلى مقصات تجرح كل من يقترب منها، وأيضا تحمل قدرة تشكيل الحياة من حولها عبر هذه الشفرات الحادة القاطعة. كان مصعب بالنسبة إليَّ مثل إدوارد يحمل النقيضين، يجرحني ويشكِّلني في آن.

كان «محسن»، من البداية، رافضا لعلاقتي بمصعب، ولخضوعي له بهذا الشكل المهين. لم أكن أصارحه بكل ما يحدث، خصوصًا بهذا الجزء الذي يخص تضحياتي. أخشى مثاليته أحيانا؛ لذا كان ما حكيته عن نفسي أمامه ينقصه الكثير من المشاهد المحذوفة في المونتاج، وأضيف الكثير من المشاهد التي لم تحدث، دون أن أدري لماذا أفعل هذا، هل خوفا من رأيه، أو حتى لا تتغير صورتي في ذهنه، أم أن ما حذفته متعارض مع شكل علاقتي به؛ كونه يمكن أن يجرحه.

بدأت أفقد تحكمي في تصرفاتي، ووصلت لدرجة عدمية من التيه النفسي. كانت أشد لحظاتي إحباطا، ولكن أكثرها قوة أيضا: بينما المركب يتهادى والأصدقاء يغنون أغاني الشيخ إمام، ألقيت بنفسي وسط هذا الليل الأسود بملابسي، ونزلت بعيدا في المياه السوداء الثقيلة، أستشعر طعم العدم والطين، بدلا من أن أعيش بدون مصعب. كنت أقترب من الموت بسلاسة، وبدون عناء. كنت مسيَّرة، روح بداخلي تجذبني لأسفل؛ كي أغوص بلا رجعة. كنت أريد أن أقوم بعمل كبير يشغلني عن هذا الحب المدمر، أن أقف أمام قطار، أو أغمض عيني وأسير وسط العربات المسرعة في شارع واسع بثماني حارات، إن أخطأتني فرصة الحارة الأولى، فهناك فرص أخرى في الحارات السبع الباقية.

علاقتي بمصعب كانت تحرك كل طاقاتي الوجودية، من منبعها، سواء للبقاء أو للموت، ولكن داخل الثورة كنت أعيش بطاقة الموظفة، لم أفكر يوما في أن أقوم بعمل ثوري كبير، اشتركت في اشتباكات محمد محمود الأولى، ولكن سرعان ما تراجعت، فقد كنت أخشى على رئتي من الدخان بعد أن سقطت إحداها بجواري ولم ينقذني وقتها إلا منسي صديق الطفولة الذي حملني حتى وصلنا لعربته في شارع قصر النيل ومنه للمستشفى. علاقتي بمصعب كان بها هذا الحس الجماعي الذي يشجعني على الحياة وعلى الموت معا، ويحرك نوازعهما معا.

كنت أريد أن أرسل لمصعب رسالة بقفزة الثقة هذه، أضع جسدي في طرد وأرسله له، والتسليم يتم يدا بيد، ليفتحه ويجد جثتي، هديتي له. لم أكن ألعب معه، بل مع الموت مباشرة، أجرحه كما

يجرحني، أريد أن أنتقل من واقع كان فيه جسمي وعقلي وحياتي كلها مجذوبة إليه، لواقع آخر نتغير فيه ولا يكون مكتوبًا به اسمانا بجانب بعضهما البعض في كتاب الحب. داخل المياه الثقيلة للنيل لم أكن أنا ولم يكن هو هو، بل نطفتان سابحتان في المياه. لم تكن حولي أشياء كثيرة يمكنها أن تغير واقعي في ذلك الوقت، ولا نار الثورة الباردة، ولا خروجي من البيت، ولا حتى موت أمي. صارت الحياة الأخرى، بكل ما فيها، هي الواقع الحقيقي الحي.
عشت فترة كمعمل اختبار متحرك للموت، لم أكتفِ بقفزتي في النيل، ولكني كررت التجربة بطريقة أخرى. أحسست خلالها بنفس الشعور بملامسة الواقع الآخر الذي يمتص حبي ويفتته، ويفتتني معه. سرت ليلا، مغمضة العينين، في شارع صلاح سالم ناحية المقابر. قطعت الطريق السريع، في انتظار موت سريع أيضا. كنت ألعب الاستغماية مع الموت، أفاجئه في أكثر الأماكن المتوقعة لوجوده.
كانت تجربة من أشد التجارب إيلاما لنفسي، مثل لعبة الروليت الروسي التي يستخدم فيها المسدس، والتي رأيتها في فيلم «صائد الغزلان»: مسدس به طلقة واحدة يتناوب عليه مبارزان يجلسان أمام بعضهما البعض. من يأتِ عليه الدور يجازف بسحب الزناد على رأسه، لو لم تصبه الطلقة فالاحتمال الأكبر أنها ستصيب الآخر. عندها سيكسب الرهان، ويحذف اسم الآخر من الحياة تماما.
تحمُّل احتمالات الموت، داخل هذه الومضة السريعة، ربما هو الفوز الحقيقي بالنسبة إليَّ، وللناجي من الرصاص، وأيضا لمن امحى اسمه من الوجود. فالكل كسبان عند هذه الحدود الخطرة للحياة، التي يتم بها قياس المكسب، بعد العبور بصفر الحياة، بالقدرة على الفناء، وليس القدرة على البقاء. من كسب الرهان فلن يعيش بعد هذه التجربة كما كان يعيش قبلها، سيظل صوت تكة الزناد في خياله، وصورة الرصاصة وهي تمر في جمجمته كالمثقاب. ومن مات، فقد وفَّى بوعده لنفسه بأن يموت. ولكن بالنسبة إليَّ، فبرغم كل هذه المحاولات، فقد كنت أتمنى ألا تكون الطلقة الوحيدة من نصيبي. كنت بهذه المحاولات أستولد إنسانة أخرى من نفسي، ليست ميادة توأمي الغائب، ولا عزيزة ويونس، ولكن «آخر» يحمل صفرة الموت الخالدة على وجهه، وبرودته في دمه.
عندما قرأ «محسن» عن تجارب الانتحار تلك التي دونتها على صفحتي في مدونة «تمبلر»، فلم أعد قادرة على تحمل إهانتي لنفسي، فأعلنت نيتي في الانتحار؛ وجدته يتصل بي. لم يناور كي يخفي أنه يتجسس على صفحتي ويقرأ كل كلامي أولا بأول. زعق فيَّ بشدة، لأول مرة أرى عاطفته تجاهي سائلة بهذا الشكل. أخذ صوته يتهدج وهو يصرخ: «لو عندك نص القوة اللي بتجربي بيها الموت دا، تقدري تمسحي بيها أي حب من قلبك. التجارب دي زي ما هي رسالة لحبيبك بتقول له فيها: تعالَ، هي برضه رسالة ليكِ إنت كمان، إنك أقوى من الحب ده». قال هذا بعد أن شعر بأنني أسد أمامه كل منافذ الخروج من هذه الشرنقة القاتلة التي نسجها حولي حبي لمصعب. لم أكن أريد من يعاتبني يا محسن بل من يمسح دموعي ويغسل قدمي وأنا واقفة على الصليب. ماذا لو كنت أحب الموت يا محسن، وهذه القوة جاءتني بسبب هذا الحب؟ لم أقل له هذا، ولكنه خاطر بقلبي وشعرت بانقباض شديد منه، ولكن كلامه كان السبب المباشر في ظهور هذه الفكرة الخطرة في سقف دماغي.
لم أشأ أن أسأله: هل كل من يعيش تجربة الموت يمكنه أن يتخلى عن أي شيء في العالم؟ أي منطق هذا؟ هذا منطق وقوة الموتى بحق وحقيق، أما أنا فمازلت حية يا محسن. بكيت بشدة بعد

انتهاء المكالمة. عاد إلى جسمي إحساس القشعريرة وأنا وسط المياه، فشعريرة ذاتية أعادت ذكرى دفء أيام الشتاء، وقمت بعدها لصنع كوب من الشوكولاتة الساخنة، لم تأتِ بالدفء المعتاد، وظلت القشعريرة كما هي.
كانت محاولتي الانتحار في النيل مثل المخدر القوي، عشت على ذكراه شهورا، رفعني إلى أعلى سماوات الانسجام النفسية، وأقصى لحظات التسامي. كان مصعب فيها مسجونا وقتها، وكنت مخدرة بسعادتي الداخلية، صافية أمام الحياة، كوني امتصصت جزءا من مخدر للموت شديد النقاء. ولكن سرعان ما كان يزول التأثير وأعود شرهة لتجارب أكثر قوة ويأسا.
السجن منح مصعب مصداقية جعلته أقوى داخل السجن منه خارجه، فبعد أن بدأت صورته تبهت، هو ومجموعة مفجري الشرارات الأولى للثورة. عاد السجن ليضعه في الصفوف الأولى، ويمنح صورته بريقا غطى بعض الشيء على إحساسي باحتقاري لنفسي كونه لايحبني. عاد مصعب ليتصدر البرامج والمنتديات السياسية على شبكات التواصل الاجتماعي، ولم يحتج لتهريب رسائله كما كان يحدث في سجون عبد الناصر، بل كان هناك بث مباشر من داخل السجن، كأنها مباراة كرة قدم. تتحول رسائله إلى رءوس موضوعات في الأوساط الثورية لهؤلاء الذين يشعرون بالذنب؛ لأنهم لم يدخلوا السجن بعد.
كان يتحدث في رسائله عن زملائه البسطاء في العنبر، وحياتهم الجماعية، وأيضا عن أحلامه للبلد. وعن الفروق بين ثوريي السبعينيات الذين يعتمدون على الشعارات، وثوريي الألفية الجديدة الذين يعتمدون على التقنية. رسائل منها تمت ترجمتها في المواقع الأجنبية لصحف شهيرة، وتمَّ استقطاع أجزاء منها من قِبل محللين سياسيين أجانب مشهورين، للتنبؤ بتحولات الوضع السياسي في مصر من خلال هذه الرؤى الشابة. أي مكان في مصر في تلك الفترة أصبح مكشوفا، حتى ولو كان وراء ألف حائط وحائط. كل الحوائط كانت مصنوعة من الزجاج.
كان مصعب يعرف تماما كيف يكسب كل من حوله، حتى في الظروف الصعبة. ليست مداهنة ولاخبثًا، فهو أبعد مايكون عن هذا، ربما ممارساته داخل السياسة ليست هي نفس ممارساته داخل الحياة العادية، فما بالك بالسجن؛ حيث يخفت صوت الحياة الخارجية، وترجع ذاته لأقل مستوى من الإرسال، كأنها تخفض صوت الذات؛ كي يتسنى لها أن تسمع الآخرين، أو تتساوى مع صمت السجن العميق. كانت هذه النقطة مصدر قوته، عندما يبتعد عن الأضواء، تخرج منه ذات أخرى أكثر عذوبة وإنسانية. صادفت هذه الذات كثيرا في ليل غربته.
بدأت أشك في تفسيري لأنانيته وخياناته، وأتعاطف معه من جديد، كما نفسر بشكل مختلف وبرَّاق كل أفعال من يقدم على الموت، أو من مات بالفعل. منحه السجن قناعا أخفى هزة هذا النموذج المتردد والوصولي الذي يحمله وأبقى على الجانب الإنساني منه، ومنحني أملا جديدا بأن هناك مستقبلا يتفتح داخل هذا الخراب.
في هذه الفترة كان دخول السجن إحدى المميزات، كأنه ترانزيت، لتعود بعده وتأخذ كامل نصيبك الذي ادخرتْه لك الحياة في أثناء غيابك عنها. يوم خروجه كانت مظاهرة أمام القسم الذي أُخليَ سبيله منه، أصدقاء وصحفيون، ووكالات أنباء. تجمعات تغطي على أي حقيقة، وتجمعات مضادة أيضا تغطي على أي حقيقة. كان وجهه أسود «فشخ» كما رأيته يوم توزيع البطاطين في الميدان، ولكن بلمعة في عينه تتعدى فرحة الإفراج عنه.

الطريف في رسائله، التي كتبها من داخل السجن، أنه خصص جزءا منها لفكرة قصصية طريفة، كتبها على عدة حلقات؛ أولها كان صادما بعض الشيء لمحبيه من الشباب الثوري، ويتحدث فيها عن صدمته في أحد السجناء المثليين، عندما خشيَ من أن يتحرش به هذا الزميل المثلي، فكان ينام وجسمه كله تحول إلى شجرة من العيون الساهرة. هناك رسائل أخرى أكثر طرافة ـ اكتسب مصعب طرافته داخل السجن ـ حول تفشِّي الأمراض الجلدية في عنبره، وهو الوسواس القهري الذي يستيقظ في ظلام أي سجن، بعد أن تكون قد اعتدت على الحياة ونازلت الوساوس الأخرى التي ترتبط بكل ما يربطك بالخارج. وهناك نوع ثالث من الرسائل يخص قراءته لحياة العنبر، كأنه بلد كامل، به كل أشكال توزيع السلطة والاستغلال والتواطؤات. وهذا لم يمنعه من أن يتواطأ مع كبيرهم تاجر الحشيش الذي أشار له برمز المعلم «م» صاحب السلطة العليا، الذي كان يضعه تحت حمايته؛ ليمنحه مرتبة زائدة، ويمنع عنه شر المساجين القدامي ودناءاتهم.
نظافة مصعب كانت تصل لدرجة الوسوسة، بداية من الحذاء اللامع للأظافر المشذبة، للقميص المكوي، لتشمُّم رائحة الطعام قبل تناوله، لأصغر خلية في جلده؛ جعلت من هذا المرض الجلدي عدوّا لاينام، يطارده ساعات النهار والليل، ويتربص به في كل مكان في العنبر.
قبل أن يصاب بالعدوى، كان يدهن جسمه بالمراهم من أجل الوقاية، ويصف كيف بدأ يتسلل له المرض بالإيحاء، قبل أن يصاب به بالفعل، حتى بدأ يهرش من تلقاء نفسه. كان وسواسه هذا يجرحني، ألحظ تصلب عينه المفاجئ أمام البقع الحمراء التي تظهر على جلدي بسبب لخبطة الهرمونات بعد فوات الدورة الشهرية. كان الوسواس يفرمل شيئا في رغبته، ثم أستعيده بمحاولات جاهدة من غيبوبة شكوكه النفسية، بعد أن أكون قد قضيت تماما على أي أثر لوسواس الخوف هذا. ولكن هذا الوسواس كان يعود ويستيقظ مرة أخرى مع الصفير الذي يخرج من أنفي، ولا يمنحه القدرة على النوم. أسمع صوته الهادئ المعتذر عن إيقاظي، وأرى في الظلام وجهه المنكفئ على وجهي: دولت.. دولت. فأفهم سبب هذا النداء المتوسل. أحاول بعدها أن أتحكم في هذا الصفير، أرسل أوامر لعقلي، ليرسلها بدوره لمصدر التعب في جسمي. حاولت مرارًا أن أتخلص من هذا الصفير، أجريت تجربة على نفسي، أدرت مؤشر التسجيل في الموبايل، قبل دخولي النوم. لاحظت أن الدقائق الثلاثين الأولى صامتة تماما، كأني أستعرض صور وخيالات ذاكرة بشرية مرسومة بالألوان المائية الباهتة، ثم مرة واحدة بدون مقدمات يتصاعد الصفير الذي يخرج من هذه الذاكرة المحملة بالتعب. ماذا لو كانت ذاكرتي نوتة موسيقية محشوة بالغضب والصراخ، أو بيانو فُقد إصبع منه، وكلما مسَّت أصابع صانع الأحلام هذا الإصبع المفقود خرج هذا الصفير المزعج.
بعد خروج مصعب من السجن، جريت إليه، كأنها صفحة قديمة طويت وصفحة جديدة ظهرت في علاقتنا، نسيت أو تناسيت كل إساءاته وجروحه التي سببها لي، كنت أريد أن أقول للجميع إن هذا هو حبيبي، الذي وُضعتْ صورته بجوار صور جيفارا، وأحمد فؤاد نجم، وتحولت إلى أيقونات على الحوائط المحيطة بميدان التحرير. كنت أحشر اسمه وسط تجمعاتي الصغيرة، بجانب شكواي منه. سيستمر رمز وجه حبيبي الجرافيتي، كما هو على الحوائط، والمكتوب تحته: «أفرجوا عن ....» حتى بعد انتهاء الفوران الثوري، وبعد أن ننسى صاحبه، إلى أن يتم إسدال ستارة كثيفة من الطلاء على هذه السنوات.

ذاكرة إضافية

مع دخول الثورة في نفق مظلم، تكررت الرسائل الحادة من دولت، والتي تقطر عنفا وطفولة، ممزوجين بحب وعشم مكبوتين. وتكرر معها صمتي وعدم الرد على رسائلها الغاضبة. كنت وقتها غارقا في تناقضاتي الشخصية، وعنف التحولات السياسية، ومحاولة إثبات حبي لسناء. لم تجد دولت مكانا لها داخل هذه التحولات «الغريبة»، لم ينجح تفانيها وإخلاصها للثورة، خرجت من الفقاعة لتجد عالما لم تعد قادرة على فهمه واستيعابه، حاولت أن تتأقلم ورضيت بنسبة مهادنة لكي تثبت أركان مكانها خارج الفقاعة، ولكن الفقاعة تمددت مع ازدياد سوء الفهم بينها وبين هذا العالم الجديد. شيء ما بداخلها كان يفسد عليها حتى المهادنة، أو أي مصالحة، ويجعلها تنظر لنفسها في المرآة بقرف.

كان المد والجزر في علاقتها بحبيبها، وبآخرين تعرفت عليهم خلال التجمعات الثورية، وخذلانهم لها، وتسرعهم في الحكم عليها، وإدانتهم لحساسيتها المفرطة؛ سببا مباشرا في قراراتها العاطفية العنيفة. أحيانا كنت أفكر، كيف تجتمع داخلها هذه الحساسية المفرطة، والميل لقلب الحقائق؟ مركب غريب (حساسية مفرطة + خيال مفرط). ربما كانت الحساسية المفرطة هذه هي الجلد الخارجي لهذا النوع من الخيال. إحدى صديقاتي، لها قراءات متوسعة في الطب النفسي، قالت وأنا أستشيرها في حالة دولت: إن الخيال المفرط نفسه هو الدواء لهذه الحساسية المفرطة؛ لأنه يخلق شخصية أخرى ناجحة تقاوم شخصيتها المتألمة.

صفة «الإفراط» هي التي تجمع بين الاثنين في نظري، ربما الإفراط في الحساسية هو الذي سيؤدي لإفراط في أي شيء يأتي بعده لحماية الذات، سواء كان الإفراط في العزلة، أو الأمل، أو الكذب، وغيرها وغيرها من وسائل معالجة هذا الإفراط الذي دخل حياتها بدون رغبة منها، والذي ستظل تدفع ثمنه غاليا حتى النهاية. ربما بسبب هذا الذنب الذي لم ترتكبه وتدفع ثمنه غاليا، أحببت دولت، وملكت تفكيري، وبثت فيه الشكوك.

هذا الإفراط لم يجد ذاتا تتحمله، كأنه ليس خارجا من مادة ذاتها، ولكنه مُنزل عليها كرسالة يجب أن تصدقها للنهاية، وتنشرها للنهاية، وتموت من أجلها للنهاية.

كنت أقف من بعيد أسمع وأتابع سلسلة هزائمها الإنسانية، ولا أحاول الاقتراب. بدا وكأن روحها سقطت بين قطبي الرحى. وربما بسبب فشلها في استكمال أفلامها التوثيقية عن البسطاء؛ هؤلاء الذين جاءوا وغادروا الميدان بدون أن يطلبوا شيئا، وبدون أن يراهم أحد. ربما بسبب تفرغها للعمل في القناة الخاصة، تجرب فيها أفكارا تبدو ثورية، ولكنها ثورية مستهلكة، بعيدة تماما عن أفكارها الإنسانية. كانت تتسم بنزاهة موجعة تخشى معها أن تنزلق مع المنزلقين في اتخاذ الثورة كسبُّوبة وأكل عيش.

في لقاءاتنا الأخيرة، كانت تختار أقرب شيء ليدها لتصلني صفعتها في الحال ولا تتأخر ثانية واحدة. بدأت الفقاعة تعلن عن نفسها. في المرات السابقة التي كان يحدث بها مثل هذا الخلل، كان المنحنى يصل لنقطة اتزان جديدة. بتكرار العتاب، بدأت أفقد جزءا من حرارة ماضي العلاقة ومن بريق المغامرة، وتيبست طراوة جسدها في عيني ونفدت زيوته الطبيعية. ربما اقتربتْ أكثر من اللازم مني، دخلت منطقة الخطر ونفوذ «أنثاي الداخلية»؛ لذا بدأت أنفر من هذا الإلحاح.

عادة لم أكن أعقِّب على أخطائها، سواء في أثناء لقاءاتنا أو عبر رسائل الإيميل المبتورة أو الماسينجر، أو الهاتف، فالعلاقة كانت تمتد بقوة القصور الذاتي، وبدون مراجعات أو تصحيح لمسارها. لم أرد يوما أن أرد على أي إساءة لها بمثلها. حتى لا أترك أي شوكة تربي ألما في مكان ما. وأيضا كي أقطع الأمل لديها في العودة مرة أخرى كي ترد الإهانة، فقصاصها لنفسها كان شيئا مقدسا. كنت أترك الإهانة مفتوحة بدون غطاء. ولكنها كثيرا ما خيبت ظني وعادت إليَّ، ليس من أجل القصاص ورد الإهانة أو الاعتذار عنها، كما كنت أتوقع؛ ولكن لأني كنت صديقها الوحيد الذي تحبه بدون سبب.

تركت لها الفرصة دائما أن تشعر بأنها صاحبة المبادرة في إفشال صداقتنا؛ لأنني غير كفء لمجاراة هذه الحيوية والصدق اللذين تتسم بهما. كنت أنتظر هذه اللحظة، وتركت لها أن تتخذ القرار حتى تشعر بتفوقها وامتلاكها لزمام العلاقة، فعند أي بادرة من السأم تشعر بها نحوي، كانت تعجل باختلاق خناقة وترسل بعد افتراقنا بقليل تلك الرسائل الخالدة على الموبايل، والتي تحمل نبأ قطع العلاقة بيننا، «مابقتش أحبك ولا أحب أتكلم معاك». بالتأكيد كنت ورقة أخيرة لها، وتخشى أن تخسرها؛ فهذا معناه عودتها لغرفتها ومعها خزينة حديدية مغلقة من الغضب ولوم النفس، لن تنفتح أبدا لأنها كانت خزينة مشتركة، مفتاحها موجود مع شريكين، ولكن الشريك الثاني ضاع.

كانت ابنة مخلصة لبرج العقرب، المزيد من الغموض ورغبة الاختباء تحت الرمال. تبحث عمن تتبعه؛ لتلدغه بحسن نية، وتهرب بسرعة؛ لأنها لا تحتمل ثقل وجود جسد ملدوغ بجوارها ومغروس فيه قلبها. هذا الكائن الهش الضعيف المعزول بوحدته كانت له قدرة على الانتقام والإيذاء أيضا. لقد أجلت أن أكون ضحية لها؛ بانسحابي في الوقت المناسب؛ وربما لأني وجدت أن هذه العلاقة التي جمعتني بها، تحتاج لما هو أكثر من الحب أو التفهم أو الرغبة، ربما وصلتُ لهذه القناعة لأني لم أعد قادرا ولا راغبا في تحمل أي نوع من المسئولية، أردت أن أنسحب من دفق هذه الحياة القوية، بكل معاني القوة من ضغط وتغيير وجنون وانزلاق.

ربما كانت دولت تحتاج لمن لايحبها فقط، فالحب غير كافٍ لاحتواء هذا الوجع، وهذا التناقض، وهذا الشعور القوي بالإهانة، ولكنها تحتاج لمن يضحي من أجلها ويتفرغ لأن يكون انعكاسا لما ترسله هذه الروح الشقية من وجع أو صدق أو كذب. وربما كانت تحتاج أيضا لمن يبطل عمل كل أجهزة عدم الثقة في نفسها. أتفهم تماما رغبة كل الهاربين من أن يكونوا أضحية، ورغبة كل الراغبين في أن يكونوا أضحية. كات تهب قلبها ببساطة تصل لحد السذاجة، وببساطة أيضا تجرح من تهبه هذا القلب، وببساطة تخلق قلبا مزيفا لمن لا تثق بهم؛ لتطعنهم به. برغم كل ذكائها المتقد، فقد كان مفعوله ضعيفا ونسبيّا جدًّا في بناء حياتها. قد تكون لها حاسة شم ذئب تعرف بها مصلحتها الشخصية جيدا وتقربها من لحمها الطري. ولكن هذا الذئب ساذج لايأكل اللحم.

في أثناء فترات خروجها من الفقاعة كنت أستغرب جدًّا شبكة الصداقات السريعة التي تنشئها في الحال مع شباب موهوب في عمرها، وهذه القدرة على الإبقاء عليهم جميعا متعلقين بها. ربما لأنها تمنحهم الحد الأقصى من عصير روحها؛ وربما لأن القيامة ستقوم بعد برهة قصيرة؛ حيث ينفخ في الصور ولا يبقى أحد في ذاكرة التلفون. ربما صداقتي لدولت كانت من الاستثناءات التي عبرت بأكثر من قيامة ولم يمسح اسمي من ذاكرة التلفون، كانت تحتفظ به دائما في ذاكرة إضافية

خارج هذه الذاكرة المتقلبة التي سرعان ما تصاب بالألزهايمر فتلغي كل حاضرها وتقوم قيامتها الصغرى.
ستشعر تجاهي، وتجاه علاقتنا، دائما بعدم اكتمال، بذنَبها المغروس في جسمي، والذي سحب معه جزءا من جسمها، ربما تحن مرارا لهذا الجزء المفقود. كانت تلعب دور «الضحية الخالدة»، وبالرغم من كراهيتها لهذا الدور واستيعابها أنه دور مكرور، وعبارة عن أكليشيه وقع فيه الكثيرون والكثيرات وأضاعوا بسببه حياتهم. برغم هذا كله كانت تلعب نفس الدور ولكن بثوب جديد. يبدو أن الشيء الذي نكرهه بقوة، يصبغ حياتنا بصورته، كأنه الجزء الخفي من شخصيتنا، والذي نود إبرازه، ليس عبر الحب، بل الكراهية؛ لأننا بالأساس لم نحب أنفسنا بالقدر الكافي، فنقرأ كتاب شخصياتنا المتعددة عكس الاتجاه الصحيح للقراءة.
بالتأكيد دولت كانت تكره أن تكرر دورا لا تحبه، ولكنها كانت مكرهة على القيام بهذا الدور، لقد خُلق قدرها في لحظة نيئة لم تكن تملك له ردًّا، وتجمد ونضج وأخذ شكل حياتها. وأحيانا كانت تجري لتسبق هذا القدر. لقد رأيت هذا بعيني، ولم أقدر أن أؤجل هذا القدر أو أحشر أفكار الحياة، أو حتى نفسي، في أسلاك عجلته الدوارة ليتوقف عن الدوران المجنون، للأسف لم تكنْ هناك ولا ثغرة لشيء يضاف من الخارج. كنت أرى هذا، وتمنيت أن أكون مخطئا.
وبرغم هذه القطيعة عادت واتصلت بي مرة، كانت الأخيرة. اتصلت كأن شيئا لم يحدث. ربما جاءت تبحث عن ذَنَبِها المغروس فيَّ، وكأن علاقتنا لم تنقطع. طلبت أن تراني في الحال. وأضافت بأنها جاءت بهدية سوف أحبها.

قناع جديد

كان وليم؛ صديق كاتبنا؛ يطلب منه أحيانا الوقوف، في المكتبة التي يملكها، عندما يعن لديه أمر طارئ. بدأت علاقة كاتبنا بوليم ميخائيل قلادة وهما جالسان على تختة مدرسة التربية الحديثة في سوهاج، عندما نُقل أبوه للعمل بمديرية الري هناك. كان وليم زميل التختة والروح لكاتبنا، وبعد اليوم الدراسي، في أثناء عودتهما من المدرسة، يعرجان على ساحة الكنيسة ليلعبا، ثم يشربا الماء المثلج في هذا الحر الشديد قبل عودة كل منهما إلى بيته.

لم تنقطع الزيارات بين الصديقين، حتى بعد انتهاء اليوم الدراسي؛ فقد كان وليم يسكن في نجع الشجرة القريب من بيت كاتبنا الذي يقع بجوار الكنيسة. في أثناء ذهاب وليم لشراء حاجيات البيت من السوق كان يعرج على بيت كاتبنا، يصفِّر له، فينزل ويلعبان معًا أو يقفان أمام باب البيت فرحين بهذا اللقاء المتجدد. كان لوليم وجه قديس، باستطالته وصفرته النورانية، وشعره الأصفر الناعم المنسدل على جبهته، وطيبته لآخر مدى.

بعد عامين قضاهما في سوهاج، عاد الأب وعائلته مرة أخرى للوزارة في القاهرة. وفي الوقت نفسه ، وبعده بسنوات قليلة، كانت خريطة حياة وليم تقترب من خريطة حياة كاتبنا؛ بسبب هذه الصداقة القوية التي قاربت بين المسارين في الماضي. التقيا مرة أخرى في القاهرة، بعد سنوات طويلة بدأت معها صورة وليم في خيال كاتبنا تبهت تماما، ويزداد اصفرارها، ولكنها لم تبهت في قلبه، وبمجرد رؤيته استيقظت الألوان وتجدد هذا الحب القديم.

يذهب وليم للدراسة في كلية الآثار بالقاهرة، ويصبح من القلة المتخصصة في آثار وأيقونات العصر القبطي. ثم يترك هذا المجال الأكاديمي فجأة ويتجه لسلك الرهبنة، ويظل فيه لعدة سنوات؛ بحثا عن «الذات العليا»، ولكنه لم يحالفه الحظ بالعثور عليها وسط الصلوات والدعاء. فيعود من هذا الطريق، ليفتتح في حي المهندسين، مكتبة متخصصة في بيع مستنسخات الأيقونات القبطية، مستفيدا من سنوات خبرته في هذا المجال؛ وأيضا ليرمم بين زواياها هذه الرحلة الفاشلة للحياة كما كان يقيّمها بتواضع.

وسط صور المستنسخات للأيقونات ولوحات شهداء الكتاب المقدس و «وجوه الفيوم»، وجد وليم «الذات العليا» التي كان يبحث عنها، بعد أن تحولت حكايات الموت والشهادة، إلى صور يلمس فيها الموت بشكل صافٍ ومجرد. كان وليم يتوقع دائما أن يقابل هذه الذات، كذات منفردة، تهبط عليه من سماء الكتاب المقدس لتحل فيه، أو يحل فيها. ولكنه وجدها داخل عالم الفن، كذات ذائبة في الصور واللوحات والألوان، في الموت والحياة، تمنح من يحاول أن يتماس معها ويكتشفها، إحساس الذوبان في قلب الماضي، وهو الإحساس الذي يمنح صاحبه الخلود.

كان وليم يرى في اللوحات الدينية والأيقونات، خلودا لم يتسنّ لأصحابها، الذين ماتوا، أن يعيشوه، فقد عاشت بعدهم بينما هم اختفوا. كلما تمعن في صور الأيقونات ظهر هذا العالم الخالد الذي يقف وراءها. كان إيمانه قبل ذلك يقوم على مفهومي الفداء، والأضحية، مثل أي مسيحي يحب دينه ومخلِّصَه، الذي كُتب له الخلود بالفداء والتضحية. ولكن بعد غوصه في عالم الأيقونات والصور، التي تضع إطارا مذهبا أنيقا حول الموت والشهادة ومفهوم الأضحية، أصبح يؤمن بنسخة مصورة للخلود، فالصورة حلت معضلة الخلود بالنسبة إليه، بلا ألم ولا عذاب ولا صليب. في أثناء رحلة

البحث هذه التي خاضها وليم بين مسارين مختلفين للخلود، توفيَ والده في سوهاج، وانتقلت أمه للعيش معه في القاهرة ليؤنس كل منهما وحدة الآخر.
في أحد المؤتمرات التي أقيمت قبل الثورة مباشرة، وكانت عن تاريخ «الأيقونات القبطية»، كان كاتبنا يقوم بكتابة تحقيق عنها لجريدته، تقابلا هناك، وتذكرا تلك السنوات البعيدة، ولمسا معًا فرحة الصداقة القديمة واللعب في ساحات الكنيسة وشرب الماء المثلج، ولقاء ما بعد اليوم الدراسي في الساحة الترابية أمام بيت كاتبنا بجوار طرمبة المياه.
تواعدا على اللقاء في المكتبة التي يملكها وليم. تقع المكتبة بالقرب من مبنى الجريدة التي يعمل بها كاتبنا؛ مما جعلها نقطة العودة والانطلاق بين أكثر من مشوار يومي يقوم به. كان يقضي معه أوقاتا ممتعة في الحديث ليعوضا تلك السنوات المحذوفة من تاريخ صداقتهما. تشعبت الأحاديث بينهما خلال هذه اللقاءات، وزادت خلال أحداث الثورة، بعد أن فاض عند وليم وقت الفراغ عن وقت العمل؛ نظرا إلى قلة عدد السياح الأجانب والمقيمين من المترددين على مكتبته.
كان كاتبنا، بمجرد دخوله المكتبة، تأخذه هذه الوجوه الشاخصة في تلك المستنسخات التي تصور سير شهداء المسيحية، وأيضا هذا الجزء الخاص بوجوه الفيوم. يدوم وقوفه أمامها طويلا، يتنقل بعينيه وسط «متحف الموت»هذا، ويحاول أن يسبر غور هذه الأزمنة البعيدة بكثرة التحديق فيها، لعل ثقبا ينفتح ويظهر «الخلود» بصورته الأصفى.
كان كاتبنا يشك دائما في أن أرواح وسير هؤلاء المرسومين في المستنسخات، تعود ليلا لتتعرف على أجسادها التي فارقتها في الماضي، وربما كان جسدا كاتبنا ووليم، من مستنسخات هذه الأرواح في الحاضر. وأصبحا يكملان سيرة هؤلاء القديسين القدامى، وليس فقط سيرتهما الشخصية.
كانا يبيتان أحيانا في المكتبة بسبب حظر التجول، الذي تمَّ فرضه بعد فض اعتصام رابعة العدوية، وتعذر عودة كل منهما للبيت؛ كاتبنا لبيته في مصر الجديدة؛ ووليم لبيته في وسط البلد؛ أحدهما يشغل الكنبة الكبيرة في الغرفة الداخلية؛ والآخر على السرير الإيديال المجاور له المخصص لفرد واحد. وفي الصباح يذهب كاتبنا إلى مقر الجريدة المجاور، بينما يكمل وليم يومه في المكتبة.
توفيَ أحد أقرباء وليم في سوهاج، فلم يكن أمام كاتبنا إلا قبول الجلوس مكانه في المكتبة، فهو لن يغيب سوى يومين؛ منهما يوم إجازة المكتبة. كان وليم قد سافر بالفعل في الفجر وترك لكاتبنا المفاتيح مع والدته. في اليوم نفسه، قبل ميعاد إغلاق المكتبة المبكر بسبب إجراءات حظر التجول؛ اتصلت دولت بكاتبنا، بعد فترة انقطاع دامت أكثر من شهر، بدون أي كلام متبادل بينهما، أو حتى عتاب، وأخبرته بأنها تريد رؤيته في الحال.
تردد كاتبنا في البداية، فقد تعود طوال هذه الأيام على ألا تكون دولت موجودة ضمن خطة يومه التي احتلت من قبل كل أوقاتها وأماكنها الحساسة، وبدأ يستعيد حيوية علاقته بزوجته، وبدون أي شكوك في صدق إحساسه تجاهها. ربما وفاة أخيه الأصغر حامد سببت له الكدر، إلا أنها منحته قوة على مواجهة حب دولت ونسيانها. وضع كاتبنا موت أخيه كسطح عاكس بينه وبين دولت؛ لما للموت من قوة على تشتيت أي موجة تسقط على سطحه.
برغم كل هذا، بمجرد أن رأى اسم دولت مضيئا على شاشة هاتفه المحمول، حتى بدأ قلبه بالخفقان السعيد، هذا الفوران الوجودي الذي ينتابه، وتمتد آثاره حتى يشعر بغرغرة اللعاب في حلقه ولا يتمالك كلماته بدقة وهو يرد عليها في الهاتف، وتتسارع الكلمات لتقفز فوق بعضها البعض كأنها

تتدحرج وتتدافع فوق درج لتمسك بتلابيب من هو السبب في هذه السعادة. تأكد من أنه مازال يحب دولت. بدأ يستعيد بريق العلاقة من جديد، ويستعيد في قلبه إحساس النزوة الطارئة الهشة المسروقة من عادات الزمن وتقاليده البرجوازية، والتي تجعله يسلك سلوك «اللص الشريف». وافق على مقابلتها على الفور، ووصف لها العنوان. لم يطل انتظاره، واستغرب لسرعة حضورها، كأنها كانت تقف في الشارع المجاور، فقد وجدها تنسل من الباب الزجاجي للمكتبة، وفي يدها اليسرى حقيبة ظهر صغيرة، وكيس بلاستيكي في يدها اليمنى.
حاول أن يكون بعيدا عنها بمسافة حتى يتيح لها الحرية في عناقه من عدمه. كان يشعر برغبة قوية في احتضانها بعد هذه الفترة من الغياب، والتي شعر خلالها بأن الحفرتين اللتين حفرهما ثدياها الصغيران في صدره قد ردما تماما. اقتربت منه، فاحت منها رائحة شعرها المبلول وظهرت في خياله تلك الصَّدَفة التي خرجت منها فينوس في لوحة بوتيتشيلّي. ارتمت في صدره، مثل الشهور السابقة، وشبكت يداها خلف ظهره، ورمت برأسها على كتفه، كمن يرمي حملا ثقيلا يحمله. شعر بيأس هذا الجسد المحدوف والمنوَّم بدون إرادة صاحبته. تراجع قليلا، كادت أن تتفوه بإحدى غضباتها، ولكنها ابتلعت غضبها سريعا، بينما لحظ كاتبنا سوء فعلته بتراجعه، فأقدم ووضع رأسها على كتفه، ولكن في هذه اللحظة استعادت دولت شخصيتها القوية، وتملصت برأسها من يده، وانتفضت مبتعدة. كانت عيناها في تلك اللحظة معلقة على حائط الصور الذي يقع خلف ظهر كاتبنا.
بمجرد أن وقعت عيناها على «وجوه الفيوم» المعلقة في زاوية حائط الصور، حتى انجذبت لها وخطفها هذا الضوء البارد واللون الذهبي الذي يلمع بداخلها. كان هناك وجه شبه بين وجهها ولون بشرتها السمراء وحواجبها الثقيلة وشعرها البني المجعد، وجسمها الضئيل، وبين هذه الوجوه.
أخذ محسن يتجول معها شارحا لها تاريخ هذه الوجوه الذي حفظه عن ظهر قلب من كثرة كلام وليم عنها. كان يحاول أن يفتح ثغرة في هذا الجدار الذي تقف وراءه دولت، فلم يكن يعرف حتى الآن سبب الزيارة. لاحظ اضطرابها الشديد، واستسلامها لكل ما يقوله بدون أن تبدي أي تعليق. لم يسألها عن هذا «الأمر الهام» الذي جاءت من أجله، ولا عن الهدية، فإحساسه بخسوفها الروحي كان كافيا لتفسير هذا الأمر الهام.
أرادت دولت أن تبعث الدفء في أوصال هذا اللقاء البارد، فأخرجتْ سريعا علبتين من الكشري بالكبدة، من الكيس البلاستيكي الذي كانت تحمله عند دخولها، فانطلقت الرائحة. عملت حسابها على أن يتناولا عشاءهما معًا مثل السنوات الماضية؛ كشري بالكبدة الإسكندراني التي كانت تفضلها عن الكبدة المصراوي. رائحة الكشري غيرت خطة كاتبنا تماما، وبدأ يستعيد استرخاء العلاقة وحيويتها، وقللت شكوكه من زيارتها.
بعد تناول هذا العشاء المبكر السريع، فقد كانا على وشك المغادرة؛ طلبت دولت من كاتبنا طلبا غريبا للغاية، أن تقضي ليلتها في هذا المكان حتى صباح اليوم التالي. بُهت من الطلب، ومن سرعة وروده على رأسها، كأنه طلب جاهز منذ زمن بعيد، وليس وليد الصدفة. ولكنه لم يمانع أمام إلحاحها اليائس الذي جعله يقبل بعد مقاومة يائسة من ناحيته. لم يكن كاتبنا يريد أن يضيعها مرة أخرى، وبلع كل وعوده أمام نفسه بالهرب والابتعاد عنها، وسعد بهذا النفق الصغير وضوئه الخافت، الذي بدأ في الظهور في الجدار الفاصل بينهما.

فكر بأنه يمكن أن يؤجل تسليم المفتاح للغد قبل وصول وليم بوقت كافٍ. لم يكن بالمكان أي وسيلة للراحة سوى هذه الغرفة الداخلية التي تضم الكنبة والسرير وكراكيب المكتبة الأخرى، بجانب حمام في الخلف، وأوفيس صغير لعمل الشاي والقهوة تتوسطه ثلاجة عامرة بزجاجات البيرة.
كان تبريرها لرغبتها المفاجئة في المبيت أنها تريد أن تقضي ليلتها مع هذه الوجوه وسير الموت المصورة. ذكَّرته هذه الرغبة بالروائي جمال الغيطاني الذي قام بالمبيت ليلة في غرفة الدفن داخل هرم الملك خوفو، وخرج ليصف ملمس الليل على جلده، «كقماش له وبر». كانت دولت تريد أن تلمس وبر الليل وسط عصور أخرى للموت وفي صحبة رائحة الكشري، كما أخبرت محسن.
لاحظ محسن أنها تتعامل مع المكان بشكل أليف فوق العادة، برغم غرابته، لدرجة أن الشك تسرب إلى رأسه، بأن هذه الزيارة ليست الزيارة الأولى للمكتبة، وأنها جاءت هنا من قبل، وتعرفت على وليم، وصارا صديقيْن، من كثرة حكاياته عنه، وربما تكون صداقتها بوليم إحدى صداقات حياتها الأخرى التي لايعرفها، ولايجهد نفسه في تتبع آثارها، فكل شيء يمكن أن يحدث مع دولت، أن تكون وسيطا مشتركا بين رجال من حيوات مختلفة.
دخل كاتبنا الحمام وأجرى مكالمة مطولة بوليم لكي يطمئن أكثر بأنه سافر بالفعل ولن يعود فجأة من هذا السفر، وأخبره في أثناء المكالمة بأن كل شيء على ما يرام في المكتبة، وسأله عن ترتيب ألوان مفاتيح الأقفال التي توضع على الباب الصاج من الخارج. كان اليوم التالي هو يوم الإجازة الأسبوعية للمكتبة، فهناك فسحة من الوقت لتجاوز هذه المغامرة بدون توضيحات جديدة، ولإظهار كل النوايا، وما خفيَ منها. هكذا فكر كاتبنا مع نفسه. وربما لم يشأ أن يخبر وليم، بقرار مبيت دولت في المكتبة، برغم غرابته؛ لأنه خشيَ بأن يضحك وليم عليه في سره؛ لأنه صدق بأن كل هذا يحدث صدفة.
بمجرد خروجه من الحمام، هيئ له بأن دولت كانت ممسكة بحقيبته الجلدية وتركتها بخفة بمجرد أن رأت ظله على الباب الزجاجي للحمام وهو يهم بالخروج.
أغلق على دولت صاج المكتبة من الخارج، بعد أن أكدت له أكثر من مرة أنها مستمتعة جدًّا بقضاء ليلتها وسط هذه الوجوه. قبل مغادرته حمل لها، من السوبر ماركت المجاور، بعض المشروبات والعصائر والشوكولاتة وكيسا كبيرا من شيبسي الملح الذي كانت تحبه للغاية بسبب ضغطها الواطئ، والذي كان عنصرا أساسيّا من محتويات حقيبتها، مع علب عصير الجوافة، في نزهاتهما ومسيراتهما وسط المظاهرات وأحياء القاهرة القديمة.
كانت هناك بعض اللجان المرورية تقوم بتفتيش العربات. توقف في إحداها في شارع جامعة الدول لمدة دقائق. هذه الدقائق جعلته يفكر من جديد، ويستعيد حالتها عند الدخول، وبدأ يستعيد رسم خيوط المؤامرة وحبكها في رأسه. فربما عرفت دولت بسفر وليم، لهذا اتصلت به في هذا التوقيت بالتحديد لمصالحته ولمعرفتها بأنه هناك في المكتبة. ربما هناك سر في هذه المكتبة، هل وصل يأسها إلى أنها كانت تريد أن تهبه جسدها مثلا؟ ولكن سلوكها لم يشِ بهذا. هل جاءت لتطمئن بأنه لم يلفظها من حياته؟ هل هناك مصيبة قامت بها في الشقة التي تقيم فيها، مع مجموعة من المصريين والأجانب، وتريد أن تختفي هذا اليوم عن الأنظار؟ هل أبوها أصر على عودتها لبيت العائلة وخرج ليطاردها؟ لم يجد أي إجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، التي لم تكتمل كأسئلة وأصبحت مجرد خيوط من الشك تخرج من رأسه وتلتف حوله.

شعر بأن وقوفه لدقائق أمام لجنة التفتيش، علامة بأن هناك من يريده أن لايبرح هذه الدائرة التي بها المكتبة. فكر سريعا في الرجوع ومطالبتها بالمغادرة فورا، ولكن الركب تحرك، وتحركت معه وساوسه، وهدأت قليلا، وصحبها معه إلى البيت الخالي، في مصر الجديدة؛ حيث كانت زوجته تبيت عند والدتها.
أعاد له وصوله للبيت وبعده عن المكتبة، التفكير في المؤامرة من جديد وبقوة، فكلما ابتعد عن المركز، زادت خيوط المؤامرة وضوحا والتفافا حول جسده. فكر في أنه ربما يكون تصميمها على المبيت داخل هذه المكتبة المكتظة بأرواح الميتين، سببه هذه الذات العليا للموت التي تهيمن على المكان، وصور هذه الأيقونات التي يشع منها بريق الخلود؛ لرغبتها في تجاوز الخوف من الموت، بمعايشته بهذا الشكل الرمزي. تذكر تجربتها السابقة عندما ألقت بنفسها في النيل، وكل محاولاتها الفاشلة الأخرى في إدمان مخدر الموت وكسر هيبته. تذكر سِيَر الموت للكثيرين من أصدقاء دولت الثوريين، أو للمنتحرين من الكتاب والشعراء الذين تحبهم، والتي كانت تسردها عليه. حدس وقتها بأن هذه السِّير، وهذه المحاولات، بمثابة المخدر الذي كان يسكِّن ألمها وخوفها من الموت قليلا، كأنها تضع كل يوم نقطة من إكسير الموت مع كوب العصير الذي تتناوله صباحا.
لم ينم في تلك الليلة. قضى ساعات في سرير الأرق، وهو يدخن. بدأت تطارده هواجس فيلم «غروب وشروق»، وفكر بأنه قد يموت أو يصاب بأي أذى، أو ينام ليومين متصلين مثلا، ويمنعه هذا من الخروج، بينما دولت محبوسة في المكتبة، ليأتي صباح بعد غد ويفتح وليم المكتبة، ليجد هذه الجنيَّة التي خرجت من إحدى الأيقونات المعلقة على الحائط. جال بخاطره خاطر آخر أفزعه، بأنها ربما كانت تريد أن تقضي على حياتها وسط «متحف الموت» هذا، لا أن تمتص رحيقه وتكسر هيبته فقط، بل لتضيف صورة حديثة، من لحم ودم، إلى المتحف.
أصبحت المؤامرة، في خياله، مكتملة الأركان. قرر النزول فجرا من البيت، قبل موعد فك الحظر. بينما يقوم بوضع رخصة العربة والمفاتيح في حقيبته الجلدية على عجل، اصطدمت يده بلفافة صغيرة بحجم الكف داخل الحقيبة. برقت في خياله صورة دولت وهي تترك حقيبته بخفة في أثناء خروجه من الحمام. بهت عندما رأى داخل اللفافة بروازًا ذهبيًّا أنيقًا، تذكره على الفور، وجد بداخله صورة للوحة «العناق» للفنان جوستاف كليمت، هذه الصورة التي أهداها كاتبنا لدولت؛ كرمز لعلاقتهما كما قال لها يوما، فقد كانت هذه اللوحة تشبه عناقهما، بكل ما يحمله من حب وصداقة وخلود.
طوال الطريق، من مصر الجديدة للمهندسين، الذي قطعه في عشرين دقيقة ـ سهل له كارنيه النقابة المرور وسط هذه الظروف الأمنية الصعبة ـ كان يفكر في أنه بمجرد دخوله المكتبة ستتعثر قدمه بخيط من الدماء. لم تفارق هذه الصورة خياله: خيط من الدماء يتسرب ويدوس عليه عند دخوله المكتبة، يتبعه فيصطدم ببركة كبيرة، تكبر وتتمدد لتشمل الحي، وتأخذ طريقها لأحياء أخرى، أما هي فلم يعد لها أثر. طوال رحلته شعر بأن العربة تسير فوق دماء دولت.
فكر في أن الصورة التي رسمها لدولت منذ البداية، هي صورة «الأضحية». كان يسعى وراء سير الدماء والموت التي تفوح من حكاياتها، وأصبح هو الصياد الذي أثارته رائحة تلك الدماء، ولن يتخلى عن فريسته مهما حدث. لم يعد أمامه إلا أن يسلم بنبوءتها عن نفسها، بأنها ستموت صغيرة مثل أمها، وتكون هي «الأضحية» الحقيقية، ويكون هو «أضحية» الشعور بالذنب

الأبدي. كانت صورة «الأضحية» تهيمن على خيال علاقتهما، بل أيضا مصدر قوتها وسبب تقاربهما من بعضهما البعض، ربما أكثر من تجاذب تفاوت العمر.
دخل عليها فوجدها متكورة على نفسها داخل أحد الأركان في وضع جنيني، بنفس الوضع الذي تركها عليه، ورأسها فوق ركبتيْها. خالَ بأنها ماتت، فلم تسمع صوت أزيز صاج المكتبة وهو يُرفع. رفعت رأسها بعد ثوانٍ مرت كأعوام. رأى ابتسامة واهنة في نور النهار الذي بدأ يتسلل من شباك الغرفة الداخلية. مرت فراشة أمام هذه الإضاءة المتسللة من الخارج. لم تندهش لحضوره المبكر، وربما توقعته. كانت عارية تماما. وجد بجانبها ملابسها التي جاءت بها، وكل ما اشتراه لها بالأمس، من طعام وحلوى، وشراب، كما هو لم يمس.
خرجت من فمها همهمات كأنها تتكلم بلسان من عالم آخر. كانت مشغولة أكثر بالنظر لضوء النهار الضعيف الآتي من الغرفة الداخلية.

تمت

الإسكندرية
٢١ مايو ـ ٢٠١٨